الدكتور محمد الجوادى

فى حدائق الجامعة

مذكرات الخريجين الأوائل لجامعة القاهرة
١٩٣٠ - ١٩٤٠

دكتور عبد العزيز كامل
دكتور شكرى عياد
دكتور إبراهيم عبده
سعيد جودة السحار



الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠٠٧

في حدائق الجامعة

مذكرات الخريجين الأوائل لجامعة القاهرة

١٩٣٠ - ١٩٤٠

في حدائق الجامعة : مذكرات خريجي جامعة القاهرة في عقدها الأول (١٩٣٠ ـ ١٩٤٠) عبدالعزيز كامل ... (وآخ) ؛ (جمع) محمد الجوادي . ـ القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٧.
٣٣٢ ص ؛ ٢٤ سم .
تدمك ٢ ٠٦٣ ٤٢٠ ٩٧٧ ٩٧٨
١ ـ كامل ، عبدالعزيز ـ المذكرات
٢ ـ عياد ، شكري ـ المذكرات
٣ ـ عبده ، إبراهيم ـ المذكرات
٤ ـ السحار ، سعيد جودة ـ المذكرات
(أ) الجوادي ، محمد (جامع)
رقم الإيداع بدار الكتب ٢٣٦٩٨/ ٢٠٠٧
I.S.B.N - 978 - 977 - 420 - 063 - 2
ديوي ٩٢٠

الإخراج الفني : مادلين أيوب فرج

تصميم الغلاف : ماجدة عبد العليم

إهداء

إلى العلامة الجليل
الأستاذ الدكتور تمام حسان
تحية تقدير للسمو الروحى والعقلى والنفسى

د. محمد الجوادى

هذا الكتاب

يتضمن هذا الكتاب مدارسة لمجموعة من مذكرات الخريجين الأوائل لكلية الآداب فى جامعة القاهرة، وقد كانت هذه الكلية باسمها الجديد شيئاً جديداً على الحياة العلمية المصرية التى عرفت الأزهر بعراقته، وعرفت المدارس العليا المتخصصة والتى يرتبط اسمها ارتباطاً ظاهراً ووثيقاً بالمهن التى تؤهل طلابها لها، وهى المدارس التى تحولت تباعاً إلى كليات تحمل اسم التخصص أو المهنة ذاتها (الطب والهندسة والزراعة والحقوق والطب البيطرى والتجارة. . . إلخ).

ونتأمل من خلال مدارساتنا لهذه المذكرات التى تباينت فى كتابتها، وأسلوبها، ومحتواها، وتوجهاتها كيف أمكن للفكر الجامعى أن يجد فى مرحلة مبكرة مكاناً متميزاً تحت الشمس فى مجتمع كان يحفل بالشموس الساطعة على مدى تاريخه.

فى الباب الأول نتدارس مذكرات الدكتور عبد العزيز كامل الذى كان بمثابة أبرز نموذج لخريجى كلية الآداب الذين انتموا إلى جماعة الإخوان المسلمين، وقد وصل فى هذه الجماعة إلى مكانة متقدمة فأصبح أمينها

العام، كما وصل فى عهد الثورة إلى منصب الوزير فى عهد الرئيس عبد الناصر، وإلى منصب نائب رئيس الوزراء فى عهد الرئيس السادات، ووصل أيضاً فى خارج وطنه إلى منصب مدير جامعة الكويت.

وفى الباب الثانى نتدارس مذكرات الدكتور شكرى عياد العالم الناقد الأديب الكاتب الذى يمثل أبرز خريجى قسم اللغة العربية من غير المعيدين الذين واصلوا دراستهم العليا وحفروا طريقهم الأكاديمى بعصامية مقتدرة، وهو قد صنع لنفسه مكاناً بارزاً فى الدراسات الأدبية والنقدية، وقد كان طالباً متميزا، وكان مؤهلاً بتفوق لدرجة الامتياز فى اللغة العربية بيد أن حادثاً فرداً حال بينه وبين ما يستحق، وتخرج فى عداد الخريجين العاديين، لكنه سرعان ما أثبت نفسه وأتم رسالتى الماجستير والدكتوراه وهو فى خارج السلك الجامعى، وعين مدرساً، وأصبح من أفضل أساتذة الجامعة.

وفى الباب الثالث نتدارس مذكرات الدكتور إبراهيم عبده أول أستاذ من خريجى الجامعة يتولى التدريس فى معهد الصحافة، وعميد هذا المعهد الجامعى فى فترة حياته الأولى، وهو الرجل الذى كان بمثابة النموذج البارز على اشتغال أستاذ الجامعة بالحياة المهنية خارج الجامعة، صحفياً، وكاتباً، ورئيساً للتحرير، ومستشاراً، وناشراً، ومديراً.

وفى الباب الرابع نتدارس مذكرات الأستاذ سعيد جودة السحار الذى كان ثالث خريج يتخرج فى قسم اللغة الإنجليزية، فقد تخرج فى ثالث دفعات الجامعة (١٩٣١) بينما لم تضم كل دفعة من الدفعتين اللتين سبقتاه إلا خريجاً واحداً فى كل دفعة، وهو الرجل الذى كان بمثابة أول رجل أعمال بين خريجى الجامعة المصرية الحكومية، وقد مارس نشاطه الحر فى مجال

الفكر والثقافة، وضرب مثلاً للنجاح البارز الذى لم تقيده الدراسة، ولم يحل دونه البروتوكول.

ولاشك فى أن مدارسة مذكرات هؤلاء كفيلة بأن تطلعنا على كثير من حقائق تاريخنا التربوى والجامعى والاجتماعى، بل إنها تطلعنا على ملامح مميزة فى تاريخنا الاقتصادى والسياسى أيضا، فهى تروى كثيراً عن تفصيلات مجانية التعليم ومصروفاته، كما تروى كثيراً من التفصيلات عن التغيرات التى أصابت نظمه وهياكله، كتحول التعليم الثانوى من نظام السنوات الأربع إلى السنوات الخمس، والأخذ بنظام الليسانس الممتازة فى كلية الآداب، والطبيعة المبكرة لنظام التشعيب إلى الأقسام المختلفة فى هذه الكلية التى كانت بمثابة أبرز معهد تعليمى قدمته الجامعة للأمة المصرية.

كذلك فإن المذكرات تقدم بعض ذكريات رجلين قدر لهما أن يعملا فى معهدين ناشئين فى رحاب كلية الآداب: عبد العزيز كامل فى معهد الدراسات الإفريقية، وإبراهيم عبده فى معهد الصحافة.

وتطلعنا المدارسات التى نقدمها لهذه المذكرات على كثير من حقائق الحياة العامة والثقافة التى كانت تفرض ذوقها وآثارها على طلاب الجامعة فى ذلك العصر، فنرى الإعجاب بالسينما، والإقبال عليها، والانبهار بمضمونها، والتأثر بقصصها، ونرى إعجاباً أقل بالمسرح، كما نرى مظاهر الإحساس المتفاوت بالفروق الطبقية، وبالفروق بين المدينة والقرية، بل نرى الإحساس بالفروق المذهبية والفلسفية بين جماعات الإسلام السياسى والمجتمعى، ونرى الإحساس بالفقر والغنى، وبالتعليم والجهل، وبالمرض والصحة، كما نرى الإحساس بقلة الحيلة، ونرى فى مقابله إحساساً آخر بالقدرة على

المناورة، والأمل فى توفيق الله.

ونرى فى هذه الدراسات أثر الحركة الوطنية ظاهراً حتى إن لم يتحول إلى مظاهر ثابتة، ونرى الإحساس بالوطن عالياً وإن لم يدخل أصحاب المذكرات الخدمة العسكرية الإجبارية، ونرى الإصلاح الاجتماعى يمضى وئيدا لكنه ينجح فى كل خطوة من خطواته.

ونطالع فى هذه المذكرات أصداء الإعجاب بالأساتذة الأفذاذ مع الحديث عن بعض المآخذ عليهم، كما نرى إيماناً بدور القراءة فى تكوين الشخصية، وإحساساً بأن المكتبة هى المدرسة الثانية إن لم تكن الأولى، ونرى رغبة شديدة فى التعبير عن النفس بالكتابة، أو بالحديث المنظم، بالشعر، أو بالزجل، أو بالقصة، أو بالرواية، أو بالمقال، أو بالفعل، ونلمس مشاركة إيجابية فى الحياة العامة لا تقف عند حد، ولا تنثنى فى طريقها تثريبا ولا تأنيبا مما تعودت عليه أجيال تالية، ونرى إحساساً عالياً بالزمالة، وبالصداقة، وبالأخوة، وبالجيرة، وبقيم الأبوة والبنوة والأستاذية والانتماء.

ونرى فى هذه المذكرات تعدداً طبيعياً فى مناهل الثقافة، وفى صيغ النشاط الإنسانى والفكرى والثقافى، كما نرى فيها تنوعاً فى توجهات الجماعات الدينية، وملامح واضحة للفروق بين توجهاتها واعتقاداتها ومعالجاتها للأمور والسلوك.

وخلاصة القول : إننا نرى فى هذه المذكرات روح أمة ناهضة، واثبة إلى المجد، حتى إن اختلفت نظرتها إليه وإلى وسائله، كما نرى حباً للمعالى وبعداً عن الدنايا، ودقة فى التعبير عن هذه المعانى النبيلة، ونرى أيضاً

تقديراً للعمل الجاد ولكل القيم المتصلة بالعمل، والجهاد، والكفاح.

ولست أحب أن ألخص ما تدلنا عليه المذكرات من ملامح زمن الليبرالية الحقة، ولا من ملامح الوعى العميق بحركة الحياة، ولا من ملامح الحياة الجامعية فى ذلك العصر الأول، ولا من ملامح التكوين المدرسى والجامعى والثقافى والنفسى لأصحابها، فكل هذا قريب كل القرب من يد القارئ، وأظنه لن يفوت فرصة الإفادة منه.

وإنى لأرجو للقارئ أن يسعد بهذه الدراسات كما سعدت بها، وأن يسعد بقراءة هذا الكتاب على نحو ما سعدت بكتابته، وأن يستمتع بقراءة ما يحتويه على نحو ما سبقته أنا إلى هذا الاستمتاع الذى لاشك فيه.

وأرجو الله سبحانه وتعالى أن يهدينى سواء السبيل، وأن يرزقنى العفاف والغنى، والبر والتقى، والفضل والهدى، والسعد والرضا، وأن يمتعنى بسمعى وبصرى وقوتى ما حييت، وأن يذهب عنى ما أشكو من ألم ووصب وقلق، وأن يجعل خير عمرى آخره، وخير عملى خواتمه، وخير أيامى يوم ألقاه..

د. محمد الجوادى

● التعريف بالمذكرات وصاحبها ● التعليق على عنوان المذكرات الذى اختاره صاحبها: اختار أن يصور نفسه جزءاً من نهر الحياة، وقد جاء هذا الاختيار متوافقاً تماماً مع ثقافته المهنية، ودراساته العليا، وهو الجغرافى الذى شغل فى دراساته بنهر النيل وبمساره، كما جعله التأمل الدائم والدائب فى الحياة العامة والحياة الخاصة وفى النهر بحكم وجوده فى المعتقلات يفكر فى مصير حياة هذا النهر حين تبدأ وحين تنتهى، ونحن نراه فى إحدى تأملاته يستدعى تأملاته حين يرى النهر رأى العين وهو يسير على شاطئه ● أبدأ مدارستى لهذه المذكرات من زاوية ضيقة لكنها مهمة، ذلك أنى كنت ولازلت أندهش من كثير من لفتات صاحبها المتأثرة بروح البيروقراطية، فهذا رجل عانى المعتقلات، ودفع ثمناً كبيراً لمواقفه الفكرية، لكنه مع هذا الثمن الذى دفعه حريص على أن يذكر أنه لم يصدر عليه أى حكم قضائى(!!) وكأنه كان يتوقع أن يمتد التعذيب أيضاً ليشمل صدور أحكام قضائية عليه تدينه على موقفه الفكرى، وكأنما كان كل هذا التعذيب الذى مر به والاعتقال الذى عاناه غير كاف لتأديبه ● يجيد تصوير الفارق الشاسع بين مواقف الحياة منه، وتقلبه فى ظروف متباينه ومتناقضة ● يبدو أنه حين كتب مذكراته لم يكن يدرك ما يدركه عامة الناس اليوم من أن إعادة كتابة التاريخ تمثل وسيلة للهدم، وللتوجيه، ولا تستهدف دوماً إظهار الحقيقة، وهو يحدث نفسه بما اكتشفه من هذه الحقيقة على استحياء، وكأنه لا يتصور أن الجماهير المعاصرة تدرك فى تلقائية ووضوح ما أدركه هو بعد عناء ● يبلور بدقة شديدة المرض الحاد الذى أصاب التاريخ المصرى المعاصر مرات عديدة على مدى عهد الثورة ● يرى أن هناك فئات ظلت لها قيمتها الكريمة مع تاريخنا وحياتنا، وسرعان ما يعود إليها مكانها، إذا ما حاولت بعض العهود أن تغير عليها ● يضرب مثلاً بالسيدة زينب رضى الله عنها ● يستعيد من ذاكرته ذكرى لقائه الأول بمدينة القاهرة فى أكتوبر ١٩٣٦، حين جاء للالتحاق بالجامعة، ونراه حريصاً على أن يشير إلى اكتشافه المبكر للتفاوت الطبقى الحاد فى القاهرة ● يقدم لنا باقة جميلة

من المعانى النبيلة التى تتصل بفهمه لمعنى الجامعة، وسلطتها، ومكانة العلم والرأى فيها، ومكانة الجامعة من أوقاف الأميرة المحبة للعلم التى وقفت عليها من المال ما يساعدها على أن تؤدى وظيفتها ● إيمانه العلم على هذا النحو يجعلنا نسرع الخطى لنتأمل فى حقيقة فهمه للتدين، وهو الرجل الذى كان مبرزاً فى جماعة كان لها شأن كبير فى الحياة السياسية منذ نشأتها وحتى الآن ● نراه حريصا على أن يصور نهجه فى التدين شبيهاً بنهج الشيخ حسن البنا وإن لم يكن متطابقاً تماماً، فكلاهما بدأ بالتصوف، وهو يروى بهدوء شديد يكاد يقترب من البرود إقباله على التصوف وانصرافه عنه ● يروى أنه كان يزيد من جرعته السلفية فى تدينه بكثير عما كان موجوداً فى فكر حسن البنا الذى كان فيما يبدو مما يرويه أقل منه فى التمسك بالسلفية ● تمكن عبد العزيز كامل من أن يلخص علاقته الفكرية بالتوجهات الإسلامية فى مراحل هذه العلاقة الأربع، بدءاً من الصوفية ثم السلفية ثم الإخوان المسلمين، ثم الخروج على الإخوان المسلمين ● من الإنصاف أن نشير إلى الموقف الذى جعله يعبر فترة الانتماء للفكر السلفى بسرعة بالغة ● الثناء على شخصية حسن البنا، وإن كان هذا الرأى قد جاء على سبيل الاستطراد، لكننا نرى هذا الرأى بمثابة الدافع القوى الذى جعل صاحب المذكرات ينخرط فى حركة الإخوان المسلمين إعجاباً بشخصية قائدها ● نفهم الدافع القوى الذى جعله ينجذب للإخوان المسلمين تحت قيادة الشيخ حسن البنا ● أهم ما فى هذه المذكرات من وجهة نظر التاريخ المعاصر هو ما يتمثل فى إيرادها تفصيلات الجلسة التى عقدها مكتب الإرشاد عقب اغتيال المستشار الخازندار، وقد حضر صاحب المذكرات من أسيوط خصيصاً كى يحضر هذه الجلسة، ويبدو من حديثه أنه كان موكلاً بالفصل بين وجهتى نظر متناقضتين ● يعود ليؤكد (ولا نقول: ليعترف) على معنى الخصوصية فى هذا الاجتماع الذى شهده، والذى لم يجد هو نفسه له مثيلاً بين اجتماعات الإخوان ● الحوار الذى يرويه بين حسن البنا وعبد الرحمن السندى ● يعود مرة ثالثة ليؤكد على ما تفردت به هذه الجلسة من منطق المحاسبة للزعماء أياً كان مستواهم ● يطلعنا على بعض التفصيلات التى آلت إليها هذه القضية التى كانت بمثابة تحول بارز فى مسار حركة الإخوان المسلمين ● يلخص رأيه فى التطور الذى أصاب حركة الإخوان المسلمين مركزاً على الحقبة الزمنية التى حدث فيها التطور دون أن يستقصى السبب الحقيقى فى هذا التطور، ودون أن يشير إلى مظاهره المبكرة التى ربما لم يكن على علم كاف بها ● يحكى بتشوق حقيقى قصة آخر لقاء بينه وبين الإمام حسن البنا بما يدلنا على حرصه هو على هذا اللقاء، وعلى ما كان حسن البنا نفسه قادراً عليه من تقدير دقيق للموقف الجديد الذى وجدت الجماعة نفسها فيه بعد أن دفعتها ممارساتها إلى هذه الأزمة ● يتيح لنا فى مذكراته وقفات فكرية فى نقد فكر الإخوان وممارساتهم برؤية واحد من المنتمين للجماعة، وهو على سبيل المثال

يتحدث عن رأى حسن البنا فى الشورى وأنها غير ملزمة، وهو حريص، على أن يثبت أنه كان يخالفه فى هذه الرؤية ● يعبر عن تشبعه بفكرة الديمقراطية حتى وإن لم يصرح بها بلفظها ● يروى أيضاً أنه كان يختلف مع الشيخ حسن البنا متأثراً بما كان دخل فى تكوينه الفكرى من وجهة نظر سلفية، وهو يلجأ إلى وسيلة ذكية هى التعبير بالمنام ليلخص وجهة الخلاف بينه وبين المرشد العام ● نفهم بكل وضوح أن عبد العزيز كامل كان حريصاً على أن يدلنا على أنه ظل حريصاً على ولائه للسلفية حتى فى محاوراته المتجددة مع الشيخ حسن البنا، ومن اللافت للنظر أن يكون هذا هو رأى صاحب المذكرات الذى لايزال حريصاً عليه رغم كل التطورات السياسية التى مرت بها بلادنا منذ تلك الحقبة، بيد أننا نستطيع أن نلاحظ أن علاقات الدكتور عبد العزيز كامل العربية تكاد تتوافق مع عقيدته هو ● من المفيد لتاريخنا المعاصر أن نتأمل فى بعض ما يقدمه فى هذه المذكرات من أحاديث وجدانية عن بعض قليل من قادة الإخوان، وهو على سبيل المثال يلخص تقييمه لشخصية عبد الرحمن السندى متعجباً من أن يكون مسئولا عن قيادة التنظيم السرى بينما هو مريض بالقلب ● راه وقد أطال فى وصف المشكلة الصحية فى تكوين عبد الرحمن السندى، ثم مس المشكلة السياسية والتنظيمية مساً رقيقاً لا يتناسب مع تأثير هاتين المشكلتين السياسية والتنظيمية على حركة الإخوان المسلمين كلها ● استنكاره لطريقة البيعة التى كانت جماعة الإخوان تأخذ بها، وهو يروى أنه هو نفسه تعرض لهذه التجربة وأن الذى أخذ البيعة عليه الأستاذ صالح عشماوى، وأن ذلك كان فى ١٩٤٣، وهو يحار فيما يشخص به أصل هذه البيعة، لكنه يلمح إلى أنها ربما كانت متأثرة إلى حد ما بتأثير الماسونية، وهى نقطة لم يسبقه إليها أحد ● لا تقف انتقاداته للإخوان المسلمين عند هذا الحد، بل إنه فى هذه المذكرات يستنكر بشدة ووضوح شديد موقف الشيخ حسن البنا بعد مقتل النقراشى حين أصدر بيانه الشهير «ليسوا إخوانا وليسوا مسلمين» ● ينتبه بحس دقيق إلى خطورة ما كان فى هذا التصريح من الأستاذ المرشد، لكنه مع هذا كان فيما يبدو من حديثه عاجزاً عن أن يحول مجرى الأحداث ● تلقى مذكراته بعض الأضواء على الجوانب الفكرية فى تنظيم الإخوان المسلمين، وهو على سبيل المثال يشير بدقة وإفاضة إلى محاولة الإخوان الإفادة من فكر الأستاذ محمود شاكر، ومن العجيب أن نرى أن هذا الرجل الفذ وقد أدرك بثاقب نظره، وبعقليته النافذة مواطن الخطر فى تكوين الإخوان ونبه إلى هذه المواطن، لكن المشكلة التى نعرفها هى أن طبيعة مثل هذه التنظيمات لا تدرك مدى ما تحفل به نصائح المفكرين الكبار من قيمة ومن فهم لمجريات الأمور فى السياسة ● ينطلق إلى الحديث عن تجربته فى إشراك محمود شاكر فى تثقيف شباب الإخوان المسلمين، وما أصاب هذه التجربة من فشل ● يلفت النظر إلى اختلاف المقاربات التى قدمها محمود شاكر للقضايا التى كانت

تشغل بال الشباب المسلم فى ذلك الوقت ● موقف محمود شاكر من النظرة المتحيزة ضد عصر الجاهلية ● يصل إلى تشخيص الخلاف الذى كان لابد أن يحدث بين محمود شاكر (من ناحية) وشباب الإخوان (من ناحية أخرى)، ويبدو لنا أنه استعار شخصية محمود شاكر وقصته مع الإخوان ليعبر بها عن مشكلته هو شخصياً مع هؤلاء الذين كان ينبغى أن يسمعوا له ويطيعوه وهو الأمين العام للإخوان، لكنه على نحو ما نفهم من حديثه فشل فى هذه المسئولية ● لعل هذا الحديث الذى استعار فيه شخصية محمود شاكر وموقفه يدلنا دلالة قاطعة على موطن شكواه هو ضد تنظيم الإخوان وما آل إليه التنظيم فى ظل نجاحه السريع وتكاثر أعضائه وأعداده، وانطلاقهم فى سبيل الجماعة إلى حيث كانوا يتمنون لوطنهم الخير دون أن يدروا أن المسألة أعقد من هذا بكثير ● يروى أنه كان حريصا على أن يستفيد بما أتاحته له التجربة فى السودان حين تقابل مع التخطيط الاستعمارى وجها لوجه، وأدرك أن العناية بالعلم أجدى من ذلك الحماس الذى يصفه بصراحة بأنه «التسطيح» الذى مضت إليه تجربة الإخوان المسلمين رغم أنفها ● يكرر انتقاده لهذا النهج الفكرى ● يروى أن تجربة الاعتقال المبكر فى ١٩٥٤ كانت قد دعته إلى أن يفكر بعمق فى دفع الإخوان إلى الهجرة خارج مصر قبل أن تطالهم موجة اعتقال تالية على نحو ما حدث بالفعل، وهو فخور بأن يذكر أن الذين استجابوا لنصيحته هذه قد أدركوا نجاحاً ونجاة، على حين لم يقدر له هو نفسه مثل هذا النجاح ● فهم هذا الرجل الواضح لطبيعة الصراع بين رجال الثورة والإخوان ● على عكس ما هو شائع من أن الجماعة الإسلامية فى الهند كانت أكثر تطرفاً أو يسارية من الإخوان المسلمين، فإن عبد العزيز كامل يروى من الوقائع والتحليل ما يدلل به على أن هذه الجماعة نصحت الإخوان بتجنب الصدام مع حكومة الثورة(!!) ● من الطبيعى فى مثل هذه المذكرات أن يظهر تأثر صاحبها ببعض السلف الصالح، ومن الجدير بالذكر أن ابن حزم يأتى فى مقدمة مَنْ يثنى عليهم ، وهو يتحدث عن أسباب إعجابه به ● يظهر اعتزازاً عميقاً بأحمد حسين وبتاريخه ولقائه معه فى المعتقل ● من أطرف ما تتضمنه هذه المذكرات ما يلخص به صاحبها ما رواه له الزعيم أحمد حسين عما خرج به من تأمله للتاريخ المصرى ولسلوك المصريين الأذكياء فى معاملة الطغاة، وهو يقول على لسان أحمد حسين: إن المديح الذى يكيله بعض المصريين للدكتاتور ليس إلا نوعاً من أنواع العقاب ● يمضى فى سرد ما يروى أن أحمد حسين حدثه به ● فى مقابل إعجابه بحسن البنا، وتقديره لعبقرية ابن حزم، ونقله لآراء أحمد حسين، نراه حريصاً على أن يتأمل أغوار شخصية كان لها القدح المعلى فى تعذيب الإخوان المسلمين وغيرهم من المعارضين فى العهد الناصرى، وهى شخصية حمزة البسيونى ● يقدم تحليلا جسميا/ نفسيا يصعب على كثيرين أن يتصوروا أن معتقلا يعانى المشقة والذعر يمكن أن يفكر فيه على هذا النحو من هدوء البال، وحكمة

النظر ● على القارئ الذى لا يمـانع أن يعذب نفسـه بما عذبت نفسى أن يقـرأ التفصـيلات فى هذه المذكرات، وكل مـا أستطيع قوله هو أن أترحم على هؤلاء الذيـن عانوا هذا العذاب إذا كان مـجرد قراءة بعض الوصف لبعض ما عانوه يمثل عذاباً لازلت فزعاً منه ● عبد العزيز كامل حريص على أن يتـأمل فى حيـاة هذا الرجل الذى تولى قـيادة التـعذيب على نحـو فظيع ● يروى كثيـراً من ملامح شخصية حمزة البسيـونى، ومن ملامح التعذيب الذى تولى قيادته فى السجون ● يصل إلى رواية ما يعتـبره أو ما يعنون له على أنه الفـصل الأخير من حـياته، مشـيراً بهذا الفـصل إلى مصرع حـمزة البسيونى فى حادث من حوادث المرور الفظيعة ● على هذا النحو يروى الحادث قبل أن ينطلق منه إلى تأملاته ● مذكـرات عبد العزيز كـامل قدمت بعض صور المعـاناة التى مر بها صـاحب المذكرات فى المعتـقلات، وليس بوسعنـا أن نلخص ولا أن نقتطف بعض ما رواه الرجـل عن هذه الذكريات ● لا نستطيع أن نتجاوز وصفه لمشاعره الأسية وهو يروى قصة طابور أغنية أم كلثوم حين أجبر المرشد العام على أن يقف ليؤدى دور المايسترو بينما جموع الإخوان المعـتقلين تردد أغنية أم كلثوم التى تهنئ فيها عبد الناصر بنجـاته من حادث المنشية ● من الوقائع التى انفرد بهـا عبد العزيز كامل بالإشـارة إليها، تبرع الأمير محمد على توفيق ولى العهد بمكتبة للإخوان المسلمين.

الباب الثانى: العيش على الحافة.. مذكرات الدكتور شكرى محمد عياد

● التعريف بالمذكرات وصـاحبها ● بدأ حياته السـياسية بعضوية جـماعة «الخبز والحرية»، وجـماعة «أصدقاء الأدب الروسى»، وكـان من نجوم الأدب فى جريدة «المصرى»، فى العـصر الذى كانت هذه الجريدة بمثابة مـيدان لليساريين المصريين من أهل الثـقافة والإبداع ● كان تلميذا مخلصا للشيخ أمين الخولى مؤسس جماعة الأمناء، وقد امتدت تلمذته له من الجـامعة إلى الحياة الثقافية، وقد انضم إلى الأمناء، ثم اختير للإشـراف على الجماعة (١٩٦٦) بعد وفاة مـؤسسها ● فى أخريات حياته كان من الذين حاولوا كـسر الجمود فى الحـياة الثقافـية، والانتصار للقـيم النبيلة ● كون دارا للنشـر بعنوان «أصدقاء الكتاب» ● كوّن جماعة «أصداء النـداء» من أجل إصدار مجلة جديدة باسم «النداء» وكانت نيتـه ألا ترتبط هذه المجلة بأية جهة رسـمية، وقام بإصـدار ثلاثة أعداد تمهيـدية، لكن لم يصرح له بإصدار المجلة ● كانت له صفات شـخصية رفيعة: صفـاء الطبع، وكرم الخلق، والوفاء، والتواضع، والأمانة، والنزاهة، والاستقامة الفكرية، والانحياز للفقراء، وأصحاب الحاجات، وطالبى العلم ● كان

له وجود وحضور متصل فى حياتنا الثقافية والفكرية والأدبية ● أصدر ٦ مجموعات قصصية تتميز بقدرات فنية عالية وبمعالجة واعية لواقع مجتمعه وطموحاته، كما أصدر رواية واحدة «طائر الفردوس»، وله مجموعة من القصائد المتميز نظمها فى صدر شبابه ● نشرعددا من الدراسات الأدبية والنقدية المهمة، كما ترجم أعمالا أدبية قيمة فنية وفكرية ● كتابه يقدم طرازا خاصا من السيرة الذاتية التى تتمتع بسمات فنية عالية، كما تتمتع بطوابع نفسية ظاهرة ● يبدو لنا وكأن حيرته لا تقف عند ما يجب عليه أن يتناوله، وما يجب عليه أو ما يستحسن له أن يدعه ● يرى فى كتابه « سيرة ذاتية » أداء واجبا لحق من حقوق الإبداع عليه، وقد شارف النهاية وأصبح من الواجب عليه أن يؤدى حق الفكرة عليه، وهو الذى سجل من قبل أشياء كانت معلقة بين الوجود والعدم ● تبدو آثار النزعة الأكاديمية غالبة عليه ، وإن كانت هذه النزعة غير قادرة على أن تنحى النزعة الفنية فى كاتب موهوب ذى خبرة بأساليب الكتابة ● يستحضر ما وعته ذاكرته «الاكاديمية» من الخصائص الفنية للسير الذاتية ● يستلهم ما وعته ذاكرته «الأدبية» من عوامل الخلود وعوامل الإقناع فيما قرأ من سير ذاتية، وما درس من هذه السير ● يتحدث بإخلاص شديد عن بعض المحاولات التى أجهضها من قبل ● أجاد الحديث عما أراد الحديث عنه، كما أجاد إهمال ما أراد تجاهله ● قدر له أن يتزوج ابنة خالته فى مرحلة مبكرة من حياته دون أن يمر بمراحل العذاب الوجدانى، أو بمراحل الانتشاء العاطفى، أو بما يقابل العذاب والانتشاء على الناحية الأخرى من شاطئ العواطف والعلاقات بين الذكر والأنثى ● إذا جاز لنا أن نقول إن هناك طابعا واحدا يغلب على أى سيرة ذاتية فإن لوم النفس هو الطابع المسيطر على مذكرات شكرى عياد، وقد تغلب هذا الطابع على ما قد نظنه ويظنه كثيرون بمثابة الطابع المسيطر على هذه السيرة، وهو طابع الاعتراف ● كان حفيا إلى أقصى الحدود بالاعتراف على نحو اقترب فيه من التعسف مع ذاته، إلا أنه فى اعترافه كان حريصا على أن يقرن معظم جزئيات الاعتراف بما ينبغى عليه من لوم للنفس على هذا الموقف أو ذاك مما مر به فى حياته ● اعترافات هذه السيرة تطالعنا فى صيغ ذكية تدعو إلى التعاطف مع صاحبها بأكثر مما تدعو إلى النفور منه، أو الاشمئزاز من سلوكه أو رأيه أو موقفه ● يتعالى على الخطأ أياً ما كان الخطأ، وأياً ما كان شعوره بهذا الخطأ حين ارتكبه ● تصوير الخطأ على مثل هذا النحو الذكى يحتاج إلى براعة عالية، ومقدرة فنية، وتمكنا من الأسلوب والتعبير، وتمكناً من الأعصاب التى تسيطر على القلم وهو يسطر هذا وذاك . . فضلاً عن الشجاعة الكفيلة بتقبل تصوير الإنسان نفسه فى المواضع الذى يظنها لم تمر به فى يوم من الأيام، أو فلنقل فى المواضع التى يتصورها كانت بمنأى عنه من قبل ومن بعد ● يقدم لنا حديثاً ممتعاً عن مكانه ومكان أمثاله فى النظام الجامعى الذى تكون هو نفسه من خلاله، وعما كان هذا النظام يتيحه من ثقافة

وقدرة ووقت، وما كان يحفل به هذا النظام من قيم التجويد والتواؤم مع متطلبات المجتمع فى الوقت ذاته ● فى بداية السنة الثانية من سنوات دراساته ألحق بقسم اللغة الإنجليزية، لكنه سرعان ما تركه، على الرغم من أنه كان سيزامل فى هذا القسم مَنْ كان يعتبرها بمثابة النموذج الأمثل للجمال الأنثوى ● المذكرات تقدم لنا نموذجاً روائياً فذاً للحدث الواحد الذى يتكفل تماماً بالتأثير على مستقبل صاحبه ● يروعنا أن نرى صاحب هذه المذكرات وهو يدفع ثمن خطأ واحد عدة مرات ● مع أن هذا الخطأ قد يعد فى نظر كثير من القراء بمثابة خطيئة لا تغتفر لارتباطه بشعائر الدين، فإننا نرى صاحب المذكرات الواعى لمثل هذه الحقيقة لا ينفى عن نفسه الخطأ كلية، وكأنه بهذا الحرص على عدم تبرئة نفسه كلية يضحى من صورة نفسه من أجل الحبكة الروائية فيما يقصه علينا من قصة ذلك الموقف الذى جعل أستاذه أحمد الشايب حريصاً على تأديبه وعقابه مرة بعد أخرى بأقصى ما يمكن من عقاب ● أحمد الشايب حرمه الأولية والامتياز وأثر فى حياته تأثيراً سلبياً، ومع هذا فإننا نرى صاحب السيرة حريصاً على أن يروى بكل وضوح أنه ظل يحب أستاذه هذا ويقدره ● كان الشايب الذى حريصاً على الأمانة حتى وهو يعاقب هذا التلميذ الذى ارتكب ما يستحق العقاب ● يستغل براعته الفنية فى رسم صورة ذهنية عن أستاذه الشايب لا تكاد تفارق أذهاننا على الإطلاق ● حكم الشايب دفع طه حسين نفسه، بطريقة أوتوماتية، إلى أن يتخذ موقفاً معادياً له، لأنه كان يريد أن ينتصر لفكرة تميز طلاب أقسام الامتياز حتى لو كان هذا على حساب طالب ممتاز ومتميز حقاً ● نرى طه حسين وهو يمثل، دون أن يدرى، بطلاً من أبطال سيرة حياة ، ونرى هذه العلاقة تبدأ على نحو فيه غرام شديد، فإذا تحولت إلى واقع كان فيها ألم شديد، ثم تنضج الخبرة صاحب الذكريات فتجعله ينتصر فى حوار له مع طه حسين ● يقص قصة المواجهة الأولى بينه وبين طه حسين، ويدلنا على مدى ما يمكن للحب أن يلعبه حين يلجم لسان المرء أن يواجه مَنْ يحبه مكتفياً بالتأمل فى وجه محبوبه ● نصل مع إلى الموقف الآخر الذى يرى نفسه فيه وقد أظهر قوته أمام أستاذه الأثير ● الإعجاب الشديد الذى جعل صاحب المذكرات يتمنى أن يكون مثل طه حسين حتى لو فقد بصره ● يقدم فى هذه المذكرات أروع نص كتبه عن أستاذه الحبيب وشيخه أمين الخولى ● يتحدث فى مذكراته بحب شديد عن أستاذه إبراهيم مصطفى ● يتحدث عن الشواربى حديث المتيم بأدبه والتزامه ● يتحدث أيضاً باعتزاز عن أستاذ التاريخ الدكتور محمد مصطفى زيادة ● يتحدث عن أساتذة الفلسفة فى كلية الآداب حديثاً بديعاً، وهو يرى أن دراسة علم الجمال كانت أولى من دراسة المنطق مثلاً ● يتحدث عن أستاذه الدكتور أبو العلا عفيفى فى لهجة مفعمة بالانتقاد القاسى الذى لا يقف عند حدود العلاقة بينهما فى الجامعة، وإنما يمتد ليشمل كتاباً ألفه الأستاذ لتلاميذ المراحل الثانوية ● يتحدث عن فؤاد كرم حديثاً مقتضباً ● فى مقابل الانتقاد

الواضح لأبى العلا عفيفى وفؤاد كرم نرى يجهر بأن الدكتور إبراهيم بيومى مدكور كان بمثابة الأستاذ الذى أخذ بأيدى طلابه إلى مشكلات الفلسفة، وأنه كان قادراً على السيطرة على تلاميذه وامتلاك حواسهم وتقريب الفلسفة من فكر أى إنسان ● يتحدث حديثاً طريفاً عن أستاذه مدكور وما عرف عنه من تكرار لبعض محاضراته ● علاقته بالعمل فى الصحافة، والعمل على نشر كتاباته، وممارسة هواية القص ومهارة الترجمة، ومحاولة الإفادة من أجورها فى تمويل طموحاته، وهو يخلط بين هذا الحديث وبين حديثه عن الدراسة فى كلية الآداب ● يروى قصة علاقته بمؤلفات طاغور وتشيكوف ● يتحدث عن تكوينه الفكرى المبكر بذكاء شديد: قراءة جيدة، ومصادر كفيلة باستنهاض همة الشباب وطموحاته على المدى الطويل ● أعمال أحمد فتحى زغلول، وحسن جلال، وفخرى أبو السعود، ونقولا حداد، وسلامة موسى ● بعض مظاهر الطابع المرتجل الذى يفرض نفسه على ثقافة قارئ المجلات ● تأثره المبكر ببعض الآراء التى تتعلق بمناهج تعليم الادب، وكيف أنه كان يجد فى وجاهة تلك الآراء واقتناعه بها ما يجعله يرددها وكأنها آراؤه هو ● يصل إلى بلورة رأيه السلبى فى أساتذة اللغة العربية الذين كانوا مكلفين بتعليمه هذه اللغة فى مراحل التعليم المختلفة ● يقدم صورة غير نادرة ولا مستغربة لبعض مدرسى اللغة العربية فى ذلك الزمان ممن تربوا على القديم، ولم يكونوا قد تشبعوا بعد بأثر طه حسين والعقاد وغيرهما ● بعض الأجواء الاجتماعية التى كانت تميز الحياة فى زمن شبابه: سينما شبين الكوم المعروفة بسينما طناش ● لا نكاد نراه حريصاً على أن يفخر بتفوق أو ألمعية حققهما فى شبابه : بدلاً من أن يشير إلى ترتيبه المتقدم فى شهادة البكالوريا، ذكر أن مجموعه كان ٦٤,٥٪ فقط، ثم أردف على استحياء بذكر ترتيبه المتقدم على مستوى هذه الشهادة ● رغم هذا كله نراه يحدثنا حديث الفخر عن أول بحث علمى أعده فى حياته، وهو بحثه عن النسيب فى الشعر الجاهلى ● لا يفتأ يسخر من نفسه ومن قدراته التى لم تثبت نفسها، ولم تكتشف من قبل ● نراه يشكك فى قيمة المعلمين، وفى قيمة فكرة التعليم المدرسى المنظم ● على الرغم من كثرة انتقاداته لوالده إلا أنه يقف باحترام أمام سيرته التى فرضت عليه هذا الاحترام ● مع هذا التقديس للوالد فإنه يعود ليقدم صورة متوازنة لما يراه عيوباً ومزايا فى والده ● يبلور قصة زواج والده من والدته ملخصاً وجهة نظره هو، ووجهة نظر والديه معاً بطريقة بديعة وسريعة تنبئ عن كل المتناقضات فى النظر إلى الحقائق الاجتماعية ● المؤلف يعلق: لست أستطيع أن أبتلع القسوة التى عامل بها صاحب الذكريات والده الحبيب هذا فى موقف من المواقف التى كان الآباء يجدون أنفسهم فيها مضطرين إلى اتباع سياسات الفلاح المصرى الذى تعود على الظلم، والذى تعود على مجابهة هذا الظلم بنوع من أنواع التقية الاجتماعية التى يجدونها ضرورية لمثل هذا الموقف ● نراه يقف أصعب موقف يمكن لابن أن

يقفه من والده فى مذكراته ● يحدثنا عن موقفه تجاه والده بعد هذه الواقعة ● كان أميل إلى التجنى فى فهم وتقدير موقف أسـرته الصغيرة من العواطف الإنسانية النبيلة، وكـأنه لا يكاد يتصور أن الصمت نفسه يعبر عن الحب، وأن الإخـلاص نفسه لا يقتضى حديثاً، وأن العواطف المشبـوبة كثيراً ما تكون كامنة ● يتحدث عن غياب العواطف فى أسرته الصغيرة حديثاً لا يخلو من بعض التجنى على الذات وعلى الأسرة، لكنه كان يعتقد بصواب ما يروى، وبصواب ما يفعل ● حديثه عن علاقته بوالدته بعد وفاة والده يجمع بين الضـجر الشديد من سلطتهـا، والحرص الواضح على نقدها ● يبدأ حديثه عن علاقته بوالدته فى تلك الفترة من مدخل فرويدى ● سرعان ما يتحول عن هذا المدخل ليوجه انتقاداته العنيفة إلى تلك السيدة الحازمة التى أتاحت له تربية مستقيمة صارمة كان يستحقها بحكم ما ركب فيه من نزعات الأدباء والمفكرين المبكرة ● يعترف بمدى التسلط الذى كـان يمارسه على والدته دون مبرر ظاهر ولا حقيقى ● يصل إلى اتهامات واضحة لوالدته بأنهـا تريد أن تنتقص من رجولته، ومن قدرته على اتخاذ القرارات بما فيـها القرارات الشخصية التى تمس مـستقبله هو ● يتحدث عن والدته حديثاً تعلو فيه نبرة النقد الصريح، كما تعلو فيه رغبة التعبير عن قدرته على التشفى والتصدى: التشفى من مواقفـها الفكرية التى تصل فى تناقضـها إلى الجمع، على حـد تعبيره، بين الوثنيـة والنسك الشديد معاً، والتصدى لرغبتها فى سيطرتها عليه ● يتهم والدته بالحرص على إظهـار النصر والبطولة، وكأن هذا الحرص والنصر ليسا من حقها ● وفى مقابل هذا الدلال الـذى يمارسه الابن على الأب والأم، فإننا نراه ينهج منهجاً آخـر فى معاملة خاله عبد الفتاح شلبى الذى كـان زجالاً معروفاً ● نرى حديثه عن خاله الموهوب عبـد الفتاح شلبى يخلط العام بـالخاص على نحو ذكى ● يقدم بطريقة فنية قطعة حية من تاريخ مصر فى الثلاثينيات، وتأثير هذه الحقبة بعد ذلك فى التاريخ الوطنى المعاصر ● الحديث الممتع الذى يقدم من خـلاله جوهر نظرته إلى حقبـة مهمة من تاريخ الوطن المصرى من خـلال فقرة رائعة يصور فيـها سخريته من طريقة تدريس هذا الـتاريخ وتأليفه ● يظهر عجـبه الشديد من حكاية القصة التى تروى كـيف بدأ الرئيس عبد الناصر (دون أن يذكـر اسمه صراحـة) تأليف قصة ● تحدث حديثاً موجـزاً وموحياً عن أصداء الحرب العـالمية فى جيله ● يتحدث حديثاً مبـاشراً وحافلاً بالصدق والصراحة والإخلاص عن فترة التكوين الثورى التى شهدها وعاشها وشارك فيها ● لا تخلو المذكرات من تعليقات ذكية لصاحبها على بعض مظاهر التقدم الاجتماعى فى وطنه ● يتحدث عن حبه للحرية حباً شـديدا، ونرى هذا الحديث مبثـوثاً فى سطور كتابه كمـا نراه مشعاً من بين فـقرات هذا الكتاب الذى كتبـه صاحبه بحرص شـديد على استنقاذ حريته من والديه، ومـن جيله، ومن أساتذته، ومن الناس أجمعين، والواقع أن يبدو عاشقاً للحرية، مؤمناً بها، متيماً بالبحث عنها وإدراكها ● يحاول أن

يلقى بتبعة فقـدانه للحرية فى بعض مراحل حياته على والدته ● لا يتحدث عن المـرأة إلا بعد دخوله كلية الآداب، ونحن نرى الصـدق يشع من حديثه عـن المرأة فى هذه الكلية ● يعود إلى هذا الحديث المتيم بالجمال، والمعبر عن الإحساس الصادق تجاهه ● يصل إلى تسجيل غزل صريح معلن فى إحدى زميلاته فى كلية الآداب ● يذكر أنه كان سيزاملها فى قسم الإنجليزية ● حديثه عن ذكريات حبه الأول فى الطفوله يقص علينا قـصة صداقته العـميقة للقط الأليف الذى كان قـد تعود زيارته فى بيت «بين السرايات» الذى كان يقيم فيه فى أثناء دراسـته الجامعية ● المذكرات تتضمن قدراً أكـبر من المعتاد فى الحديث عن الجوانب المتعلقة بطيش الشباب، فيما يتعلق بالشذوذ الجنسى، وبرواية ما هو معروف عن هذه العادة، وعن وجودها فى مجتمعات القرية الصغيرة والمدينة التى عاش فيها، ونحن نراه يتخلص من مثل هذا الحـديث عندما يعـيش فى القاهرة، وإن كـانت ذكرياته لاتزال عالـقة فى ذهنه ● يقدم حديثه عن ذكرياته عن هذه التجارب المرذولة بحديث شـبه خطابى لكنه ساخر، يأسف فيه على هذه الخطوة التى أصبح المثليون يتمتعون بها فى العالم الحديث ● يقدم صورة منفرة لأحد زملائه فى كلية الآداب ويعدد بعضاً من مثالبه ● يعود بذاكرته إلى الماضى القريب، شـأنه شأن كل الذين يصدمون فى واقعة معينة.

الباب الثالث: الناس معادن.. مذكرات الدكتور إبراهيم عبده

● التعريف بالمذكرات وصاحبها ● يصور بذكاء شديد قصة كفاحه الشخصى من أجل استكمال تعليمه ● يتحدث عن كـفاحه من أجل دخول التـعليم الثانوى على الرغم من ميل أهله إلى إلحـاقه بمدرسة التلغراف ● استطاع الحصول عـلى موافقة الوزير على أن يكون تعليمه بالمجـان فى المدرسة الخديوية، وهو من أجل ما يعتقده وفاقاً مع روح العصر الذى كتب فيه مذكراته، لا يذكر اسم هذا الوزير، ولا وصفاً له، إنما هو يكتفى بأن يشير إلى حصوله على المجانية فحسب ● يقدم وصفاً تلقائياً ممتعاً لرحلته إلى الإسكندرية من أجل لقاء الوزير والحصول منه على المجانية، وهو المسعى الذى تكلل بالنجاح ● نجح فى أن يحصل على المجانيـة بسهولة وكأنه يريد أن يقول إن هذا لم يكن أمراً صـعباً يصور على أنه عقبة تحول بـين الناس وبين التعليم، لكنه مع هذا يصور الأمر تصويراً لطيفاً يبـعث الأمل ويحييه فى نفس كل متطلع إلى العلم ● يصور نجاحه فى جهاده من أجل استكمال تعليمه الجامعى ● لا يقف سعيه فى سبيل تمويل نفقات تعليمه عند حصوله على المجانية فى كلية الآداب، لكن هذا السعى يمتد

حتى يتـاح له أن يحصل على إعـانة كبيـرة بمقاييس ذلك الزمـان تيسر له أن ينتظم فى هـذا التعليم المجانى، وأن يتفوق فيه وفيما يصحبه من نشاط، وهو يدلنا على أنه كان فى وسع مجالس المديريات أن تقدم مثل هذه الإعانات القيمة ● يتحدث عن الجو الذى أتاح له استكمال دراسته العليا والعمل فى الصحافة، وذلك بمعاونة أستاذه طه حسـين، وعميد كلية الطب على باشا إبراهيم، ومع أنه لا يقدم الامتنان الواجب لـلرجلين، فإنه يقدم أقـصى ما كـان مسمـوحاً به فى العهـد الذى لم يكن يرحب بالإشادة بأمثـال هؤلاء الباشوات!! ● يروى بذكـاء طريف بعض مـعـاناته الإدارية فى الوظيـفـة، ومحاولاته الاستفزازية للخلاص من الالتزامات الوظيفية الدقيقة ● يصل إلى خاتمة سعيدة لمشكلته مع الالتزام الوظيفى ● على باشا إبراهيم جعل من الوظيفة الحكومية شيئا أقرب ما يكون إلى منحة التفرغ التى تعين صاحبهـا على استكمال دراسته العليا (وأداء وظيفته الصحـفية) بصورة أو أخرى ● تأرجح موقـفه وتفكيره فى دوافع سلوك الرجل العظيم مـن وجهات نظر متـعددة ● يتفتح أمـامه باب جديد للرزق أكثر دخلاً، وأقرب إلى نفسه ● مرحلة العمل فى الجامعة التى تهيأت لإبراهيم عبده بسهولة ● فضل أستاذه الدكتور محمود عزمى فى ضمه لأسـرة الجامعة بناء على توصية الأستاذ أحمد الصاوى محمد بعدما نال الماجستير فى تاريخ الصحافة ● الثناء على محمود عزمى وشخصيته وأستاذيته وجهاده من أجل وطنه متعجباً من أنه لم ينل حظه من التقدير الرسمى والصحفى ● صورة بانورامية لشخصية محمود عزمى وتوجهاته السياسية والفكرية والدينية، وهو لا يصوره ملاكاً وإنما يصوره بشراً له عيوب لكن له العذر فيها ● المكانة الرفيعة التى أحـرزها فى الجامعة ● يتحدث عن معـاناته فى أداء وظيفة الأستاذ بسبب حرصه على الاستـمرار فى العمل فى الصحافة ● يقدم وصفاً شائقاً (ومبكراً) لنشاط أستاذ الجـامعة الذى يجمع بين عـمله فيها وبين نشـاط مهنى آخر، وكيف يجلب مـثل هذا النشاط الانتقاد لصاحبه ● تنتهى القصة التى يمكن وصفها بأنـها ممكنة الحدوث، لكنه يردف هذه القصة بقصة فرعية أخـرى تبدو وكأنها فرضت على القـصة الأصلية لغرض فى نفس يعقوب، ذلـك أن مضمون محتوى هذه القصة المقحمة يتنافى مع ما نعرفـه من أن كثيرين انتقدوا الخديو إسماعيل بأكثر من هذا الذى فعله إبراهيم عبده دون أن يصيبهم ضرر ● يروى أن خروجه الأول من الجامعة كان ضمن سبعة وعشرين أسـتاذاً ومدرساً وأن هذا الخروج لم يدم كثـيراً وإنما أعيد هؤلاء (باستثناء واحـد فقط) بعد شهور قليلة ● يظهر اعتزازه بالمجلة النسائية التى أشرف عليها ● يرى هذه المجلة التى لم يذكر اسـمها بمثابة أنجح المجلات النسائية، كما يرى علاقته بها علاقة عضوية ● يبدو حبه لدوره فى معهد الصحافة قريبـاً إلى قلبه، وهو حب يرقى إلى الوله الـذى لا نهاية له ● يتحدث بفخر عن تلامـيذه فى معهد الصحافة ● يتحدث عن مـحاولات أخرى استهدفـت إخراجه من الجامعة، سـواء أكان هذا الإخراج

للتكريم أم للعقاب، لكنه يقدم النص الذى يروى به قصة هذه المحاولات بطريقة ملتبسة تجعل الحدث أميل إلى الانضواء تحت راية العقاب ● نفهم دون عناء أن الوزير الذى يتحدث عنه إبراهيم عبده هو فؤاد سراج الدين باشا الذى كان وزيراً للشئون الاجتماعية فى ١٩٤٣، وأصبح وزيراً للداخلية فى ١٩٥٠ ● يتحدث عن تجربته مديراً للمطبوعات والنشر فى عهد على ماهر دون أن يشير إشارة واضحة إلى السبب فى هذا الاختيار ● يروى موقفه من السماح بعرض بعض الأفلام المعطلة، وما جره عليه هذا الموقف ● رأيه فى تجربته فى العمل المبكر بعيداً عن الجامعة ● رأيه فى تكوينه الروحى الذى أجاد التعبير عنه وهو يتحدث عن علاقته بوالديه، ونحن نرى إبراهيم عبده يقدم صورة والده بوله شديد على الرغم من أنه يذكر من البداية أنه لم يره رأى العين، لكنه مع هذا ظل يراه فى سيرته نموذجاً حقيقياً بأن يقتدى به فى كل خطوات حياته ● يفتتح مذكراته بالحديث عن والده بجملة استهلالية تمثل الغاية فى الاستهلال القوى ● يصل فى تقديره لوالده إلى حدود قصوى من التقدير والإجلال والامتنان، وهو يعبر عن هذا الإجلال والتقدير لسيرته فى مواضع متعددة من مذكراته، لكنه مع هذا وبذكاء الناقد المؤرخ حريص على تأكيد أهم ما فى تاريخ والده وهو الذكرى الطيبة التى امتلكها هذا الرجل ● مع أن مذكراته حافلة بالحديث عن المواضع التى نشب الخلاف فيها بينه وبين والدته فإن هذا الحديث لا يحجب عنا إعزاز هذا الرجل لهذه السيدة وتعلقه بها، وهو يحدثنا عنها حين توفيت حديثاً مؤثراً ويصف وفاتها بأنها كانت أعمق المحن وأدقها ● يتحدث عن أزمته النفسية بسبب غياب والدته فيشير إلى أنه عانى الوحدة منذ توفيت ● حرصه على التعبير عن إيمانه بالله وقدرته على توفيقه وعونه ● تصوير بيئات التعليم التى عاشها، ومن الطريف أن مقصده من هذا التصوير ربما كان شيئاً آخر غير الذى نجده فيه بعد أربعين عاما من كتابته له، فهو يسجل معنى جميلا أحس بجماله وبأنه يستحق التسجيل، ونحن الذين نعيش فى ٢٠٠٧ وما حولها نرى فيما يرويه ويصوره شيئا نفتقده بشدة ونأسى عليه، ذلك أنه يصور أبناء مصر فى عصر الملكية والجاهلية والإقطاع وهم ينصهرون فى تعليم واحد صرنا نفتقده الآن مع أننا نعيش فيما نسميه عصر الديمقراطية والجمهورية والمساواة ● يصور ما تركته حياة القسم الداخلى المنظمة فى نفسه ونفوس الزملاء وشخصياتهم، ويقدم هذا التصوير تقديما يشعرنا بالألفة ويبعث فينا الحنين والأمل فى عودة مثل هذه الأجواء ● يصور بدقة شديدة ما كان مجتمع المدارس الثانوية يحفل به من ديناميكية جميلة وفاعلة، وما كان يمور به من نشاط فكرى وتفرد ثقافى ● يقص علينا ما يصور به صراعاً مبكرا بين الديمقراطية والالتزام، أو بين رغبات الشباب وروح النظام: وكيف كان القائمون على أمور التعليم فى ذلك الوقت من الذكاء بحيث أمكنهم التوفيق بين هذا وذاك ● يرسم صورة جميلة ودقيقة وموحية لاهتمام طلاب المرحلة

الثانوية بالسياسة ومشاركتهم فيها، لكنه يتعمد أن يجعل تصويره هذا تصويراً سطحياً يكفل له ألا يغضب أصحاب السلطان فى العهد الجديد، وكأنه يلحف فى تسجيل ما يصور به حرصه على أن يتحسر من بعيد عما لم يعد متاحاً فى الستينيات من روح الثلاثينيات ● حديثه عن انخراط طلاب المدارس الثانوية فى ممارسة السياسة على نحو متقدم ● مع كل هذا الحب الذى يختزنه للمدرسة الخديوية الثانوية، ويعبر عنه فى وضوح وقوة وتأكيد حتى نكاد نحس أنه لم يعد فى قلبه موضع لحب آخر، فإننا نفاجأ به مولعاً إلى أبعد حدود الولع بالجامعة، ومتيماً بجوها ومهتزاً إلى حد النشوة أو منتشياً إلى حد الاهتزاز بالفترة التى قضاها فيها ● يضرب المثل على متانة العلاقة بين زملاء الدراسة فى ذلك الزمان بصديقيه نور الدين طراف وزعلوك اللذين أصبحا وزيرين فى فترات متتالية ● يذكر هذين الرجلين بالخير فى مواضع كثيرة من مذكراته، وهو يضرب بهما المثل فى الرجولية ● على الرغم من جو الستينيات والسنوات التى سبقتها منذ قيام الثورة وسيطرة الهدوء على مجتمع الجامعة، فإنه يصور موقف الجامعة من قضايا السياسة تصويراً بديعاً، وهو بذكاء شديد يلجأ إلى مرحلة ثورة الطلبة فى ١٩٣٥ لكى يمجدها ويمجد من خلالها الجامعة ودورها فى تحقيق الاستقلال الوطنى والحفاظ على الديمقراطية ● كان من حسن حظه فى هذه الجزئية ما نعرفه من أن الرئيس عبد الناصر نفسه كان قد مثل طلاب المدارس الثانوية فى اللجنة العليا للطلبة التى تشكلت فى هذه المرحلة ● الفارق بين هذا الجو الذى صوره إبراهيم عبده دون أن يشير إلى الرئيس عبد الناصر من قريب ولا بعيد، وبين الجو الذى يكتب فيه هذه المذكرات لاجئا إلى ما يسعفه به البيان من تشبيهات تصور الأمر بعيداً عما هو محظور، وإن كان المضمون مفهوما بسهولة ● لا يمكن أن نتجاوز الحديث عن تكوينه العلمى والجامعى من دون أن نشير إلى أثر أساتذته فى شخصيته، وهو يتحدث عن كثيرين من أساتذته بحب شديد وبالطبع فإن طه حسين يأتى فى مقدمة هؤلاء ● يتحدث بامتنان شديد عن المدة التى قضاها فى العمل تحت رئاسة طه حسين فى جريدة «كوكب الشرق» فيجيد تصوير علاقة رئيس التحرير العلم بتلاميذه من الصحفيين والكتاب ● يتحدث بسعادة شديدة وبفخر عالٍ عن تلمذته للأستاذ عباس محمود العقاد فى ندوته الأسبوعية، ونحن نراه يصور الأمر بعيداً عما اشتهر فى التسعينيات والثمانينيات من الازدواجية أو التناقض ما بين طه حسين والعقاد، وهى الازدواجية التى تجعل الشاب تابعاً لهذا أو لذاك لا مرتشفاً من الرحيقين على نحو ما يصوره إبراهيم عبده فى وداعة وذكاء ● يصل إلى صياغة عبارة جميلة تصف قيمة مجلس العقاد أو صالونه بطريقة كمية ● يتحدث عن العميد الدكتور زكى محمد حسن حديثاً أكثر من رائع، وهو يصوره نابغة مقدراً فى العالمين، محسوداً من التافهين، مكروهاً من أساتذة المدرسة القديمة بلا استثناء ● يتحدث عن صراحته وجديته

وشهامته وعلمه، وهو يراه أعظم عمداء كليـة الآداب شأناً، ومن الجدير بالذكر أن هذه الفقرة كتبت بينما كان زكى حسن فى رحاب الله، ومن الجدير بالذكر أن زكى حسن كان واحداً من خريجى أول دفعة من كلية آداب القاهرة، وأنه كان أول من وصل من خريجيها إلى عمادتها، وقد صار عميدا لها عام ١٩٥٠، أى بعد تخرجه بواحد وعشرين عاما فـقط، أما عمداء الآداب الذين يعتبر إبراهيم عبده أن زكى حسن كـان أفضلهم، فقد كـانوا سلسلة من العظماء ضـمت طه حسين، ومنصور فـهمى، ومحمد شـفيق غربال، وأحمد أمين، وعبد الوهاب عـزام، ومصطفى عامر!! ● حديثه عن الدكتور محمد شفيق غربال أستاذ التاريخ، وكيف كان يراه هادياً وملهماً وباعثاً على القرب منه والتلمذة على يديه ● حديثه عن الدكتور مـحمد عوض محمد أستـاذ الجغرافيا الشهير الذى عرف بـشجاعته وبأدبه العالى وبحبه للأدب والجامعة ● محمد عوض كان الأستـاذ الوحيد الذى تضامن مع طه حسين حين فصل من الجامعة ● يتحدث باعتزاز شديد عن كثيرين ممن قدرت الحياة له أن يزاملهم أو أن يصادفهم، وفى مقدمة هؤلاء أصدقاء طفولته، ومنهم صلاح الشاهد صـديق عمره، وشقيقه محمود، وهو يفى كل هؤلاء ما يسـتحقون من مـجاملة وتكريم ● يتحـدث بحب شديد عـن زملائه فى تحريـر جريدة «كوكب الشرق»، نلاحظ أن مـعظم هؤلاء قد استمروا فى العـمل بالصحافة على حين انتـهى عهد زميلتهم بها منذ مرحلة مبكرة ● يتحدث عن الأديب صلاح ذهـنى بإعجاب شديد ● محاولته الأدبية الأولى فى كتابة القصـة، وكيف ساعدته الروح الجامعيـة على أن ينشر عمله على الملأ، وهو بحكم عمله فى الصحافة والطباعـة والنشر حفى بأن يورد كثيراً من التفصيلات التمـويلية و الاستثمارية فى هذا المشروع، ومن الطريف والمتوقع أن نرى هؤلاء الشبان وهم يديرون آلات الطبـاعة بأنفسهم توفيراً للنفقات ● يحكى قصة طريفة عن اجتماع حضره فى بيت الأمـيرة شويكار فى حضور زوجها الأخير الأمير إلهامى حسين، وكان الاجتماع جـزءا من مؤامرة(!!) يقصد بها الانتقام من الملك فؤاد الجالس على عـرش مصر فـى ذلك الوقت، ومن الطريف أن نرى فى هذا الاجتـماع الأديب صـلاح ذهنى وزميليه حسين مؤنس وتوفيق الطويل اللذين امتد بهما العمر وصارا من أعضاء مجمع اللغة العربية، كما نالا جائزة الدولة التقديرية ● المذكرات تحفل بتصوير كثير مـن العادات والأجواء الاجتماعية التى كانت سائدة فى البيئات التى عاشها ● يصور عناية والدته بصحته تصويـراً دقيقاً نقتطف منه بعض ما يصور التفكيـر الشعبى فى أمر الصحة والطب، وهو تفكيـر يحفل بما هو منطقى وبما هو لا منطقى، كما يحفل بما هو مقنن، وبما هو مجرب، وبما هو فولكلورى ● وصف مهنة اندثرت وهى مهنة لحس الأطفال ● يصور ولعه بالسينمـا وشغفه بها وحرصه على مشاهدة أفـلامها بانتظام شديد، على الرغم من معارضة والدته وعجبـها من هذا السلوك غير المبرر فى نظرها ● الفارق بين تصوير إبراهيم عبده

لولعه بالسينما وبين ما يرويه الدكتور شكرى عياد يعكس الفارق بين حياة شبان القاهرة وشبان الأقاليم ● تجربته المبكرة فى العمل خارج مصر، حيث كان حتى كتابة هذه المذكرات قد عمل فى السعودية، كما عمل مستشاراً لحكومة الكويت من أجل إصدار مجلة «العربى»، وهو دور غير مشهور لم يكتب عنه إلا صاحبه، وهو يتحدث عن تعاقده لأجل هذا العمل مع الكويت حديثا شيقا حافلا بالتقدير للمسئولين فى هذه الحكومة الفتية، وهو يصف كلاً منهم بما يستحقه فى نظره، كما يصف الجو العام وصفاً ينطق بالحب والتقدير ● رأى أن تكون فاتحة أعماله هى التعريف بالكويت، وأن يكشف عن هذا الإنجاز الجديد الذى يجهله العرب، وتجهله مصر خاصة، واقترح لهذا طبع كتاب ضخم عن الكويت سماه (سجل الكويت اليوم) ● تولى المشاركة فى إصدار قانون المطبوعات الخاص بالصحف والكتب، والمجلات، وهو القانون الذى وضعه لحكومة الكويت الدكتور محمد كامل مرسى ● يروى أنه اقترح على المجلس الأعلى إنشاء مجلة للأدب والفنون والعلوم تكون رسالة النور والعلم من الكويت للناطقين بالضاد فى كل مكان، ووافق المجلس على الاقتراح فى أبريل ١٩٥٦، وبدأ الإعداد من أجلها سنة كاملة، حتى إذا بدت ملامح المجلة واضحة عزم على العودة إلى الوطن الكبير ● هذه المذكرات تقدم حديثا مختلفا عن المألوف فى مواضع قليلة، حيث قدم قصة مختلفة عما هو شائع من سبب فصل طه حسين من الجامعة ونقله للمعارف ● يمس الصراع العربى مع إسرائيل مسا سريعا، لكنه يبدو فيه حريصا على أن ينبه قومه إلى حقيقة إسرائيل وقوتها فى وقت لم يكن مثل حديثه فيه شائعاً، وهو يلخص موقف الأنظمة العربية من حرب ١٩٤٨ بطريقة تكاد تقترب من العدمية، وإن كانت تحفل بكثير من البلاغة ● بعد هذا كله يهرب إلى حيث الأمان فى حاضره الذى كان يتوجس منه، لكنه كان حريصاً على أن يصفه بالكمال والجلال.

الباب الرابع: مواقف فى حياتى.. مذكرات سعيد جودة السحار

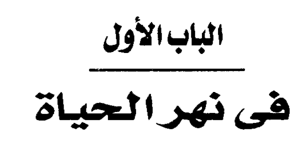
● التعريف بالمذكرات وصاحبها ● ينظر إلى شقيقه الأصغر منه على أنه أصغر منه(!!)، وهو لايزال يتذكر فى كل جزئية وفى كل واقعة أنه كان أكبر منه، بل وهو يتذكر بحرص أيضاً أنه كان يساعده فى كتابة بعض موضوعات الإنشاء، وفى مجابهة الحياة، لهذا كله فإنه لا يقف أمام ذكرى شقيقه (الحبيب إلى قلبه) وقفة المنبهر به، ولا وقفة المتيم بحبه، وإنما هى وقفة الأخ الأكبر المعجب بشقيقه والمقدر له على أية حال، وربما أن حديث الشقيق (سعيد) عن الشقيق (عبد الحميد) فى هذه المذكرات يمثل نموذجاً دقيقاً للمشاعر الإنسانية فى مثل هذه المواقف ● يروى تصرفات الطفل الذى لا يمكن أن

يحاسب على خطأ، وإن كان التصرف يدل على طموح مبكر، يروى قصة إصابة الشقيق الأصغر نتيجة لجفائه هو شخصيا أو لاستعلائه عليه أو لافتقاده الحنو اللازم ● مع أن موهبة عبد الحميد جودة السحار كانت قد بدأت فى الظهور فإن سعيد السحار لا يتحدث عنها إلا متأخراً : يتحدث على استحياء عما يسميه اكتشافه المتأخر نسبياً لموهبة شقيقه القصصية ● يبدأ فى الحديث عن مؤلفات شقيقه بصفة مجملة، وهو حديث مختصر مفيد لتاريخنا الادبى على نحو سريع ● النزعة التجارية لا تفارقه وهو يروى الاستعراض السريع الذى لخص به بعض مسيرة شقيقه مع النجاح، فإذا به يحرص على أن يردف مباشرة بفقرة تتضمن تصوير «الجانب المادى» فى عملية الإبداع على نحو ما يتصورها عملاً ميكانيكياً ● يروى ذكرياته عن أحد الكتب التى ألفها عبد الحميد جودة السحار والتى يعتقد صاحب الذكريات أنه كان له فضل فى ظهورها على نحو جيد ● يحدثنا حديث تاجر ماهر عما يعتقد أنه بعض أسرار قاص موهوب أو قدراته، وهو حديث دقيق فيما يسجله من ماديات لكنه فى الوقت نفسه أعجز من أن يلم بما وراء الماديات ● نرى اقتراباً أكثر من إنصاف الشقيق الأصغر فيما يسجله صاحب الذكريات من رؤية بانورامية لعلاقته بشقيقه بعد أن مضى بهما العمر إلى مشارف النهاية ● سرعان ما نجد صاحب المذكرات الحريص على الصدق الواقعى، والصدق النفسى، والصدق الفنى يعود إلى طبيعته المؤمنة بتفوقه على شقيقه ● كل هذه المشاعر المضطربة تتلاشى أمام الحديث الأخير الذى يحفل بما يتوقع من مثل هذا الشقيق، وهو بالطبع حديث عن وفاة شقيقه، وهو يروى ذكرياته عن مرضه الأخير ● يسرد قائمة مؤلفات شقيقه التى نشرت بعد وفاته، وكان له ولابن شقيقه الفضل فى إعدادها للنشر، نشكر لهذين الرجلين هذا الجهد الذى أتاح لنا أربعة عشر كتاباً من مؤلفات الأديب العظيم كانت قابلة للضياع بسهولة لو لم يقيض لها جهد الأخ والابن ● تطلعنا المذكرات على حقيقة مهمة تتعلق بنظامنا الجامعى فى بداياته، ومن الطريف أننا لم نجد هذه المعلومات إلا فيما يرويه سعيد السحار، وإن كان ما يرويه مصاباً ببعض القصور وعدم الدقة، وتكمن الطرافة فى هذه المعلومات فى أن بعض أقسام كلية الآداب كانت لا تضم إلا طالباً واحداً فقط ● قسم اللغة الإنجليزية الذى تخرج فيه سعيد السحار لم يخرج فى أولى دفعات كلية الآداب وهى دفعة ١٩٢٩ إلا واحداً فقط هو نجيب بلدى، ولم يخرج فى دفعة ١٩٣٠ إلا واحداً فقط هو معين روفائيل ● قسم اللغة الإنجليزية لم يخرج فى الدفعة الثالثة، أى دفعة ١٩٣١ إلا أربعة هم: سعيد جودة السحار نفسه، وفريد عبد الرحمن، ومحمد حسن بالى، ومحمد عبد المنعم حافظ ● هو نفسه لم يعن بمسئولياته كطالب فى هذا القسم، ولم يعرف هذه المسئوليات إلا فى نهاية السنة الأولى، لكنه على كل حال لم يبق بمفرده فى هذا القسم الذى كان وحيداً فيه طيلة سنتين، إذ ضم إليه المحولون من

مدرسة المعلمين العليا ● علاقاته الوطيدة والمنفتحة فى تعامله مع أساتذته من الإنجليز الذين كانوا يتولون التدريس فى قسم اللغة الإنجليزية بكلية آداب القاهرة، وهو يتحدث عن أستاذ شاب أدار معه حواراً حول الأغنية المصرية وتقبل تعليلات السحار لبعض ما انتقده فيها مما لا يوافق الذوق الغربى ● يروى أن لويس عوض كان واحداً من المحولين من هذه المدرسة إلى السنة الثالثة فى كلية الآداب جامعة القاهرة، بينما نحن نعلم علم اليقين من معلوماتنا المستمدة من وثائق الجامعة أنه لم يتخرج إلا فى دفعة ١٩٣٧ ● قسم اللغة الإنجليزية لم يخرج فى الدفعة الثالثة، أى دفعة ١٩٣١ إلا أربعة ممن وردت أسماؤهم فى نص السحار ● فى هذه المذكرات فقرة مهمة لتاريخنا التربوى والتعليمى لأنها تحدثنا عن السنة (١٩٢٦) التى شهدت تحول التعليم الثانوى من نظام السنوات الأربع إلى نظام السنوات الخمس، وهى الخطوة التى خطتها وزارة المعارف فى عهد على ماهر باشا ● نرى كيف كان ممكناً لصاحبنا أن يكسب سنتين على الأقل من عمره لو أنه تنازل عن الدراسة فى مدرسة حكومية، وكيف كان من الممكن أن يفقد هاتين السنتين أو أكثر لو أنه صمم على البقاء فى المدرسة المتميزة التى كان يدرس فيها ● يروى بصدق شديد شعوره تجاه هذا الموقف الذى كان عليه أن يختار فيه، وكيف جاهد من أجل هدف الإسراع فى نيل الشهادة، وكيف نجح فى تحقيق هذا الهدف على نحو ساعد فيه اجتهاده ورأيه وخوفه من فقدان سنوات عمره بلا طائل مباشر من وجهة نظره ● العوامل الذكية التى كان الآباء يحرصون عليها حين يخططون لمستقبل أولادهم فى التعليم، فهذا هو والده لا يريد أن يضحى أبداً بفرصة وجوده فى مدرسة متميزة مهما كانت الميزة الظاهرة بمنطق الشهادة!! ● هكذا قدر لصاحبنا أن يجد سببا يقنع به والده، لكن الرجل لم يقتنع إلا بعد أن وسط الابن عنده جماعة من أصدقائه حتى اقتنع، ثم شاء القدر أن يعطى صاحب المذكرات فرصة للمذاكرة الجادة حين سقط مصاباً فى أثناء اللعب فأتيح له، من أجل العلاج، أتيح له وقت كان كافياً للاستذكار المركز المؤهل للنجاح ● نرى ملامح الاجتهاد الحقيقى تطل من سيرة هذا الرجل دون أن يدرى، وانظر على سبيل المثال إلى جهده الدءوب فى تعلم اللغة الإنجليزية الراقية بعصامية شديدة، ومحاولاته الدائبة من أجل التعلم مهما كانت هذه المحاولات مفعمة بالخطأ الذى يتعلم منه كل مجد فى التعليم ● هذا الاجتهاد كان يعبر عن نفسه فى صورة من صور الجدية التى لم يتنبه صاحب المذكرات إلى التعبير عنها فى نصوصه، مع هذا فقد أفلتت فى رواياته واقعة تدل عليها من بعيد حين يتحدث عما جبل عليه من كتمان المشاعر حتى عن أهله الأقربين ● تتضمن المذكرات كثيراً من تفصيلات الحياة الاجتماعية واليومية فى الفترة التى عاش فيها صاحب المذكرات، ونحن نعترف له بما تميز به من ذاكرة حافظة لكثير من مظاهر هذه الحياة ● يقدم كثيراً من هذه المظاهر والذكريات بنظرة استعلاء على الواقع

القـديم، لكن الأمر لا يـخلو من بعض الحنين إلى هذا الماضى، كـمـا أنه لا يخلو من بعض الألم لافتقاد بعض ما كان جميلاً وممتعاً ● يطلعنا على مدى التقدم الذى لا نعلم حدوده فـيما كان متاحاً من وسائل الحياة والإمـتاع فى هذه الفترة ● نقرأ له وصفاً بسيطاً ودقيقـاً للألعاب التى كانت تقدمها الملاهى التى أوجدتهـا شركة مصر الجـديدة ، فنعجب من هذا الثراء الممتع الذى احـتوته هذه المدينة التى اندثرت الآن، ومع أن الحديث عن مثل هذه الألعاب يبدو مسـتغرباً فى سياق جاد، إلا أنه يرينا مدى ما كان متاحاً من وسائل التثقيف والترفيه فى فترة مبكرة ● يستعيد لقطات كثيرة من ذاكرته لما كان يدخل السعادة إلى قلبـه ويجلب التفكير إلى ذهنه ● ما يرويه عن هذا المنظر المؤثر الذى شـهده لبعض الحواة ● يحفل الكتاب بكثير من الحديث عن وسائل العلاج التى كان الأهالى يلجأون إليها فى العصر الـذى نشأ فيه، وسيـروعنا أن الجهل كان مسـيطرا، وأن اللجوء إلى الخرافـات والإهمال كان متفشيا ● حديثه عن سبب وفاة شقيقته الصغرى بعد إصابتها بالدفتيريا ● تشخصيه «البدائى» لسبب ما تتمتع به أجـسام السيدات المصريات من صحـة فى جيله إذا ما قورنّ بسيدات الأجـيال التالية ● يقدم كثيراً من التفسيرات غير الناضجة لما يراه من ظواهر اجتماعية، ومن العجيب أنه يقدم هذه التفسيرات بروح واثقة من صوابها ● تتضمن المذكرات كثيراً من مـلامح التكوين الثقافى لصاحبها ● حديثه عن السينما والمسرح وتأثيرهمـا المبكر فى عقليته وذاكرته ● بعض المظاهر التى تدل على شغـفه وافتتانه بالسينما إلى الحد الذى جعله يداوم التـردد عليها بمعدلات مكثفة ● تأثير السينما فى تصرفاته ● من الإنصاف أن نشير إلى شجاعـة المؤلف وقوة ذاكرته حين يروى مثل هذه المواقف الطريفة ● نمو هواية الزجل عند صاحبهـا ومحاولاته العديدة لكتابة الزجل، والمناخ الذى ساعـده على الاستمرار فى هذه الهواية ● نشر بعض أشـعاره المبكرة فى ديوان أسمـاه «شدو البلابل» لكن نجـاحه فى النشر ومـجال الأعمال غطى بالطبع عـلى مثل هذه الهواية ● ذكرياته عن مـجلة أطفال رائدة متميـزة وهى «مجلة الأولاد»، وكيف جعلـته هذه المجلة يهوى الزجل ويتعلق بالأمل فى كـتابته والتفـوق فيه ● انشغاله بكتابة الزجل وهو فى المرحلة الثـانوية، والمناخ الذى ساعده على هذا الاسـتمرار ● أحد أقاربه عثر على زجل له، وبعث به إلى الصحافة فنشـر فى موضع متميز، مما كان دافعاً له للثـقة بنفسه وقدرته الزجلية ● ما يرويه سعيد السحار عن بدء ممارسـته لهوايته فى كتابة القصص ● لا نرى سعيد السحار مغرماً بالحديث عن أساتذته فى كلية الآداب ولا مفتوناً بهم، ولا مـستبقياً لآثار عظمتهم فى نفسه أو ذاكرته، ولعل دراسـتـه فى قسم اللغة الإنجليزية وارتبـاطه بالأساتذة الإنجليز دون المصريين تمثل سـبباً بارزاً فى هذا ● لا يذكر من تلمذته لطه حسين إلا رهافة سمعه وإشادته به حين عرف معنى كلمة لم يعرف زملاؤه الآخرون معناها ● السبب فى أن جيله كان يحب محاضرات للدكتور زكى مبارك بأكثر

من حبهم لمحاضرات الدكتور طه حسين ● نستخلص من بين التفصيـلات التجارية الكثيرة التى تحفل بها المذكرات، بعض ما يصـور نجاح صاحبها الجامـعى فى خوض معترك الحياة التـجارية مستنداً إلى ثقافته الجامعية وخبراته التى زودته بها ثقـافته فى الجامعة، ودراسته العامة قبلها ● محاولة كلف بها ابنه أميراً مـن أجل مكافحة تزوير الكتب فى بيروت، وهى الظاهـرة التى انتشرت كرد فعـل طبيعى لتعقيـد الإجراءات المصرية الحاكمة لـلتصدير والصادرات على وجه العمـوم، وكانت الكتب المصرية ضحية بارزة من ضـحايا هذه الإجراءات المتعسفة التى آذت الاقـتصاد القومى ● يجاهر باتهامه لناشر زميل ذاكراً اسمه بكل صراحة على صفحات المذكرات ● يمضى خطوة أوسع فى هذا الطريق فيلقى على عاتق هذا الرجل باتهام آخـر محدد وواضح ● يحرص على أن يردف هذه القصـة بقصة أخرى تدل بكل وضوح على مـدى معاناة الناشرين من معـاملة بعض أجهزة الدولة لهم من خلال سـياسة توسيع دائرة الاشتباه فى دلالة ما يتفـوهون به فى أحاديثهم التليفونية ● تحفل المذكرات بكثير مما كنا ولانزال نتـوقعـه من حديث عن مـصاعب السـوق والمال والتجـارة، وبخاصـة إذا ما واجـهت هذه المصاعب جامعياً تخرج فى قسم اللغة الإنجليزية ● كان يستفيد مما وفـرته له جيناته الوراثية من خبرة بالتجارة، ونحـن نرى هذا المعنى واضحاً جداً فيـما يحدثنا به من أحاديث مطولـة عن إدراته لشئون التجارة ومعاناته منه ● طبيعـة النظرة الضيقة عند بعض خـريجى الجامعة وبعض أفـراد المجتمع إلى امتهان التجارة والعمل بها ● يهمل تقييم زملائه الأفذاذ الذين زاملوه فى بداية حياته ولا يكاد يصدق حجم مواهبهم الكبيرة، ونحن نرى هذا بوضوح فى قصة زمالته للفنان سيد إسماعيل ● نراه بوضوح أيضا فى حديثه عن الفنان الكبير مـحمد عبد المنعم رخا ● وفى مقابـل هذا فإنه بحكم النظرة المادية للأشياء ينتبه فى مـرحلة مبكرة إلى قيمة الأطباء ويعطيهم اهميـة خاصة فى مذكراته ● نشير إلى ان المذكرات تحفل بتـقدير صاحبها لكثيـر من أفراد أسرته، ونحن نراه معجبـا بشخصية جده، ومـعجبا بشخصـية والده، لكنه يبدى كثـيرا من التحفظات على سلوك شـقيقه الأكبـر محمد وبقيـة أشقائه، يحدثنا عن ثقافة والده باعتزاز وإعجاب شديدين .



الباب الأول

فى نهر الحياة

مذكرات الدكتور عبد العزيز كامل

(١)

ولد الدكتور عبد العزيز كامل بالإسكندرية فى التاسع والعشرين من يناير سنة تسعة عشر (١٩١٩)، أى فى نفس السنة التى ولد فيها معظم زعماء الثورة، وقد حصل على ليسانس الجغرافيا (١٩٤٠)، ثم حصل على دبلوم معهد التربية العالى بعدها بعام (١٩٤١)، وبعدها بعشر سنوات حصل على دبلوم معهد الدراسات الإفريقية (١٩٥١)، ثم بعدها بست سنوات حصل على الدكتوراه مع مرتبة الشرف من جامعة القاهرة (١٩٥٧).

وقد عين بعد حصوله على الدكتوراه أستاذا مساعدا فى جامعة القاهرة (١٩٥٧)، ثم نقل أستاذا مساعدا بكلية الآداب جامعة القاهرة (١٩٦٣)، واختير نائباً لوزير الأوقاف (مارس ١٩٦٨) عند تشكيل وزارة الرئيس عبدالناصر الأخيرة بعد إعلان بيان مارس، وأستاذا غير متفرغ بآداب القاهرة (١٩٦٨)، وفى أكتوبر ١٩٦٨ أصبح وزيراً للأوقاف بعد أن ترك حسين الشافعى الوزارة تطبيقاً لمبدأ عدم الجمع بين الوزارة وعضوية اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكى، وظل فى منصبه الوزارى حتى وفاة الرئيس عبدالناصر وطيلة عهد الوزارات الأربع التى شكلها الدكتور محمود فوزى

في بداية عهد الرئيس السادات، وحينما شكل عزيز صدقى وزارته فى يناير ١٩٧٢ خرج من الوزارة وخلفه الشيخ عبد الحليم محمود، وعمل أمينا لشئون الدعوة والفكر بالاتحاد الاشتراكى (١٩٧٢)، وسرعان ما وجد فرصته فى العمل مديرا لجامعة الكويت (١٩٧٢)، ثم عاد إلى مصر عند تشكيل الوزارة التالية (مارس ١٩٧٣)، وهى وزارة الرئيس السادات الأولى، وعين نائبا لرئيس الوزراء للشئون الدينية ووزيراً للأوقاف، بينما عين الشيخ عبد العزيز عيسى وزيراً لشئون الأزهر، وقد احتفظ بهذا المنصب فى وزارة الرئيس السادات الثانية (أبريل ١٩٧٤)، ووزارة الدكتور عبدالعزيز حجازى (سبتمبر ١٩٧٤)، ومن الطريف أنه فى نهاية عهد هذه الوزارة (أبريل ١٩٧٥) كان هناك نائبان لرئيس الوزراء بعد وفاة المشير أحمد إسماعيل فتولى أحدهما رئاسة الوزارة، وخرج الثانى مع رئيس الوزراء، وكان اسم كليهما: عبد العزيز، وقد عاد عبد العزيز كامل للعمل بالكويت.

ويرى بعض المراقبين أن انتماء عبد العزيز كامل للإخوان المسلمين فى ماضى عهده لم يكن نقمة عليه، وإنما هو الذى مهد له الصعود إلى ما وصل إليه من مناصب سياسية، لأن انتمائه العلمى لم يكن ليؤهله فى النهاية إلى مثل هذه المواقع على الإطلاق! وليس هذا غضاً من قدره، ولا تنزيلا، ولا هو باستكثار للمنصب أو للمناصب على الرجل، لكنه إشارة إلى علامة بارزة من علامات اختيار الوزراء فى عهد الثورة.

(٢)

هذا هو الجزء الأول من المذكرات التى تأخر نشرها، وقد أشار صاحبها فى الصفحة الأولى من المذكرات إلى أن المذكرات ستقع فى أربعة أجزاء

حددها على النحو التالى:

- الجزء الأول: ١٩١٩ - ١٩٥٢ الحلمية: الإخوان.
- الجزء الثانى: ١٩٥٢ - ١٩٦٨ العباسية: الجامعة: والمعتقل.
- الجزء الثالث: ١٩٦٨ - ١٩٧٥ ميدان الأزهار: الأوقاف.
- الجزء الرابع: ١٩٧٥ السالمية.

ومن الواضح أنه كان يريد الحديث على طريقة الرباعيات التى يأخذ كل جزء منها اسما خاصا به، وتجتمع الرباعية لتكون المذكرات (أو الرواية).

ومن الواضح أيضا أن المؤلف أو صاحب الذكريات لم يلتزم بهذه الخطة تماماً، فإننا نرى المذكرات التى بين أيدينا وقد شملت بعض ما كان ينبغى أن يتأخر إلى الجزء الثانى من المذكرات، وربما كان هذا أمراً منطقياً، إذ لا يمكن الفصل بين الجزءين الأول والثانى على نحو دقيق أو على نحو حاد.

ومع هذا فلاتزال السنوات الممتدة من ١٩٥٤ وحتى وفاة المؤلف فى حاجة إلى مذكرات منشورة، ولاشك أنها لن تنشر إلا إذا وجدت مكتوبة، وإلا إذا رغب أصحابها أو المستحوذون عليها فى نشرها.

(٣)

اختار الدكتور عبد العزيز كامل أن يصور نفسه جزءاً من نهر الحياة، وقد جاء هذا الاختيار متوافقاً تماماً مع ثقافته المهنية، ودراساته العليا، وهو الجغرافى الذى شغل فى دراساته بنهر النيل وبمساره، كما جعله التأمل الدائم والدائب فى الحياة العامة والحياة الخاصة وفى النهر (طيلة فترات

وجوده فى المعتقلات) يفكر فى مصير حياة هذا النهر حين تبدأ وحين تنتهى، ونحن نراه فى إحدى هذه السرحات يستدعى تأملاته حين يرى النهر رأى العين وهو يسير على شاطئه، وهو يعبر عن هذا المعنى بوضوح حتى من دون أن يشير إلى أن هذا كان دافعه وراء اختيار هذا العنوان لمذكراته:

«. . . ثم أنزل بعد الغروب أسير على شاطئه، وأتأمل ماءه فى جريانه القديم المتجدد. . رحلة طويلة تقوم بها كل قطرة من ماء النهر، من منابعه العليا فى هضبة البحيرات وإثيوبيا، حتى يلقى النهر ماءه فى البحر المتوسط، وهناك يمرج الله البحرين، هذا عذب فرات، وهذا ملح أجاج، وبعد هذا تأتى رحلة سماوية للمياه، تذهب فيها كل قطرة إلى طريق».

«هل تعود قطرة النيل إلى النيل، وتعود كل نفس إلى بيتها؟».

«وإذا كان هذا النهر يفيض علينا بالخير، فهناك نهر من الشر يتجمع، إنه نهر الاعتقال، قطراته من هذه القلوب الطاهرة، شواطئه من حراس غلاظ شداد، روافده من كل قرى مصر ومدنها، تجمعهم الأيدى والقيود، وتدفعهم القطارات والسيارات إلى السجن الكبير».

(٤)

أبدأ مدارستى لهذه المذكرات من زاوية ضيقة لكنها مهمة، ذلك أنى كنت ولازلت أعجب من كثير من لفتات الدكتور عبد العزيز كامل المتأثرة بروح البيروقراطية، فهذا رجل عانى المعتقلات، ودفع ثمناً كبيراً لمواقفه الفكرية، لكنه مع هذا الثمن الذى دفعه حريص على أن يذكر أنه لم يصدر عليه أى حكم قضائى(!!) وكأنه كان يتوقع أن يمتد التعذيب أيضاً ليشمل صدور

أحكام قضائية عليه تدينه على موقفه الفكرى، وكأنما كان كل هذا التعذيب الذى مر به والاعتقال الذى عاناه غير كاف لتأديبه، وانظر إليه وهو يتحدث عن المعتقلات التى تقلب فيها فيقول:

«. . . عرفت المعتقل والسجن الانفرادى مددا تطول أو تقصر، وينتهى التحقيق بصحيفة أشهد الله أنها كانت له، ومن غريب ما صنع الله أننى فى هذه التجارب جميعا لم يصدر علىّ أى حكم قضائى، عرفت معتقلات الهايكستب (شمال شرق القاهرة)، والطور فى سيناء العزيزة (قرب الطريق الجنوبى لخليج السويس)، وعيون موسى (قرب طرفه الشمالى)، وكان هذا عام ١٩٤٩».

«وعرفت معتقل القلعة على جبل المقطم شرقى القاهرة، والسجن الحربى فى العباسية بالقاهرة، وهو أشهر من أن يعرف (١٩٥٤ ـ ١٩٥٦)، وعرفت الاعتقال فى إدارات متخصصة على مستوى رفيع، وفى أقسام الشرطة فى القاهرة (قسم عابدين مع سارق خزائن، وكان غاية فى الأدب وعميق الحزن لسجنى، ومع تجار أسلحة، وطلبة علم، وأبرياء لا يعرفون لماذا جىء بهم إلىَ هناك)، والمنوفية. . ».

. . . .

ليس غريباً إذاً أن نرى فى مذكرات عبد العزيز كامل كثيراً من التأثر بالنظرة البيروقراطية إلى الأمور، حتى إننا نرى صاحب المذكرات حين يحدثنا عن استعفائه من موقعه المتقدم فى حركة الإخوان المسلمين يقول إنه كتب «خطاباً رسمياً» ويصر على هذا الوصف الطريف، الذى نفهم القصد منه لكن اللفظ يروعنا ويدهشنا، وبخاصة إذا ما كان الحديث عن شىء غير

حكومى!! بل ربما مناقض للحكومة.

(٥)

ويجيد الدكتور عبد العزيز كامل تصوير الفارق الشاسع بين مواقف الحياة منه، وتقلبه فى ظروف متباينه ومتناقضة، فيقول فى بدايات كتابه:

«مرة أنتقل من مكان إلى آخر وفى يدى قيد حديدى فى صحبة جندى أو ضابط، ومرة يفرشون تحت أقدامى بساطا أحمر، وأقف على منصة الشرف أستعرض الحراس، مرة تعبر بى سيارة صامتة شوارع القاهرة، وعلى عينى عصابة سوداء، ويد تدفع رأسى إلى أسفل كى لا يرانا أحد، والوقت ليل.. الليل والعصابة، ظلم وظلمة».

«وعرفت وفاء الأصدقاء وغدر الأخلاء».

وهو بعد أن يمضى الكتاب إلى صفحة ١٤٨ نراه يحدثنا حديثاً أدبياً ونقدياً يعبر عن نفسية مرهفة ويقول:

«وفى يوم من الأيام سألنى صديق عن أسعد لحظات حياتى: «قلت: كثيرة، ولكن أسعدها حين أعود إلى البيت، وأصعد الدرج إلى مسكنى، وأحمد الله أن كتب لى السلامة، ثم أضع المفتاح وأفتح الباب، هذه اللحظة، لحظة فتح الباب، ورؤية الأهل، وإلقاء السلام، هى وحدها من أسعد اللحظات عندى».

«وكنت أقرأ من قبلها قول شوقى:

«وكل مسافر سيعود يوما إذا رزق السلامة والإيابا».

«ولم أكن أحس فيه بعمق ولا إبعاد».

«ولكنى بعدما مررت به من تجارب، أدركت المسافة الكبيرة بين مسافر وسيعود، ومتى عودة المسافر؟! يوما.. متى هذا اليوم؟ بعد سنة أو أكثر أو أقل؟ وما العقبات والمحن التى سيمر بها طريق السفر، ولكن إذا رزقه الله السلامة والإياب عاد، فقد يرزقه الله السلامة، ويبقى فى قطر آخر مهاجراً يستشعر الغربة دوماً، ويسمع نداء النيل، ولا يستطيع الإجابة، فالإياب شيء، والسلامة شيء آخر، والسعادة لو اجتمعا».

(٦)

يبدو أن الدكتور عبد العزيز كامل حين كتب مذكراته لم يكن يدرك ما يدركه عامة الناس اليوم من أن إعادة كتابة التاريخ تمثل وسيلة للهدم، وللتوجيه، ولا تستهدف دوماً إظهار الحقيقة، وهو يحدث نفسه بما اكتشفه من هذه الحقيقة على استحياء، وكأنه لا يتصور أن الجماهير المعاصرة تدرك فى تلقائية ووضوح ما أدركه هو بعد عناء، بل إن الجماهير المعاصرة لتاريخ نشر المذكرات تتصور ما تدركه فى هذه الناحية على أنه نوع من البدهيات، وهو يستعرض تجربته مع التاريخ الذى أعيدت كتابته إلى أن يصل إلى قوله:

«وأسائل نفسى: «كم مرة أعيد كتابة التاريخ خلال ربع قرن؟»».

«فترة شهدت مغرب النظام الملكى ومجيء النظام الجمهورى عام ١٩٥٢، ثم النظم الاشتراكية عام ١٩٦١، وهزيمتنا فى ١٩٦٧، ورحيل الرئيس جمال عبد الناصر ١٩٧٠، وثورة التصحيح فى عام ١٩٧١ من أجل إنشاء دولة المؤسسات وسيادة القانون وتحرير المواطن من مراكز القوى، كما نادى

الرئيس أنور السادات، ثم حرب رمضان ـ أكتوبر ١٩٧٣ وما وراءها من معقبات».

«حقا إن الفترة عريضة، ولكنى أركز على أمر أساسى هو: تغير «النظرة الرسمية» لنفس هذه الفترة، وانعكاس ذلك على ما يقدم من تصور تاريخى إلى الرأى العام، وإلى أبنائنا فى مدارسهم، ليكون مادة تكوينهم الفكرى وما يمرون به من تناقضات فى العرض ترفع وتخفض، وتمحو وتثبت».

. . . .

هكذا يبلور عبد العزيز كامل بدقة شديدة ذلك المرض الحاد الذى أصاب التاريخ المصرى المعاصر مرات عديدة على مدى عهد الثورة

(٧)

وهو فى مقابل حيرته هذه يرى أن هناك فئات ظلت لها قيمتها الكريمة مع تاريخنا وحياتنا، وسرعان ما يعود إليها مكانها، إذا ما حاولت بعض العهود أن تغير عليها، وهو يضرب على هؤلاء أمثلة بارزة فيقول:

«ومن هؤلاء شخصيات البيت النبوى الشريف فى مصر، أو الزعماء الشعبيون الذين نبتوا فى أرضه، ولم تفرضهم عليه سلطة إلا إحساس الأمة بمكانتهم، وتكريمها لذكراهم»

ويضرب الدكتور عبد العزيز كامل مثلاً بالسيدة زينب رضى الله عنها ويقول:

«هناك حى رئيسى من أحياء القاهرة يحمل اسمها، ومسجد يعمره

العابدون، ويرعاه المؤمنون تعـميرا وصيانة عـبر القرون، [واسم زينب] اسم شائع فى بناتنا، تـقاليد قد تـقبل منها وقـد تدع، ولكنها ـ عمليـاً ـ تمثل ما كانت عليـه رضى الله عنه فى حيـاتها من كرم، وحـرص على توزيع طعام على مَنْ يعيشون فى جوارها، ويقـصدون دارها، لقد أطلق الناس عليها أم العواجز، كأنها حبيبة المحتاجين والفقراء».

ويحاول عـبد العزيز كـامل أن يقدم تحليلاً اجـتماعيـاً علمياً لرؤيتـه لهذه المكانة التى يعبر عن إعجابه بها:

«. . . إننى لا أكتب تقـويما لهذه الأعمـال من الناحية الدينيـة المجردة، ولكنى أراها فى التطور الاجتماعى ظواهر تدل على حب متوارث، لا مجال لسلطة عابرة فيه».

«لقد جاءت رضى الله عنـها إلى مصر فى العهـد الأموى، وتعاقب على مصـر حكام من السنّة والشيعة، فى الـعهد الفاطمى، وجـاء الأيوبيون من بعدهم، ولكن مكانة أهل البـيت النبوى، من أهل مصر أتبـاع مذاهب أهل السنّة، ظلت أسيرة فى القلوب، حبيبة إليهـا، متعالية فوق هذه الصراعات، وكـأن أهل القاهرة ومن ورائهم أهل مـصـر كونوا لأنفـسهم هذا النمـوذج الإسلامى الودود، الذى يجمع بين حب أهل السنّة والجماعة، وأهل البيت النبوى، حب الخلفـاء الراشدين جميـعاً، وجميع أصـحاب النبى صلى الله عليـه وسلم، وأهل بيتـه الكرام، بل حب كل مَنْ أسـدى إليهـم خيـراً، وبادلوه الود، واحتفظوا بهذا الود فى صدق عبر القرون».

(٨)

يستـعيد الدكـتور عـبد العزيز كـامل من ذاكرته ذكرى لـقائه الأول بمدينة

القاهرة فى أكتوبر ١٩٣٦، حين جاء للالتحاق بالجامعة، ونراه حريصاً على أن يشير إلى اكتشافه المبكر للتفاوت الحاد بين الطبقات فى مدينة القاهرة، وربما كان من الضرورى أن أستبق الفقرة التى أنقلها عن عبد العزيز كامل بالإشارة إلى حقيقة بسيطة ربما يعجب لها القراء الشبان من الجيل المعاصر، وهى أن كثيراً من وسائل المواصلات، ومنها خطوط الأوتوبيسات والتروللى باص والمترو، كانت تسلك الطريق من ميدان محطة مصر (ميدان رمسيس) إلى جامعة القاهرة عبر كوبرى أبو العلا والزمالك، وهو طريق لم يعد مسموحاً به اليوم لوسائل النقل العام فى ظل ازدحام هذه المنطقة، بل ربما كان صعباً أن تلجأ إليه السيارات الخاصة، وربما كان هذا الإيضاح البسيط ضرورياً قبل أن يُفاجأ القارئ بالمسار الذى يتحدث عنه الدكتور عبد العزيز كامل، وكأنه مسار وضعه هو من خياله الجغرافى ليصور به ما يريد تصويره من هذه الفوارق الطبقية الساحقة:

«فى أكتوبر ١٩٣٦ . . بدأت أكتشف عالماً جديداً: القاهرة، أم الدنيا».

«لم أكن حتى نهاية دراستى الثانوية بارحت الإسكندرية إلا فى زيارات قصيرة وقريبة إلى الريف المجاور، أطول رحلة كانت إلى طنطا مع والدتى لزيارة خالتى».

«وأحلام الشباب تملأ مخليتى وأنا الآن فى طريقى إلى الجامعة، هذا العالم الجديد، كلية الآداب، طه حسين، أحمد أمين، مصطفى عبد الرازق، محمد عوض، سأعيش قريباً من هؤلاء الشوامخ، بل أستطيع أن أحضر دروسهم، وأتحدث إليهم».

«وقطع الترام الطريق الطويل إلى الجامعة وسط المزارع، بعد أن عبر حى

بولاق والزمالك، المدينة فى غناها وفقرها، الريف قاعدة المجتمع وقمته، كل ذلك تشاهده فى الطريق من باب الحديد إلى الجامعة، كأنها مصر كلها معروضة أمامك: عربات تجرها الخيل والبغال والحمير فى بولاق، سيارات فارهة فى الزمالك، فلاحات يحملن نتاج الحقل فوق رءوسهن، عربات بأيد يجرها مواطنون، صور تتلاحق فى شريط ينتهى بك إلى منظر ترى فيه الجامعة بكل شموخها وجلالها وسط حدائق الأورمان».

(٩)

ثم نرى الدكتور عبد العزيز كامل يقدم لنا باقة جميلة من المعانى النبيلة التى تتصل بفهمه لمعنى الجامعة، وسلطتها، ومكانة العلم والرأى فيها، ومكانة الجامعة من ضمير ووجدان وأوقاف الأميرة المحبة للعلم التى وقفت عليها من المال ما يساعدها على أن تؤدى وظيفتها:

«وتتقدم نحو القبة العالية فى خشوع، وتعبر الباب الكبير، نحن الآن فى حرم الجامعة، حيث لا تستطيع سلطة أن تدخل إلا كلمة العلم والحق، هنا دولة العلم والرأى الحر، هذه كلية الآداب على يمين الداخل».

«ونقرأ على مدخلها: هذه من آثار الأميرة فاطمة إسماعيل».

«ونتساءل: مَنْ هى الأميرة فاطمة إسماعيل التى كتبوا اسمها بماء الذهب على الكلية؟! ولكن مَنْ يسأل مَنْ؟»

«ونرى وجوهاً تنظر إلينا بابتسامة ودود، إنهم الطلبة القدامى، ونعلم أنها أميرة من البيت الحاكم، أحبت العلم، وأوقفت عليه جانباً كبيراً من أموالها، وأن قدراً من نفقات الجامعة يأتى من هذا الوقف».

. . . .

والواقع أن إيمان عبد العزيز كامل بالجامعة وقيمتها يتعدى ما كتبه فى هذه المذكرات إلى ما انعكس فى سلوكه نتيجة دراسته فى الجامعة ومعايشته لجوها الأثير، وإن كان لم يعن فيما سجله من مذكرات بما فيه الكفاية بمثل هذه الزاوية مكتفياً بالأثر البارز فى شخصيته وعقليته وتفكيره وآرائه.

(١٠)

والواقع أن إيمان الدكتور عبد العزيز كامل بالعلم وبالتعليم الجامعى على هذا النحو يجعلنا نسرع الخطى لنتأمل فى حقيقة فهمه للتدين، وهو الرجل الذى كان مبرزاً فى جماعة كان لها شأن كبير فى الحياة السياسية منذ نشأتها وحتى الآن.

ونحن نرى الدكتور عبد العزيز كامل حريصاً على أن يصور نهجه فى التدين شبيهاً بنهج الشيخ حسن البنا وإن لم يكن متطابقاً تماماً، فكلاهما بدأ بالتصوف، وهو يروى بهدوء شديد يكاد يقترب من البرود إقباله على التصوف وانصرافه عنه.

وهو كما سنرى يروى أنه كان يزيد من جرعته السلفية فى تدينه بكثير عما كان موجوداً فى فكر حسن البنا الذى كان فيما يبدو مما يرويه أقل منه فى التمسك بالسلفية، وهو يحدثنا عن أنه فوجئ بالتصوف وقد ترك آثاره على حركة الإخوان المسلمين:

«. . . لم أكن أتصور بعد أن تركت هذا ورائى [أى طقوس التصوف] أن أجد آثارا منه عند الإخوان المسلمين، لقد كانت لهم «وظيفة»، وهى ورد

المأثورات، نقرؤها في الصباح والمساء عقب صلاتي الفجر والمغرب، وملحق بها أدعية للمناسبات».

«واستوقف نظري أن أدعية المأثورات لا تعدو أن تكون تجميعاً من القرآن والسنّة الصحيحة، وأن كل نص قرآني أو نبوي بما جاء فيه من الأحاديث الشريفة، مما يجعل قوله في هذا التوقيت اتباعا للهدي النبوي».

«ومن هنا اختلف الأمر في الطرق الصوفية عنه في الإخوان، بينما اللقاء والجلوس وقراءة المأثورات معاً، لم أجد له شيئاً من كتاب أو سنّة مأثورة عن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم».

(١١)

وهو يتحدث حديثاً صريحاً عن محاولته الجادة في دراسة شخصية حسن البنا والمؤثرات البارزة في تكوين هذه الشخصية، وهو يصل إلى نتائج ذات قيمة من ناحية، وذات رضا نفسي فيما يتعلق به من ناحية أخرى:

«وحاولت أن أدرس جوانب شخصية الأستاذ المرشد، ولماذا لم يختر لنفسه اسم الرئيس أو ما شابه ذلك/ الاسم نفسه [يقصد اسم المرشد] كان يحمل سمة صوفية، ومع جلوسي معه واستماعي إلى أخباره من أقرب الناس إليه، عرفت أنه كان من أتباع الطريقة الحصافية في محافظة البحيرة (مديرية البحيرة وقتئذ)، وأنه كان يتردد على مجالس الذكر فيها، وأن والده فضيلة الأستاذ أحمد عبد الرحمن البنا شرحاً أورادا صوفية في بعض مؤلفاته، مع أن أعظم عمل قام به هو كتاب «الفتح الرباني» الذي أعاد به ترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني على موضوعات الفقه، فكان

الوالد يجمع بين قسمات صوفية، وأخرى سلفية تُعنى بالحديث الشريف أساسا فى حياته».

«كذلك كان فى الابن الأستاذ حسن البنا هذه اللمسة التصوفية، فيه منها العبادة، والدأب والسلوك وشدة المراقبة، وحب اللقاء مع المريدين، وإن لم يطلق عليهم هذا الاسم، ثم حبه أن يطيعوه، فيما لا معصية لله فيه».

«وكنت أتوقف عند أى تصرف فردى أو جماعى من الإخوان لا أجد له سنداً من كتاب أو سنّة، وأدى هذا إلى حوار استمر سنين، تعلو نبرته وتنخفض، بينى وبين فضيلة الأستاذ المرشد».

. . . .

هكذا نفهم أن الاختلاف الواضح فى النهج الفكرى كان موجوداً بين قادة الإخوان المسلمين من هذه الطبقة من دون أن يوقف حركة هذه الجماعة فى المجتمع.

(١٢)

على هذا النحو الذكى أو المفرط فى الذكاء تمكن الأستاذ عبد العزيز كامل من أن يلخص علاقته الفكرية بالتوجهات الإسلامية فى مراحل هذه العلاقة الأربع، بدءاً من الصوفية ثم السلفية ثم الإخوان المسلمين، ثم الخروج على الإخوان المسلمين.

ومن الإنصاف أن نشير إلى الموقف الذى جعله يعبر فترة الانتماء للفكر السلفى بسرعة بالغة:

«. . . استوقف نظرى أن عاملاً فى المدرسة كان يحضر إلى المصلى، أسمر الوجه، قصير اللحية، له عمامة بيضاء صغيرة فوق طاقية تبدو تحتها جبهته العريضة، وفيها أثر السجود، أبرز ما فى وجهه عيناه، ففيها حور وهدوء، وعندما يدخل المسجد كنت أجد المدرس يقدمه للإمامة، فيصلى بنا فى خشوع وهدوء وإتقان، وعرفنا اسمه: الشيخ محمد على أمين، ويندر أن نجد طالباً من جيلنا مر على المدرسة العباسية الثانوية بالإسكندرية دون أن يعرف هذا الشيخ الجليل».

«كنت أنظر إليه بعمامته البيضاء وأسلوبه فى تكويرها، فتبدو من أمام كعقد صغير فى مسبحة، وتحت زاويته العليا هذه الزبيبة، تنبئ عن طول سجود، سمرة فوق سمرة نراها نوراً على نور».

«جاءنا ناظر جديد، وجمع الفراشين فى صف ليفتش على نظافتهم، وكان ناظراً عسكرى الطابع، فى مشيته وحديثه ومعاملته، لم أشاهده مبتسماً قط، ولعله يبتسم حين يفرغ إلى أصحابه وأهله، ومر أمام الفراشين:

«أنت تنظف ملابسك، أنت تحلق ذقنك، أنت. . أنت. . .».

«حتى أدرك الشيخ محمد على أمين، فإذا به يطيل الوقوف أمامه قليلاً، ثم يقول: «أنت تسيب ذقنك»، وكانت اللحية الوحيدة التى سمح الناظر لأحد العاملين فى المدرسة بإرسالها».

«وكان الناظر هو المرحوم عبد الحميد بك العجاتى، من أقدر النظار على الرؤية الحاذقة، وأدركنا شيئاً من كرامة العلم والدين، يستطيع بهما الخلق

أن يفرض نفسه على الجو على مَنْ حوله، فرضاً ليس فيه قهر، وإنما التقبل الراضى والاحترام».

(١٣)

ويروى لنا عبد العزيز كامل كيف تطورت علاقته بالشيخ محمد على أمين، وكيف دعاه هذا الشيخ المؤثر إلى المجتمعات السلفية التى كانت تمارس دعوتها فى مصر:

«كان هذا فاتحة صداقة بيننا استمرت بعد هذا سنين».

«وقال لى بعد هذا: أى المساجد تتردد عليها؟ وأى الشيوخ تستمع إليهم؟».

«وعرف بهذا جانبا من علاقتى بالطريقة الشاذلية، وكنا فى أواخر العام الدراسى، فقال لى: . . . تتفرغ للمذاكرة، وهناك مسجد فى محرم بك يخطب فيه شيخ أحب أن تسمعه، وهذه صلاة جمعة تؤديها فى أى مسجد، ولن تأخذ من وقتك أكثر مما تعودت عليه».

«وذهبت إلى هذه الزاوية الصغيرة. . كانت ملحقة بمخبز، ومبنية فى أرض فضاء، بناء ساذجا محدود المساحة: منبر من ثلاث درجات، سقف قريب، أحسست فيه بالحر مع اقتراب الصيف وسوء التهوية، وحصير غليظ، أذان شرعى من نوبى عريض الكتفين، عريض الصوت، ثم وقف شيخ يخطب الجمعة، لم تكن خطبة تقليدية، تدفق الرجل فى خطابته معتمداً أساساً على التمسك بالكتاب والسنّة، هاجم البدع ومحدثات الأمور هجوماً عنيفاً، رفع صوته كأننا فى معركة، تصبب العرق من جبهته وهو

يدافع عن وجوب الاعتصام بالقرآن الكريم والسنّة المطهرة، رأيت نفسى ورأيته والحاضرين يدير معركة فكرية، تشتد حرارتها كلما زاد تدفقه فى الخطابة، وأطال وأطال، ويبدو أن الحاضرين متعودون على ذلك، وبعد الصلاة ألقى درساً تابع فيه شرح ما جاء فى الخطبة».

«ودارت عينى بين الجالسين، شباب وكهول، مستويات يبدو عليها التباين الاجتماعى والثقافى، مواطنون من السودان والنوبة، وصعيد مصر والإسكندرية، وجوه تتدرج ألوانها بين طرفين من سواد الشعر وبياضه».

(١٤)

وعند هذا الحد نجد عبد العزيز كامل يقرر ضرورة أو أولوية الابتعاد عن هذا الطريق السلفى الذى لم تطقه نفسه الوديعة التى أشربت حبا صوفيا من قبل:

«... ووجدت نفسى أقبل من كلام الشيخ وأدع، لم هذا العنف، وهذا الهجوم الضارى على بعض أهل القبلة، وتذكرت كلمة الشيخ الصوفى [يشير عبد العزيز كامل إلى شيخه فى الطريقة الصوفية من قبل الذى أوصاه بالتواصل حين أنهى إليه رغبته فى الابتعاد عن ممارسة الصوفية]: «إذا باعدت بيننا الحياة فإن الإسلام يجمعنا»، وهل بمثل هذا الأسلوب تجتمع قلوب المسلمين، ولو صلى هؤلاء فى زاوية الشاذلية لحدث صراع، ولو جاء الشاذلية هنا لحدث صراع، والإسلام يجمع، فكيف الطريق؟».

ويعود عبد العزيز كامل ليقيم تجربته مع أتباع الحركة السلفية فيقول:

«ولكن سيطرة الشيخ على اللغة وانطلاقه ووقوفه عند الكتاب والسنّة،

شدَّنى إليـه، وكثر ترددى على المسـجد لأداء صلاة الجـمعة، ولم يزد فـيه شىء، نفس المكان الصـغـيـر، أعـداد محـدودة تضـاف إليـه، تعـاون بين الحاضرين فى دفع ثمن مياه الوضوء إلى المخبز المجاور، ومعاونة فى نفقات المرافق الصحية».

«ومحور الخطابة واضح محدد: العقـيدة السلفية فى ذات الله وصفاته، الإيمان بنص القرآن، دون تشبيه أو تعطيل أو تجسيم، رد الكيف فى الآيات المتشـابهة إلى الله، شـرح وبسط لما أجمله الإمام مـالك إمام دار الهـجرة، عندما سـأله أحد الجالـسين عن معنى قـوله تعالى: «الرحـمن على العرش استـوى»، فكان رده: «الاستـواء معلوم، والكيف مـجهـول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعـة»، ثم حديثه عن التوسل والوسـيلة، ووجوب الاعتماد على الله وحده القائم على كل نفس بما كسبت، وترك التوسل إليه بعباده، فهو قريب يجيب دعـوة الداعى إذا دعاه، وأفضل الدعاء ما جاء فى القرآن والسنّة النبوية المطهرة».

(١٥)

ومن الإنصـاف لأنفسنا أن نقطـع تواصل الحديث عن رأى عـبد العـزيز كامل فى الحركات الإسلامية (وقد شارفنا مرحلة انتمائه للإخوان المسلمين) لننتقل لرأيه الطويل فى الثناء على شخصـية حسن البنا، وإن كان هذا الرأى قد جـاء على سبـيل الاستطـراد، لكننا نرى هذا الرأى بمثابة الدافع الـقوى الذى جعل عـبد العزيز كـامل ينخرط فى حركـة الإخوان المسلمين إعـجاباً بشخصية قائدها:

«. . . كان ذا ذاكرة واعيـة شهد له بها الصديق وغيـر الصديق، كان يتم

قراءة القرآن فى سبعة أيام ومصحفه مقسم ومجلد على هذا الأساس».

«وكان يقرأ بنا القرآن كله فى ليل رمضان، يقرؤه بخشوع، ويعيش فيه، وبعد أربع ركعات من صلاة القيام يجلس بنا ليفسر بعض ما قرأ، ثم يتابع قراءة الجزء الذى بدأ فيه».

«وكانت ليالى رمضان على سطح المركز العام من أسعد ليالينا معه، وأحياناً يشتد به التأثر فنحس بعض نشيجه فى التلاوة، ونرى آثار الدمع فى عينيه إذا ما اتجه إلينا بوجهه بعد الصلاة».

«المصحف أمامه صحيفة واحدة، ينقل فيها بصره وفكره، واستشهاده بالآيات سريع ولماح».

«كذلك حصيلته من الأحاديث كبيرة، والاستشهاد بها قريب إليه وعلى طريفا لسانه، كذلك الأدب العربى، والشعر بخاصة، وأذكر أنه قال لى: كنت أحفظ منه عندما التحقت بدار العلوم نحو اثنى عشر ألف بيت، ومكتبته فيها كتب السنّة، كتب التصوف، كما كان دءوبا على الاطلاع، والإضافة، وتبسيط المعلومات، ويملك قدرة عالية على مخاطبة مستويات الفكر المتباينة».

«سمعته يخاطب العلماء والقادة والعمال والفلاحين، سمعته تحت قبة الجامعة وفى أعماق الريف، كالنهر الفياض، يرد شاطئه الكثيرون فيشربون ويرتوون، دون أن ينضب الماء، أو يكدر، أو تقل عذوبته».

«فإذا أضفت إلى ذلك حبه العميق لمن معه من الإخوان والأصدقاء، والقدرة على حفظ أسمائهم وأبنائهم وبناتهم، ووعى مشكلاتهم، والتعاون

معهم، ما استطاع على حلها».

«إذا ما ضممت هذا كله إلى سماحة الوجه، وحلاوة الكلمة، والصدق في الإخاء، استطعت أن تحس بأمرين:

«١ - ما كان يحمله الإخوان في قلوبهم له من حب ما رأيت له نظيرا في حياتي بهذا العمق والاتساع والتنوع».

«٢ - ما كانوا يقابلون به توجيهاته من استجابة، كانت لها مشكلاتها التي تركت أثرا عميقا على تفكير الإخوان».

(١٦)

هكذا نفهم، على طريقتنا المتواضعة في الفهم، الدافع القوي الذي جعل عبد العزيز كامل ينجذب للإخوان المسلمين تحت قيادة الشيخ حسن البنا.

ومن الإنصاف للمذكرات ولصاحبها أن ننتقل الآن بسرعة لنرى أهم ما في هذه المذكرات من وجهة نظر التاريخ المعاصر وهو ما يتمثل في إيرادها تفصيلات الجلسة التي عقدها مكتب الإرشاد عقب اغتيال المستشار الخازندار، وقد حضر عبد العزيز كامل من أسيوط خصيصاً كي يحضر هذه الجلسة، ويبدو من حديثه أنه كان موكلاً بالفصل بين وجهتي نظر متناقضتين

«... كانت ذات طبيعة خاصة، ولعلها من أعمق جلسات الإخوان أثراً في نفسي، ولازلت أذكر الأستاذ وجلسته، وعليه يبدو التوتر، أراه في حركة عينيه السريعة، والتفاته العصبي، ووجهه الكظيم، وإلى جواره قادة

النظام الخاص عبد الرحمن السندى رئيس النظام، وكان لا يقل توترا وتحفزا عن الأستاذ، ثم أحمد حسنين، ومحمود الصباغ، وسيد فايز، وأحمد زكى، وإبراهيم الطيب، ويوسف طلعت، وحلمى عبد الحميد، وحسنى عبد الباقى، وسيد سابق، وصالح عشماوى، وأحمد حجازى، ومصطفى مشهور، ومحمود عساف».

«كان محور الحديث مصرع المستشار أحمد الخازندار».

«قال الأستاذ: إن كل ما صدر منه من قول تعليقاً على أحكام الخازندار فى قضايا الإخوان «لو ربنا يخلصنا منه»، أو «لو نخلص منه»، أو «لو واحد يخلصنا منه»، معنى لا يخرج عن الأمنية، ولا يصل إلى الأمر، فالأمر محدد، وإلى شخص محدد، وهو لم يصدر أمراً، ولم يكلف أحداً بتنفيذ ذلك، ففهم عبد الرحمن هذه الأمنية أمراً، واتخذ إجراءاته التنفيذية، وفوجئ الأستاذ بالتنفيذ».

وهنا يستطرد عبد العزيز كامل ليقول:

«حدثنى الصديق الأستاذ مختار عبد العليم المحامى، أن الأستاذ فى صلاة العشاء مساء الحادث سها فى عدد الركعات وصلى الفرض ثلاث ركعات، وأكمل ركعة السهو، وما أذكر على طول صلاتى مع الأستاذ أنه سها مرة، وعلم الأستاذ مختار بهذا ممن كان مع الأستاذ فى صلاته».

«وسمعت منه أيضاً أن الدكتور عزيز فهمى المحامى قابله فى المركز العام، فوجد الأستاذ جالساً فى حجرة منعزلة، وحيدا، واضعا رأسه بين يديه فى تفكير عميق، وألم لم يستطع إخفاءه، وهو ناقم أشد النقمة على الحادث».

ويعود الدكتور عبد العزيز كامل ليؤكد (ولا نقول: ليعترف) على معنى الخصوصية فى هذا الاجتماع الذى شهده، والذى لم يجد هو نفسه له مثيلاً بين اجتماعات الإخوان.

ومن العجيب أننا نقرأ الحوار الذى يرويه بين حسن البنا وعبد الرحمن السندى فنحس فيه بروح الحوارات بين عبد الناصر وعبد الحكيم عامر على نحو ما يرويها أنصارهما:

«وما أذكر أن الأستاذ عقد مثل هذا الاجتماع طوال حياته فى الإخوان بهذه الصورة».

«وكان واضحا أن الخلاف شديد بين المرشد وعبد الرحمن، فأمام كبار المسئولين سيبدو إن كان الأستاذ قد أمر، أو أن عبد الرحمن تصرف من تلقاء نفسه، وفى ماذا؟ فى قتل المستشار، وتسجيل عدوان دموى على القضاء فى مصر».

«ووجهت حديثى إلى الأستاذ قائلا:

«أريد من فضيلتكم إجابة محددة بنعم أو لا على أسئلة مباشرة لو سمحتم».

«فأذن بذلك فقلت:

«هل أصدرت فضيلتكم أمرا صريحا لعبد الرحمن بهذا الحادث؟».

«قال: لا».

«قلت: هل تحمل دم الخازندار على رأسك وتلقى به الله يوم القيامة؟».

«قال: لا».

«قلت: إذاً فضيلتكم لم تأمر ولا تحمل مسئولية هذا أمام الله».

«قال: نعم».

«فوجهت القول إلى عبد الرحمن السندى، واستأذنت الأستاذ فى ذلك فأذن».

«ممن تلقيت الأمر بهذا؟».

«فقال: من الأستاذ».

«فقلت: هل تحمل دم الخازندار على رأسك يوم القيامة؟».

«قال: لا».

«قلت: وهذا الشباب الذى دفعتم به إلى قتل الخازندار مَنْ يحمل مسئوليته؟ والأستاذ ينكر وأنت تنكر، والأستاذ يتبرأ وأنت تتبرأ».

«قال عبد الرحمن: عندما يقول الأستاذ إنه يتمنى الخلاص من الخازندار، فرغبته فى الخلاص أمر منه».

«قلت: مثل هذه الأمور ليست بالمفهوم أو بالرغبة، وأسئلتى محددة، وإجاباتكم محددة، وكل منكما يتبرأ من دم الخازندار، ومن المسئولية عن هذا الشباب الذى أمر بقتل الخازندار».

«ولا يزال المسلم فى فسحة من دينه ما لم يلق الله بدم حرام، هذا حديث

رسول الله صلى الله عليه وسلم».

«ثم قلت له: والآن.. هل تُترك المسائل على ما هى عليه، أم تحتاج منك إلى صورة جديدة من صور القيادة، وتحديد المسئوليات؟».

«قال: لابد من صورة جديدة وتحديد مسئوليات».

«واستقر رأيه على تكوين لجنة تضم كبار المسئولين عن النظام، بحيث لا ينفرد عبد الرحمن برأى، ولا تصرف، وتأخذ اللجنة توجيهاتها الواضحة المحددة من الأستاذ، وأن يوزن هذا بميزان دينى يقتضى أن يكون من بين أعضائها، بالإضافة إلى أنها تتلقى أوامرها من الأستاذ، رجل دين على علم وإيمان، ومن هنا جاء دور الشيخ سيد سابق ميزانا لحركة الآلة العنيفة».

(١٨)

ويعود عبد العزيز كامل مرة ثالثة ليؤكد على ما تفردت به هذه الجلسة من منطق المحاسبة للزعماء أياً كان مستواهم:

«وكانت هذه هى المرة الأولى التى يجلس فيها عبد الرحمن مجلس المحاسبة والمؤاخذة أمام الأستاذ وقيادات النظام الخاص، بل لعلها المرة الأولى التى جلس فيها الأستاذ أيضا مجلس المواجهة الصريحة أمام نفسه وأمام قادة النظام، إلى الدرجة التى يقول فيها لعبد الرحمن:

«أنا لم أقل لك، ولا أحمل المسئولية».

«وعبد الرحمن يرد: «لا أنت قلت لى وتحمل المسئولية».

«ويتبرأ كل منهما من دم الخازندار، ويخشى أمر أن يحمله على رأسه

يوم القيامة».

«وانتهت الجلسة. . وعدت إلى المنزل».

(١٩)

ويطلعنا عبد العزيز كامل على بعض التفصيلات المهمة والتداعيات المتوقعة التى آلت إليها هذه القضية ، التى كانت بمثابة تحول بارز فى مسار حركة الإخوان المسلمين:

«. . . ومرت الأيام بعد هذا، والقضية تُنظر، وشقيق أحد المتهمين (حسن عبد الحافظ وهو الأستاذ صلاح عبد الحافظ المحامى) يبذل الجهد المضنى مع الأستاذ فتحى رضوان الذى تولى الدفاع، ليثبت أن أخاه عنده انفصام شخصية «شيزوفرانيا».

«وجاءت فرصة قابلت فيها الأستاذ صلاح [أى صلاح عبد الحافظ]، فوجدته ناقماً أشد النقمة على الإخوان، وقد مست القضية شرف المهنة التى يعمل فيها والأخ الأثير إليه، والعدوان على القضاء الذى يقف أمامه، ودمرت مستقبل شابين».

«وبعد جهود وجهود أمكن أن يصدر الحكم بالأشغال الشاقة على محمود زينهم، وحسن عبد الحافظ».

(٢٠)

ويلخص الدكتور عبد العزيز كامل رأيه فى التطور الذى أصاب حركة الإخوان المسلمين مركزاً على الحقبة الزمنية التى حدث فيها التطور دون أن

يستقصى السبب الحقيقى فى هذا التطور، ودون أن يشير إلى مظاهره المبكرة التى ربما لم يكن على علم كاف بها، وهو يكتفى فى هذا الصدد بأن يقول:

«... لقد كان عام ١٩٤٨ ومطالع عام ١٩٤٩ الأعوام الدموية عند الإخوان أفعالاً وردود أفعال، وسحبت وراءها ذيولاً، وحفرت أخاديد، ومزقت أجساداً، وفتحت معتقلات باتساع لم تعرفه مصر من قبل، وأعدت قوائم بالآلاف كانت تحت يد الثورة حين أرادت أن تضرب ضربتها للإخوان فى سنة ١٩٥٤ وما بعدها».

(٢١)

وهو يحكى بتشوق حقيقى قصة آخر لقاء بينه وبين الإمام حسن البنا بما يدلنا على حرصه هو على هذا اللقاء، وعلى ما كان حسن البنا نفسه قادراً عليه من تقدير دقيق للموقف الجديد الذى وجدت الجماعة نفسها فيه بعد أن دفعتها ممارساتها إلى هذه الأزمة، وهو يتحدث عن استدعائه لصورة شخصية المرشد العام قبيل لقائه به فيقول:

«... وهذا الرجل الذى تقيده أغلال غير منظورة، وتحده عيون مفتوحة ليست لها أجفان، عيون ثابتة على بابه، هكذا أمروها».

ثم يروى عبد العزيز كامل قصة لقائه الأخير بالرجل العظيم:

«وعبرتُ كالسمكة حين تدخل الشبكة دون أن تشعر».

«وطرقت الباب، وفوجئ بى الأستاذ:

«لماذا جئت؟ سيقبضون عليك الآن، كل الذين يأتون يدعونهم يدخلون ثم يقبضون عليهم حين يخرجون!».

«وظهر عليه الكثير من الأسى، وسمعنا الباب يُطرق، وكان الداخل هو المرحوم محمد صالح حرب باشا الرئيس العام لجمعيات الشبان المسلمين».

«السلام عليكم ياشيخ حسن».

«هكذا كان ينادى الأستاذ المرشد الذى رد قائلا: عليكم السلام ورحمة الله وبركاته».

«وجلسا متجاورين وبدأ صالح باشا الحديث:

«أعلم أن الجمعية مغلقة ودارنا دارك، وتستطيع فى أى وقت أن تحضر إلى جمعية الشبان المسلمين حتى تُفتح الجمعية إن شاء الله».

«وشكره الأستاذ على هذا الاستعداد، لكنى كنت أحس القلق فيه، يبدو من حركات سيره السريعة، وسرعة اختلاج جفنه».

«ثم قال له:

«يا باشا هل تستطيع وأنت خارج أن تأخذ معك عبد العزيز، كأنه جاء معك، إنهم يعتقلون مَنْ يحضر إلىّ، يتركونهم يدخلون، ويعتقلونهم عند الخروج».

« ودعا بخير.. وتهيأنا للخروج».

(٢٢)

ويقدم عبد العزيز كامل لقطات موحية عن قدرة الزعيم صالح حرب فى تهريبه بذكاء شديد فى مثل هذا الموقف المحكم من جميع الجوانب:

«وقال لى صالح باشا:

«تفعل ما آمرك به، ستخرج إلى جوارى، وسأدفعك إلى عربتى، وسنصرف السائق مسرعا، وقبل أن ينتبهوا ستكون العربة قد أسرعت بالسير، وخرج صالح باشا فى مشيته العسكرية السريعة وقامته المهيبة، ودفعنى إلى السيارة ودخلها هو مسرعاً وأشار إلى السائق بالإسراع، وفى لحظة كنا بعيدين عن المنزل متجهين إلى قلب العاصمة».

«كان التأثر بادياً على محيا صالح باشا، وتركت ورائى الأستاذ المرشد، وكان هذا آخر لقاء بيننا فى دنيانا».

«وتأكد صالح باشا من أن العربة لا يتبعها أحد، وعندما اقتربنا من ميدان الإسماعيلية (التحرير حاليا) قال لى: سأنزلك قرب تاكسى تركب فيه مسرعاً، ثم تتجه إلى منزلك، ورافقتك السلامة».

«وعندما تحرك بى التاكسى متجهاً إلى روض الفرج، حيث أسكن، أحسست أننى انتقلت من سجن صغير إلى سجن كبير».

«كل منازلنا معروفة، وغدا أو بعد غد سيضم المعتقل آلافاً وآلافا».

(٢٣)

ويتيح لنا الدكتور عبد العزيز كامل فى مذكراته وقفات فكرية فى نقد فكر الإخوان المسلمين وممارساتهم برؤية واحد من المنتمين للجماعة، وهو على سبيل المثال يتحدث عن رأى حسن البنا فى الشورى وأنها غير ملزمة، وهو حريص بشدة، على أن يثبت أنه كان يخالف الشيخ حسن البنا فى هذه الرؤية:

«. . . كان من رأى الأستاذ المرشد أن الشورى غير ملزمة للإمام، كتب هذا صراحة، ودافع عنه، ولم يتحول عن هذا الرأى، وسرى هذا منه إلى مَنْ حوله، وفى أواخر الثلاثينيات ـ وهى السنوات الأولى لحياتى فى الإخوان ـ كنت أسمع كثيراً كلمة «بالأمر»، وهى كلمة عسكرية، تعنى أن فعل هذا كما هو مأمور به من مستوى أعلى، ولم أكن أستطيع إخفاء الضيق الذى كنت أحس به وقتئذ بذلك، وبعد ذلك كنت ـ ولازلت ـ أؤمن برأى الأغلبية إذا ما استنارت، وكانت لها حرية إبداء الرأى، ووضعت أمامها الحقائق التى تجعلها قادرة على الحكم، هذا حقها، وصاحبتنى هذه الحرية حتى فى الرؤى المنامية».

. . . .

هكذا كان عبد العزيز كامل يريد أن يعبر عن تشبعه بفكرة الديمقراطية حتى وإن لم يصرح بها بلفظها.

(٢٤)

وهو يروى أيضاً أنه كان يختلف مع الشيخ حسن البنا متأثراً بما كان قد تنسج وتعشق فى تكوينه الفكرى من وجهة نظر سلفية، وهو يلجأ إلى وسيلة ذكية هى التعبير بالمنام ليلخص وجهة الخلاف بينه وبين المرشد العام:

«. . . لازلت أذكر يوماً رأيت فيه الأستاذ المرشد فى المنام، ونحن نقوم الليل معاً، وعندما اقترب موعد الأذان، أخذ المؤذن فى الدعاء أو الترحيم كما يطلق عليه أهل الإسكندرية، وكان المؤذن نديّ الصوت يتغنى بالدعاء، ولاحظت الرضا على وجه الأستاذ، وقد استند إلى حائط المسجد فى

نشوة، وهو يقول لبعض مَنْ معه:

«قولوا للمؤذن أن يطيل الدعاء».

«فقلت له: ولكن هذه بدعة!!».

«فقال لى: أحب أن أسمع دعاءه».

«فعدت أقول: ولكن هذه بدعة».

«فاشتد فى رده وإصراره واشتددت فى ردى وإصرارى، واستيقظت على ذلك».

«ولقيته بعد أيام، وقصصت عليه هذه الرؤيا، فقال مبتسماً:

«أنا أعلم نوع تفكيرك وتمسكك بالسنّة، وستأتى أيام وظروف قد نختلف فيها، وأود فى هذه الظروف أن تترك رأيك لرأيى، ألا تطمئن إلىّ؟».

«وكثيراً ما كان يسألنى عند أول لقائنا: ماذا تقرأ هذه الأيام؟».

«فى كثير من الأحيان كانت ردودى لا تتعدى مؤلفات ثلاثة من أئمتنا الكبار: ابن حزم، وابن تيمية، وابن القيم».

«مصادفات كانت تحدث، وتكون ردودى مركزة على هؤلاء الأعلام، فيبتسم قائلا: دائماً معهم؟».

. . . .

هكذا نفهم بكل وضوح أن عبد العزيز كامل كان حريصاً على أن يدلنا على أنه ظل حريصاً على ولائه للسلفية حتى فى محاوراته المتجددة مع

الشيخ حسن البنا، ومن اللافت للنظر أن يكون هذا هو رأى صاحب المذكرات الذى لايزال حريصاً عليه حين كتبها، وذلك على الرغم من كل التطورات السياسية التى مرت بها بلادنا منذ تلك الحقبة، بيد أننا نستطيع أن نلاحظ أن علاقات الدكتور عبد العزيز كامل العربية تكاد تتوافق مع عقيدته هذه.

(٢٥)

ومن المفيد لتاريخنا المعاصر أن نتأمل فى بعض ما يقدمه عبد العزيز كامل فى هذه المذكرات من أحاديث وجدانية عن بعض قليل من قادة الإخوان، ونحن لا نستطيع أن نخفى تألمنا من إيجازه فى هذا الحديث، ومن قلة مَنْ تحدث منهم.

وهو على سبيل المثال يلخص تقييمه لشخصية عبد الرحمن السندى متعجباً من أن يكون مسئولا عن قيادة التنظيم السرى بينما كان مريضاً بالقلب منذ بدايات حياته:

«. . . كنا زملاء فى كلية الآداب، التحقنا بها معاً فى العام الدراسى ١٩٣٦/ ١٩٣٧، وكان عبد الرحمن بالنسبة إلينا على شىء من اليسار والغنى، يسكن شقة مستقلة من حجرتين فى الجيزة، وأثاثها طيب، وجذوره من أسيوط من بنى سند، وكان بيننا هادئاً وديعاً، لا تحس أنه ينطوى على عنف أو شدة، ولكن ظروفه الصحية كانت سيئة، وظهر أنه يعانى من روماتيزم فى القلب، ولم يستطع بصحته هذه أن يتابع دراسته معنا فى الكلية، فأصبح موظفا فى وزارة الزراعة، واستقر فى مسكن من مساكن الأوقاف أمام مسجد السلطان أبو العلا، ومعه أحد أقاربه «عم

فهمى»، ثم استقل بالمسكن بعد ذلك».

«ما فائدة هذه التفاصيل؟».

«إنسان يعانى من مرض القلب، فكيف يكون مسئولاً عن نظام يحتاج إلى مرور على محافظات مصر، وإشراف على تدريب، ورحلات خلوية بعيدة عن العمران، لا تصل أخبارها إلى سمع الحكومة، وفيها أصوات طلقات التدريب أو القنابل اليدوية؟!!».

«وكيف تحول صحته دون متابعة الدراسة، ثم تساعده علىّ الإشراف على هذا الجهاز الخطير، الذى يحتاج إلى أعلى درجات اللياقة البدنية والفكرية؟».

«كان الوضع بالنسبة إلى عبد الرحمن «عمليا» لا يزيد [على] انتحار تدريجى».

«لقد تزوج مرة أخرى [هكذا يقول الدكتور عبد العزيز كامل، ويبدو أن فقرة قصيرة أو أكثر قد حذفت من هذه المذكرات] والحجب، ولكن كنت أحس دائماً أن هذه الصورة غير منطقية، ولا يمكن أن تؤدى إلى نتائج منطقية».

«ولازلت أذكر مرة كنت أزوره، وكان عنده الأستاذ المرشد، وعبد الرحمن بيننا فى سريره، ولفائف القطن تصنع قميصا له، وهو ينظر إلى المرشد قريباً بعيداً: قريباً بجسمه، بعيداً بعينه، وكانت عيناه ـ حتى فى صمته ـ [تبدوان] كأن عليهما طبقة رقيقة من زجاج سحابى، فإذا مرض أحسست أنه ينظر إليك من وراء ستار شفاف، تحسه ولا تراه».

«ورقاه الأستاذ ودعا له بخير، وأوصاه بصحته وقبله فى جبهته، وخرجنا معاً، كانت صحة عبد الرحمن تتراوح بين الإقبال والإدبار، ولكنى كنت دائماً أشعر أنه يشعل شمعة حياته من طرفيها، وأن أحكامه محكومة بصحته».

«وإذا ما كانت هذه الصحة فى مطالع الأربعينيات قادرة على الاستجابة لتكوين النظام، فإن شعوره أنه يتلقى التوجيهات مباشرة من المرشد، وأن له مكانة ليست لبعض أعضاء مكتب الإرشاد، بل شعوره أن ترتيبه فى النظام سابق لترتيب الأعضاء المتضمنين فيه، كل هذا كانت لا تنضبط معه قوامة الرجل «للجهاز»، فما بالك بِمَنْ لا يعرفون شيئاً، ويستجيبون للأمر مباشرة، ثقة فى المرشد شخصياً».

هكذا نرى عبد العزيز كامل وقد أطال فى وصف المشكلة الصحية فى تكوين عبد الرحمن السندى، ثم مس المشكلة السياسية والتنظيمية مساً رقيقاً لا يتناسب مع تأثير هاتين المشكلتين (السياسية والتنظيمية) على حركة الإخوان المسلمين كلها، وربما أضاء الدكتور عبد العزيز كامل هذا الجانب فى جزء مفقود من مذكراته

(٢٦)

ويروى الدكتور عبد العزيز كامل فى هذه المذكرات استنكاره لطريقة البيعة التى كانت جماعة الإخوان تأخذ بها، وهو يروى أنه هو نفسه تعرض لهذه التجربة وأن الذى أخذ البيعة عليه كان هو الأستاذ صالح عشماوى، وأن ذلك كان فى ١٩٤٣، وهو يحار فيما يشخص به أصل هذه البيعة، لكنه يلمح إلى أنها ربما كانت متأثرة إلى حد ما بتأثير الماسونية، وهى نقطة ذكية

لم يسبقه إليها أحد على حد ما أعلم:

«. . . ثم يأمرون واحداً واحداً بالدخول إلى غـرفة مظلمة، لا يُرى فيها أحد ، ويجلسـه صاحبـه على الأرض بعد خطوات محـددة، ويمد يده إلى حيـث يوجد مـصحف ومـسدس، وتمتـد يد أخرى هى يد ممثل المرشـد فى البيـعة، ويبايعه على السـمع والطاعة والكتمان، دون أن يرى وجـهه، إنما يسمع صوته، ويلمس يده فقط».

«أذكـر هذا الموقف حين كنت أنا فى الـبيـعة، ولم يكن الصـوت غريبـاً عنى، فقلت له مباشرة وسط الظلام:

«ما هذا يا أستـاذ صالح؟! وهل من الإسلام أن أضع يدى فى يد مَنْ لا أعـرف، ثم إنى أعـرفك من صـوتك، وأتحـدث مـعك كل يوم!! مـا هذه الأساليب التى أدخلتموها على عملنا، ولا أساس لها من ديننا؟!».

«ورد الأستـاذ صالح عشمـاوى حينها، وكـان وقتئذ عـضواً فى مكتب الإرشاد ورئيس تحرير مجلة الإخوان: هذا نظامنا».

«قالها دون أن يذكر اسمه، أو يحاول أن يقدم تفسيراً لما نفعله».

وهو ينتقد هذا النظام ويقول صراحة:

«بل تستطيع القول: إن هذا الأسلوب كان أقرب إلى النظام الماسونى، أو الجماعـات السرية التى أفرزتها عهود التـآمر، منها إلى عهود الصـفاء والنقاء الإسلامى الأول».

«لقد قيل هذا كله فى التـحقيقات، ولم يحـذف اسم وأضيئت الأنوار،

وظهر المسرح كله، ولم يكن الإخوان بحاجة إلى هذا، بل إن هذا الأسلوب كان له إفرازه الخارق الذى ترك ندوباً غائرة على أديم العمل الإسلامى».

. . . .

هكذا يقول الدكتور عبد العزيز كامل بعد فوات الأوان.

(٢٧)

ولا تقف انتقادات عبد العزيز كامل للإخوان المسلمين عند هذا الحد، بل إنه فى هذه المذكرات يستنكر بشدة ووضوح شديد موقف الشيخ حسن البنا بعد مقتل النقراشى حين أصدر بيانه الشهير المعروف فى الأوساط التاريخية السياسية بمقولة «ليسوا إخوانا وليسوا مسلمين» ويقول بكل وضوح:

«. . . وتصدر عنه بعد مصرع النقراشى وثيقته الخطيرة: «ليسوا إخواناً وليسوا مسلمين».

«ورب قائل يقول: إن هذا كله تم عن تراض وتشاور بين الأستاذ وبين الذين قاموا بهذا الأمر؟ ولكنه دفاع أهون منه الإدانة، والوقوف إلى جوار المسئولية، أو على الأقل عدم إدانة مَنْ قام بالأمر بأنه ليس أخاً، وهذه تهون، (!!) وليس مسلماً».

«والإسلام واضح فى هذا الموقف، وحديث الرسول بين أيدينا: «مَنْ قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما».

. . . .

هكذا ينتبه عبد العزيز كامل بحس دقيق إلى خطورة ما كان فى هذا التصريح من الأستاذ المرشد، لكنه مع هذا كان فيما يبدو من حديثه كان عاجزاً تماماً عن أن يحول مجرى الأحداث.

(٢٨)

وتلقى مذكرات الدكتور عبد العزيز كامل بعض الأضواء على الجوانب الفكرية فى تنظيم الإخوان المسلمين، وهو على سبيل المثال يشير بدقة وإفاضة إلى محاولة الإخوان الإفادة من فكر الأستاذ محمود شاكر، ومن العجيب أن نرى أن هذا الأستاذ الفذ وقد أدرك بثاقب نظره، وبعقليته المبصرة مواطن الخطر فى تكوين الإخوان ونبه إلى هذه المواطن، لكن المشكلة التى نعرفها هى أن طبيعة مثل هذه التنظيمات لا تدرك مدى ما تحفل به نصائح المفكرين الكبار المخلصين من قيمة ومن فهم لمجريات الأمور فى السياسة.

ومن المهم أن نقرأ فى البداية ملامح التعريف الذى يقدم به الدكتور عبد العزيز كامل للحديث عن تجربته مع الأستاذ محمود شاكر، وتجربة الأستاذ مع الإخوان:

«. . . والأستاذ شاكر علم من أعلام فكرنا المعاصر، له قراءاته العريضة والعميقة، وإنتاجه الأدبى، ونظراته النافذة، وهو من أسرة ورثت حب الإسلام والعمل العلمى له. كان والده الشيخ محمد شاكر وكيلاً للأزهر الشريف، وعمل فترة فى السودان، وأخوه الأكبر هو العالم الجليل الشيخ أحمد محمد شاكر، ولمحمود إنتاجه الإسلامى، المشترك والخاص، تحقيقاً وتأليفا».

«وفى محمـود غيرة على الإسلام واللغـة العربية شديدة، دافقـة، تشتد أحيـاناً كفيضـان النهر فى صعيـد مصر حيث نشـأ، فلا تعترف بجسور ولا سـدود، وتسـرى فى عـروقـه من دم يصل به إلى بيـت النبـوة، وله خطه الفكرى الذى يفرضه على حياته، ويعيش به، مدافعاً عنه، لا أقول كأنه فى معركة، فهـو فى معركة فعلاً مرفوعة الأعلام، أسلحـتها كل ما فى قلبه من طاقة وإيمان، وما فى عقله من طاقة وفكر، ومـا فى لسانه من طاقة تعبير، قادرة على أن تكون عبيراً أو رجوماً».

«وقضـية اللغة العـربية كمـحور، والحضـارة الإسلامية كـمدار، قضـية جوهرية عنده».

«ألا إنما العربية اللسان»، والله تعالى: «خلق الإنسان علمه البيان».

«وقد قضيت أياماً وأياماً أسمع من محمود شاكر».

«كان وقتئذ يسكن فى شارع السـباق فى مصر الجديدة، فى سكن مرتفع تطل منه على الخضرة الكـاسية الممتدة، والبيت كـله كتب لا تكاد ترى منها الحوائط فى حـجرة المعيـشة، وحجـرة المكتب على يسار الداخل، وحـجرة الطعـام المجاورة، وجـزء من حـجرة النوم المقـابلة، كـتب من الأرض إلى السقف، أمهات الكتب العربية، لغة وأدبا وتاريخا، كتب المستشرقين، كتب عن الاستعـمار والتاريخ الأوروبى، مجمـوعات من المجلات، ولكن تحس وراء هذا نظاماً دقيقـاً صارماً، فلا تكاد يده تخطئ مرجعاً، وإذا فتـحته فلا تكاد تقلب إلا أقل الصفحات حتى تصل إلى بغيتها».

(٢٩)

ثم ينطلق عبـد العزيز كامل إلى الحديث عن تجـربته فى إشراك مـحمود

شاكـر فى تثقـيف شبان الإخـوان المسلمين، ومـا أصاب هذه التـجربة من فشل، وهو يصف اللقـاء الأول بين محمود شـاكر وشباب الإخـوان وصفاً تفصيلياً دقيقاً:

«وحاولنا أن نمهد لهذا بزيارة محمود لبعض معسكرات الإخوان الرياضية الثقافية، وأذكر منها وقتئذ معسكراً فى حلوان:

«وجاء مـحمود كـأنما يكتشف عـالماً غريباً، أعـجب بنشاطهم وأخـلاقهم وانتظامهم وصلاتهم، وعندمـا دُعى إلى الحديث أطال النظر إليهم، ولازال هذا المنظر عالقاً بذهنى».

«كان جالساً على الأرض مـحتبياً، يلبس قميصاً أبـيض وسروالاً صدفياً، جمع شـعره بمنديل أبيض، لحـيته تـغطى الجانب الأكبـر من وجهـه، عيناه تبرقان تحت منظاره، هو ينظر وهم ينظرون، ثم انفجر ضاحكاً».

«ونظر بعـضهم إلى بعض، وسـرت الابتسـامة إلى وجـوههم مخـتلطة بالدهشة، ما هذا الإنسان الغريب الذى يدعى إلى الحديث فى الدين فينفجر ضاحكاً فى وجوههم بعد صمت طويل؟!!».

«وقطع دهشتهم بقوله: أنت تذكروننى بأمرين: صلابة أصحاب العقائد، والمحكوم عليهم بالسجن المؤبد من مجرمى ليمان طرة، رجال العصابات فى الصعيد عندنا، أولاد الليل الذين لا يعرفون الخوف، ما رأيت نظراتكم هذه إلا عند أولاد الليل فى الصعيد».

«هكذا تبدأ معهم يا محمود؟!».

«وبدأ بشرح موقف هؤلاء من السلطة الحاكمة، ومن العائلات الباغية، وعطفهم على الفقراء، الشهامة التى بينهم، وأن هذه بقية بقيت من أخلاق الرجال طردتها الحياة الرخوة إلى الجبال، فعاشت فى صراع مع المجتمع، والذى يأخذ طريق التغيير ليس السجن منه ببعيد».

(٣٠)

ويلفت الدكتور عبد العزيز كامل النظر إلى اختلاف المقاربات التى قدمها محمود شاكر للقضايا التى كانت تشغل بال الشباب المسلم فى ذلك الوقت، وهو على سبيل المثال يلخص لنا بذكاء شديد موقف محمود شاكر من النظرة المتحيزة ضد عصر الجاهلية، وهى النظرة التى تسقط كثيراً من قيم العروبة نفسها، والعرب أنفسهم:

«ثم عاد إلى الحديث عن اللغة العربية، وكان على محمود (شاكر) أن يبدأ بالعرب قبل الإسلام باعتبارهم المعدن الذى اختاره الله ليقوم فيه خاتم الأديان، وليبعث فيه خاتم النبيين».

«وفرق كبير بين هذا التناول وبين اعتبار ما قبل الإسلام مجرد «جاهلية» بالمفهوم الساذج لهذه الكلمة».

«وأخذ يدرس لهم عاداً الأولى، وقوله تعالى: «وأنه أهلك عاداً الأولى» كما درس عاداً الثانية التى ذكرها الله فى قوله تعالى: «ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد».

«ثم درس لهم ثمود وديارهم ونبيهم صالحا!» عليه السلام».

«وانتقل إلى دراسة طسم وجديس والعماليق ووبار وجرهم، وبعد دراسة العرب العاربة انتقل إلى دراسة العرب المستعربة، عدنان وقحطان».

«وحضرت من هذا درسين، وكنت أنظر إلى شبان الإخوان، والقليل منهم متقبل لذلك، وأكثرهم عنه غير راض».

(٣١)

ويصل الدكتور عبد العزيز كامل إلى تشخيص الخلاف الذى كان لابد أن يحدث بين محمود شاكر (من ناحية) وشباب الإخوان (من ناحية أخرى)، ويبدو لنا بوضوح أن عبد العزيز كامل استعار شخصية محمود شاكر وقصته مع الإخوان ليعبر بها عن مشكلته هو شخصياً مع هؤلاء الذين كان ينبغى أن يسمعوا له ويطيعوه وهو الأمين العام للإخوان، لكنه على نحو ما نفهم من حديثه فشل فى ممارسة ما كان ينبغى أن يكون له من سلطات فى هذه المسئولية:

«. . . الموضوع يحتاج إلى حصر ذهن وإلى أصالة، النفس فى الدراسة طويل، والاستشهادات فوق مستوى الكثير منهم، الجلسة فى ذاتها على الأرض غير مريحة، طريقة تعاملهم مع محمود وتعامله معهم لم تكن مما ألفوا، فأخذ يضيق بهم ويضيقون به، وناقشوه فى أمر الإخوان، فوجد فى أكثرهم ضحالة فوجئ بها، وتعصباً لا يستند إلى دليل، وسرعة إلى النتائج دون تثبت، وازداد الجو توتراً، وبدأ ينفر من بعض تصرفاتهم، ومن تصرفات الإخوان فى الفترة السابقة، واشتد الحوار، وارتفعت حرارته، ورأوا فيه عدم احترام لقياداتهم، واستخفافاً بجهودهم، وتخطئة لمنهجهم، ورأى فيهم صوراً فى التعصب الضيق، والإسراع بالحكم على الناس ولو

بالكفر واستباحة الدم».

«وفى يوم اشتد غضبه، وضاق بهم ذرعاً، وقالها فى عنف باتر:

«الذى يريد أن يتعلم منى، أو يتناقش معى، فليترك ما فى رأسه مع حذائه الذى يخلعه عندما يدخل بيتى».

«وكانت هذه الفاصلة بينهم وبينه».

«وذهبت إليه بعدها فوجدت فيه الغضب والحزن».

«كانت الدموع فى عينيه وهو يحس الخطر المحدق الذى ينحدر إليه الإخوان، وخاصة فى موضوع الدم».

«لقد دافعوا أمامه عن الإخوان فيما نسب إليهم من حوادث، النسف أو القتل، واعتبروا هؤلاء معتدين على الإسلام يستحقون القتل».

«هكذا تحكمون على الناس بالكفر؟ تحكمون.. مَنْ أنتم؟ وهل يعطى الإسلام أى مسلم الحق فى دم أخيه لأى سبب؟ وأين تذهب أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم: «لايزال المسلم فى فسحة من دينه ما لم يصب دماً حراماً»، «كل المسلم على المسلم حرام، دمه وعرضه وماله».

(٣٢)

ونعود لنعبر عن اعتقادنا فى أن هذا الحديث الذى استعار فيه عبد العزيز كامل شخصية محمود شاكر وموقفه يدلنا دلالة قاطعة على موطن شكواه هو، أى شكوى عبد العزيز كامل، ضد تنظيم الإخوان وما آل إليه فى ظل نجاحه السريع وتكاثر أعضائه وأعداده، وانطلاقهم فى سبيل الجماعة إلى

حيث كانوا يتمنون لوطنهم الخير دون أن يدروا أن المسألة أعقد من هذا بكثير.

وهو يروى أنه كان حريصا على أن يستفيد بما أتاحته له التجربة فى السودان حين تقابل مع التخطيط الاستعمارى وجها لوجه، وأدرك أن العناية بالعلم أجدى من ذلك الحماس الذى يصفه بصراحة بأنه «التسطيح» الذى مضت إليه تجربة الإخوان المسلمين رغم أنفها، وهو يعبر عن هذه المعانى بصراحة فيقول:

«أحسست عملياً فى السودان - كان وقتئذ يمر بفترة الانتقال الحرجة بين سنتى ١٩٥٣ و١٩٥٦ - بأن الشباك التى نصبها الاستعمار للعالم الإسلامى ليست بهذه الدرجة من البساطة والضحالة التى قد تصورها الخطب الحماسية الجماهيرية، وأن جهوداً دائبة قام بها بناة إمبراطوريات أخلصوا لأهدافهم، وسعوا إليها بكل وسيلة، وأن هذه الجهود متواصلة يكمل بعضها بعضاً . . .، وأن الجهاز الاستعمارى على درجة عالية من الكفاءة والتنظيم، التنظيم الذى ينبغى أن يتوفر فى أى عمل ناجح، بقطع النظر عن الميزان الأخلاقى الذى يوزن به هذا العمل».

□

ويعترف عبد العزيز كامل أنه كان قد أصبح محل انتقاد من الإخوان بسبب حرصه على التمسك بنمط معين من التريث والتثبت قبل العمل:

«ولقد كنت كثيراً ما أدعو إخوانى وأبنائى إلى العناية بالعلم، والمنهجية والتخطيط الطويل، حتى أصبحت هذه - وآسفا أقولها - مثار دعابة، قد

تصل أحياناً إلى شيء يقترب من السخرية المهذبة، إن كان في السخرية تهذيب!!».

(٣٣)

ويزيدنا عبد العزيز كامل إطلاعاً على موقفه «الجديد» من حركة الإخوان المسلمين وما وصلت إليه من حماس يفتقد الروية، ويقول بكل صراحة:

«أخذت أستعيد الخطب العريضة الرنانة، والقوالب المحفوظة، التى يستطيع بها الخطيب أن يحدد أماكن الهتاف والتكبير، كأنها تمثيلية معادة، أخذت أستعيد التبسيط والتسطيح لقضايا الحياة، وقضايا الإسلام، حتى كأن الإخوان أصبحوا يمتلكون المفاتيح السحرية لحل قضايا العصر».

«قضايا الاقتصاد تحل فى كلمات».

«قضايا الاجتماع فى كلمات».

«المشكلة السياسية فى كلمات».

«الشورى. . فى كلمات».

هكذا بكل بساطة يمكن أن تحل قضايا الحياة!!».

«واستطاع هذا التبسيط أن يجتذب الكثير من الشباب، وكان مرتبطا ـ وهذه نقطة القوة ـ بالتزام أخلاقى، كان هو العاصم من شرور كثيرة».

«والالتزام الأخلاقى حين يستقر يصبح به الفرد صورة حية لدينه، بقدر تمسكه بالدين، وقدرته على تطبيقه فى قضايا الحياة».

«وهذا البناء الأخلاقى الضخم، كان معرضاً ـ أخطر ما يكون التعرض ـ لسطحية القرارات التى يمكن اتخاذها».

«ومادام حل مشكلات الحياة ممكناً بهذه السهولة، فما الذى يحول دون أن يكون اتخاذ القرار سريعاً وسهلاً؟! وليكن بعد هذا ما يكون، فإننا على الحق وعين الله ترعانا».

«ولقد كان من الأعراف الفكرية عند الإخوان، أن يد الله ـ التى ترعاهم ـ قادرة على أن تحول خطأ تصرفهم إلى صواب: نسير إلى خطأ، فإذا برحمة الله تتداركنا فتتحول إلى صواب، نقصد أمراً فتوجهنا عناية الله إلى غيره، هكذا كنت أسمع، وسمع كثيرون غيرى من الأستاذ البنا.. رحمه الله، فإذا كان ذلك كذلك، فلا داعى لتضييع كثير من الوقت والجهد فى تقليب القرار، والدراسة العميقة المتأنية لملابساته، فإننا إذا أخطأنا تكفلت عناية الله بإصلاح هذا الخطأ!!».

....

ويكرر الدكتور عبد العزيز كامل انتقاده لهذا النهج الفكرى ويقول:

«ولم أكن فى قرارة نفسى، ولا فى منهج تفكيرى أؤمن بذلك».

«وإنما أؤمن بأن علىّ أن أبذل الجهد الملائم لطبيعة العصر الذى أنا فيه، ودراسة أحواله وظروفه داخلية وخارجية، وألا أتعجل الزمن فى مثل هذه القضايا الكبيرة، وأن أفصل بين عمر الفرد، وعمر الدين».

«عدت فإذا بالجو بين الإخوان والثورة قد ازداد توترا».

(٣٤)

ويروى الدكتـور عبد العزيز كـامل أن تجربة الاعتـقال المبكر فى ١٩٥٤ كانت قد دعته إلى أن يفكر بعمق فى دفع الإخـوان إلى الهجرة خارج مصر قبل أن تطوْلهم موجة اعـتقال تالية على نحو ما حـدث بالفعل، وهو فخور بأن يذكر أن الذين استجابوا لنصيحته هذه قد أدركوا نجاحاً ونجاة، على حين لم يقدر له هو نفسه مثل هذا النجاح.

ومن الجـدير بالإشـارة أن نرى صواب ودقـة فـهم هذا الرجل الواضح لطبيعة الصراع بين رجال الثورة والإخوان:

«وأحسست فـجوة تأخذ فى الاتساع بين مـا فى ذهنى من مناهج تفكير، وبين ما أجده حولى من بعض قادة الإخوان، وإن كان الشباب، خاصة ممن عاشوا معى فى قسم الأسر، أكثر استجابة لهذه التطورات من غيرهـم».

«من أجل ذلك كـان أول مـا نصـحـتـهم به، عندمـا تحـسنت الظروف واسـتطعنا أن نتلاقى، أن أدعـوهم إلى الهـجرة من مـصر إذا قـدر الله لنا الخروج من هذه المحنة، وكان إحساسى أن الاعتقال الصغير هذا كان تجربة، ومحاولة أجهضـتها أحداث أكبر من رجال الثورة، وسيـعودون إليها مع قوة كبـيرة مـنهم، أو خطأ كبـير منا، فـصراع القـوة لا يحتـمل وجود الـثورة والإخـوان كقـوى متـوازية أو متـوازنة أو متـعايشـة، ولا يمكن أن تكون الكلمـة العليـا إلا لصاحـب القوة فى الموقـف، وتجارب الماضى وأحـداث الحاضر تبـين أن قوة الإخوان إلى تفكك، ومن الخير أن يتـحولوا إلى مادة ذائبة لهـا طعمـها الذى تعطيـه للسائل دون أن ترى، مادة سـكرية فى ماء، والماء شفاف، ولكن له حلاوته وعذوبته».

«وحين خرجنا فى مارس (أى مـارس ١٩٥٤)، بادر عدد غير قليل منهم إلى الهجـرة، وانتشـروا فى الأرض: فى السعودية، وفى الخـليج، وكونوا أنفسهـم علمياً واجتمـاعياً، وأصبـحوا يشغلون مناصب قيـادية، وأخلصوا لدينهم وللأقطار التى آوتهم، وكانوا نماذج كريمـة للعمل الإسلامى العالمى، الذى يحفظ الولاء للعـقيدة والوطن، ويجازى الوفـاء بالوفاء، وكرم الإيواء بالتفانى فى العمل والإنتاج».

«وعندما لـقيتـهم فى مهـاجرهم بعد عـشرين عـاماً، كانوا شـخصـيات ناضجة، لكل منهم ذاتيته، ومقوماته، وتجربته، واختفى الطابع النمطى من حـياتهم، وهو الذى كـانت تتقـارب بهـا شخـصيـاتهم عقليـاً، وأصحـبت علاقاتهم ـ فيـما بينهم وبين أنفسهم، وفيـما بينهم وبين الناس ـ تقوم على أسس سليمة من الإسلام، والتقييم العادل للأفراد والجهود».

«وبقى البـعض على مـا كان عليـه، والبـعض زادته الأيام استـمـساكـاً بأسلوب عـقلى عاش به فيـما مـضى، ومبادئ وسلوك عـاش به فى ظرف تاريخى سابق، كان يجد نفـسه فيما يستمـسك به، ولا يطيق نقدا لتاريخه، إلا فى أضيق الحدود، وهو أمـيل إلى معرفة أخطاء غيره من مـعرفة أخطاء نفسه».

(٣٥)

وعلى عكس ما هو شائع من أن الجماعة الإسـلامية فى الهند كانت أكثر تطرفاً أو يسـارية من الإخوان المسلمـين، فإن عـبد العزيز كـامل يروى من الوقائع والتحليل ما يدلل به على أن هذه الجمـاعة نصحت الإخوان بتجنب الصدام مع حكومة الثورة(!!):

«وزارنى صديق أخبرنى أن مولانا ظفر الأنصارى فى القاهرة، ويود مقابلتى، وظفر أحد المقربين من مولانا أبو الأعلى المودودى أمير الجماعة الإسلامية فى شبه القارة الهندية الباكستانية».

«ماذا يريد ظفر الإنصارى فى القاهرة؟».

«سبق أن تلاقينا أكثر من مرة فى منزله فى بندر رود فى كراتشى، وكان هذا فى أبريل عام ١٩٥٢، ولقيت عنده مولانا المودودى فى جلستين طويلتين».

«وتلاقينا فى منزل السيد السفير عمر بهاء الدين الأميرى، وكان وقتئذ فى كراتشى رافضاً العودة إلى سوريا موطنه».

«وأخبرنى أنه يحمل رسالة من المودودى إلى الهضيبى، وحددنا موعداً وذهبنا إلى الأستاذ المرشد فى منزله فى رفقة الأستاذ صالح عشماوى زميلى فى رحلة باكستان (أبريل ١٩٥٢)».

«وكانت رسالة المودودى تدور على محور واحد: ألا يصطدم الإخوان بالحكومة بكل طريقة وبأى ثمن، ذلك لأن الجماعة الإسلامية وقتئذ كانت تخوض تجربة قاسية مع حكومة باكستان، زعماؤها فى السجن، نشاطها تحت قيود، ومن الممكن أن يستطيع الإخوان ـ إذا كانوا فى عافية ـ أن يقدموا عوناً للجماعة الإسلامية تستطيع به، أو يكون على الأقل مساعداً لها على اجتياز محنتها، وإذا ما دخل الإخوان صراعاً مع الحكومة ـ فى ظل

هذه الظروف ـ لم تستطع الجماعة الإسلامية أن تتلقى منهم أى عون أدبى أو مادى».

«كان حديث ظفر الأنصارى على هذا المستوى الإسلامى العام، كان يأمل أن يكون هناك تعاون بين الجماعات الإسلامية الكبيرة، ولم يكن هناك وقتئذ فيما أعلم أقوى فى العمل الإسلامى من الإخوان المسلمين فى القطاع العربى، والجماعة الإسلامية فى القطاع غير العربى».

«صحيح أن هناك خلافاً جوهرياً فى أساليب عمل كل من الجماعتين، وإن كان المنطلق الأساسى لها هو الإسلام، ولقد كانت الصلة بين الإخوان والجماعة الإسلامية من القضايا التى شغلت الإخوان وهم فى السجون منذ أواخر عام ١٩٤٨ إلى أن أفرجت عنهم الثورة بعد قيامها، كما كانت مثار حوار تشتد درجة حرارته أحياناً فى المعتقلات وما بعدها من المحاضرات وجلسات الحوار، واستمرت ذيوله حتى التحقيقات بعد حوادث أكتوبر سنة ١٩٥٤، واستمرت بعد هذا أيضا».

(٣٦)

ومن الطبيعى فى مثل هذه المذكرات أن يظهر تأثر صاحبها ببعض السلف الصالح، ومن الجدير بالذكر أن ابن حزم يأتى فى مقدمة مَنْ يثنى عليهم عبد العزيز كامل، وهو يتحدث عن أسباب إعجابه به فيقول:

«. . . وأحببت فى ابن حزم وضوح أسلوبه، وقوة حجته، وتنظيمه العقلى، وسعة إحاطته، وكنت أضيق بعنفه وشدة هجومه على مخالفيه،

ومن المحلى صحبت ابن حزم فى رحلات عقلية أخرى فى «الإحكام فى أصول الأحكام»، وفصول من «الفصل فى الملل والأهواء والنحل»، وكنت أعجب كيف يجمع بين هذا الجد كله وبين المقدرة على كتابة مؤلف مثل «طوق الحمامة» فى الحب ولأحوال المحبين، ويؤكد فيه مع سعة إحاطته، طهارة ذيله، واستقامة أخلاقه، ويشهد الله على ذلك. هذا الوزير العالم الفقيه الشاعر، المتمكن من الأديان والمذاهب المقارنة، عاشق المحبرة والقلم وسهر الليالى على مصباح العلم».

«ما الذى يدعوه إلى هذا الجهد كله إلا إيمانه وحبه للعلم، وما يرشفه من سعادة».

«واقرأ تاريخ حياته، وكيف أحاطته الأحقاد حتى دفع به بعيدا عن موقعه، وكيف جمعوا كتبه وأحرقوها، هذه التى نبحث عنها بشغف وشوق، ولم ينج من النار إلا بعضها».

(٣٧)

ونأتى إلى الحديث الذى تضمنته هذه المذكرات عن بعض الشخصيات المصرية التى قدر لعبد العزيز كامل أن يقترب منها، ومن الجدير بالذكر أننا نراه يظهر اعتزازاً عميقاً بأحمد حسين وبتاريخه ولقائه معه فى المعتقل، وهو يتحدث عنه وعن لقائه به، وعن إفادته من فكره وتجربته حديثاً طويلاً نقتطف منه قوله:

«. . . لقد أعطى المجتمعُ المصرى - فى بعض فتراته - تكريماً كبيراً لما

يكتبه أحمد حسين، واستمع إليه الآلاف والآلاف، ورأى الرجل شمس مجده فى ضحاها وفى علاها، وحاول أن يمسكها فى أوجها، ولكن الفلك الدوار لا يتوقف عند أحد، ودخلت الميدان قوى جديدة شابة وعنيفة، كما حاصرت الرجل فى مسيرته زوابع وصيحات، وزاحمته مناكب، فكان عليه أن يلتمس جانب الطريق، ففى وسطه تيار لا يرحم».

«لقيت أحمد حسين فى هذه الفترة التى اضطرته فيها الأحداث إلى التزام جانب الطريق».

....

وهو على سبيل المثال يلخص نصائح هذا الرجل المجرب فيما يتعلق بالإضرابات داخل السجون، فينقل على لسانه ما أورده له فى أحد حواراته حيث قال:

«... الإضراب له أصول، أنت حين تضرب ينبغى أن تتناول أول الأمر مادة ملينة، حتى تفرغ بطنك تماماً مما فيها، ذلك لأن الطعام يطرد الطعام، أما إذا ملأت بطنك، وبقيت بعد ذلك صائماً، فقد يتخمر الطعام فى بطنك، ويصعب على جسمك إخراجه، ويسبب لك أذى».

«وحين تضرب عليك بعد هذا أن تستحم جيداً، وأن تنظف نفسك، وتلبس ملابس نظيفة، وأن تنام على مرتبة على الأرض، وإلى جوارك كوب ماء وبعض قطع السكر، ووعاء للبول، كل هذا لتدخر كل جزء من طاقتك، حتى تستطيع الاستمرار أطول مدة ممكنة، فإذا جاء الطعام فاحتفظ

به كاملاً دون أن تتناوله ودون أن ترده، والذى يحدث أن الجندى سيضطر إلى تركه وإخطار المسئول عنه، وهذا يرفع الأمر إلى مَنْ هو أعلى منه، حتى تصل إلى المسئول الذى بيده هذا الأمر، فإذا كان الحسم الكامل من المسئول المحلى، استطعت أن تعرف مقدار السلطة المتاحة له، أما إذا رفع المسئولية إلى مستوى أعلى، وحاول التخلص منك ومن مأزقك، فسيأتى مسئول أكبر، وقد يأتى طبيب، وفى الغالب إذا ما كانت الظروف قريبة من الطبيعية، ستنقل إلى مكان آخر، خوفاً من سريان عدوى الإضراب إلى غيرك، ولا تدخل فى مناقشة مع أحد، ولا تعط أحداً فرصة ليأخذ عليك شيئاً، الصوم عن الأكل، والصوم عن الكلام، وستنخفض حرارتك أولاً، وهذه مرحلة أولى، ثم ترتفع، وهذه مرحلة ثانية، وتأتى بعدها المرحلة الخطرة، وهى الانخفاض والهبوط المستمران».

ويروى الدكتور عبد العزيز كامل أن أحمد حسين نفسه قد طبق هذا الأسلوب فى إضرابه:

«... وانتظر أحمد حسين أياماً حتى هدأ الجو حوله، وبدأ إضرابه الهادئ، كما رسم، ادخر قطعاً من السكر، وسارت الأمور كأنما يقرؤه من لوح الغيب، وما مضت غير أيام قلائل حتى كانت مستويات القيادة تأتى لتنظر إليه، وتخرج ليأتى مستوى أعلى، ثم قال القائد: لتأخذوه من عندنا إلى أى مكان آخر».

(٣٨)

ومن أطرف ما تتضمنه هذه المذكرات ما يلخص به عبد العزيز كامل ما

رواه له الزعيم أحمد حسين عما خرج به من تأمله للتاريخ المصرى ولسلوك المصريين الأذكياء فـى معاملة الطغاة، وهو يقول على لسان أحـمد حسين: «إن المديح الذى يكيله بـعض المصريين لـلدكتـاتور ليس إلا نوعـاً من أنواع العقاب لهؤلاء»:

«. . . إنهم ينتقـمون منه (أى من الدكتاتـور) بالمدح والملق، ويقتلونه بما يلقون عليه من ورد، ويقيدونه بما يـنظمون له من قصائد، كل هذه أغلال، وأسلحة فتك، وهى أسلحة استخدمها المصريون من قديم».

ويمضى عـبد العزيز كـامل فى سرد ما يروى أن أحـمد حسـين حدثه به حيث قال:

«حاول أن تجمع بين ما قيل فى حاكم ظالم قـبل موته وبعده، تجد قصة تتكرر عبر التاريخ، إذا عجزوا عن مقاومـته رفعوه، ثم تركوه يسقط حطاماً من أعلى الجبل، بل ارجع إلى الأمثال فى تراثنا الشعبى عن مقاومة الظلم، تجد فيهـا خط المقاومة القصيرة إن كانت ناجـحة، وخط المقاومة عن طريق المدح والملق والرفع المسـتـمـر، ثم تركـه يسـقط من ذروة غـروره، ولكن للأسف: الشـعب هو الذى يدفع الثمن الغـالى، والقلة المنتـفعـة أصبـحوا كجرذان السفينة: يعيشون، ويأكلون أخشابها، ويتركونها إذا آذنت بغرق».

«سيفعلون هذا مع عبد الناصر، وستتكرر القصة».

«وهـم ـ أى رجـال الثورة ـ شـبـاب فى أوائل طموحـهم، تعـودوا على إعطاء الأوامر وتلقى الأوامر، وتنظيم الحياة العامة فى خطوط وتشكيلات،

وستقاسى أمتنا كثيراً من الطوابير فى مرافق حياتها(!!)».

ومن العجيب أن نبوءات أحمد حسين فيما يتعلق بعبد الناصر وفيما يتعلق بإدارة شئون مصر قد تحققت حرفياً.

(٣٩)

وفى مقابل إعجاب عبد العزيز كامل بحسن البنا، وتقديره لعبقرية ابن حزم، ونقله لآراء أحمد حسين، نراه حريصاً على أن يتأمل أغوار شخصية كان لها القدح المعلى فى تعذيب الإخوان المسلمين وغيرهم من المعارضين فى العهد الناصرى، وهى شخصية حمزة البسيونى، ومن الجدير بالذكر أننا نقلنا فى كتابنا «فى رحاب العدالة» رؤية فتحى رضوان المندهشة أمام شخصية حمزة البسيونى، وها نحن بعد أن نقلنا ما نقلناه فى كتابنا وعلقنا عليه وظننا أن الأمر فى تصوير شخصية حمزة البسيونى قد وصل إلى حدود قصوى من التناقض.

ها نحن نجد أمام أعيننا نصوصاً جديدة جاءت فى كتاب عبد العزيز كامل (الذى لم يكن قد نشر حتى حين انتهينا من تجارب كتابنا) لا تقف عند حد إدانة الرجل ولا النظام، لكنها تدلف بنا إلى عالم النفس البشرية الواسع العجيب.

يصور عبد العزيز كامل يوم دخوله السجن الحربى.. فى نوفمبر ١٩٥٤ تصويراً دقيقاً، وهو يجعل مدخله إلى هذا التصوير أن يتحدث عن حمزة البسيونى دون أن يذكر اسمه فى البداية وهو يصفه على عادة الروائيين المحدثين فيقول :

«خرج من حـجرته حـاسر الرأس، ثائر الـشعر، فى خـطوات متثـاقلة، وانحناء قليل».

«الوجه أبـيض ممتلئ، فيـه أثر جرح قديـم، العيون داكـنة متناقـضة مع الشعـر الرمادى الباهت، أنف مدبـب تحته شارب عـريض، كأنه من الجنود الألبان الذين صـاحبوا محمـد على باشا، رقبة غليظة تكاد تخـتفى مع ذقنه المترهل المزدوج».

(٤٠)

ونمضى بعد هذه الصفات الظاهرية التى ذكرها عبد العزيز كامل إلى تحليل جسمى/ نفسى لشخصية حمزة البسيونى يصعب على كثيرين أن يتصوروا أن معتـقلا يعانى المشقـة والذعر يمكن أن يفكر فيـه على هذا النحو من هدوء البال، واستحضار العلم، وحكمة النظر:

«. . . استرعى نظرى ضيق كتفيـه، إذا ما قورن بضخامة أردافه وبطنه، جسم نسـائى فيـه سمنة ملحوظـة، وتكوين ناقص يحاول أن يسـتره بنظرة مفترسة».

«تصـورته فى لحظة مخلوقـاً يجـمع بين الوحشـية والذكـورة والأنوثة، لاشك فى أنه يعـانى هذا النقص والتناقض حـين ينظر إلى نفـسه فى مـرآة حجرته أو مرآة ذاته».

«ولقـد نجح فى أن يكون وحـشـاً، ثم تفوق عـلى الوحوش فـى حبـه للدماء، وفشل فى أن يكون غير ذلك».

«وكان الجو مشمساً، ودار بيننا هذا الحوار:

«اسمك ؟».

«عبد العزيز كامل».

«أين تعمل ؟».

«جامعة القاهرة، معهد الدراسات الإفريقية ؟».

«كم عدد الشهادات العالية التى حصلت عليها ؟».

«ثلاث».

«ودارت عيناه قليلاً، ثم قال: انظر.. الجو جميل».

«ونظرت إلى حيث نظر، فوجدت آلة التعذيب: العروسة، يربط فيها الفرد بسيور جلدية من يديه ورجليه، وفيها فتحة لرأسه، هكذا يسمونها فى مصر، كأن السجين يزف إليها فى يوم من أيام العمر قد يتكرر».

«ثم تابع حديثه: تستطيع تخلع الجاكتة.. اخلع!!».

«وخلعتها فى هدوء، ووضعتها على يدى الأخرى».

«وعادت عيناه تنظران إلى وجهى فى تحديق وعنف ثم قال: ثلاث شهادات عالية!!».

«وفى لمح البصر ارتفعت يده اليمنى وهوت كالمطرقة على وجهى، وقد

ضاقت عيناه فى وحـشية، وصدى صوته فـيه فحيح الثعـبان، وهو يقول: هذه لشهادتك العالية الأولى».

«وارتفعت يده بلطمة أخرى قائلا: وهذه لشهادتك العالية الثانية».

«وعادت يده اليمنى لتنهال بضربة مدوية قائلا: وهذه لشهادتك الثالثة».

«ماذا بعد؟ الله أعلم.. وتحملت الضربات الثلاث فى هدوء، وحاولت جـهدى ألا يبـدو أى شىء على وجـهى، بينما قـطع السواد تدور أمـامى، وأحس وسطها وجهه كأنه يتحرك وحوله شرارات شيطانية».

«واندفع قائلا: أنا سأربيكم يابتـوع الجامعة، سأربيكم كـما ربيت توفيق الشاوى».

«إذاً توفيق الأستاذ بكلية الحقوق قد سبقنى على الطريق، واجتاز مراحل من هذه التربية».

«ثم نظر إلى جندى قريـب لم أكن أشعر حتى بـوجوده فى هذه اللحظة قائلا: خذه إلى السجن الكبير.. بسرعة.. اجرى».

«وفى يد الجندى سـوط كانت مجـرد رؤياه كافيـة لأن أجرى بأقـصى ما أستطيع من سرعة نحو السجن الكبير».

«وصرخ الجندى قائلا: قل أنا عائشة، قل أنا خديجة، قل أنا فاطمة».

....

. . . .

وعلى القارئ الذى لا يمـانع أن يعذب نفسه بما عذبت بـه نفسى أن يقرأ التفصيـلات بدءا من صفحة ٩٧ فى كتاب مذكرات عـبد العزيز كامل، وكل مـا أستطيع قـوله فى هذا المقـام هو أن أترحم على هؤلاء الذين عـانوا هذا العذاب إذا كـان مجـرد قراءة بعض الوصف لـبعض ما عـانوه يمثـل عذاباً لازلت فزعاً منه.

أدعو الله سبحانه وتعالى ألا يبتلينا بمثل ما نعجز عنه من مثل هذا البلاء.

(٤١)

وهو حـريص على أن يتـأمل فـى حـيـاة هذا الرجل الذى تولى قـيـادة التـعذيب على نحـو فظيع، وهو يروى قصـصا طريـفة عن عـلاقة حـمزة البسـيونى بالكلاب، وكـيف غضب على أحد الكلاب فـحبـسه فى زنزانة، وحبس مـعه من يعنون بأمره ممن تؤهلهم دراسـتهم البيطرية وغيـر البيطرية لهذا، كما يحكى تبديله للكلاب المفضلة، ويمضى فى هذا إلى أن يقول:

«وظلت الكلاب جزءاً من حياته».

«هل كان يفتقد حب الناس؟».

«أعلم أن أكثر من أسرة رفضت زواج ابنتهـا منه خوفاً من بطشه، ولهالة الدم المحيطة به».

«هل كان يحس بهـذه العزلة النفسيـة فيهرب من عالم الإنـسان إلى عالم الحيوان؟!».

«الحيوان الذى لم ينج من بطشه، فكان يجاريه أحياناً بالعقاب، أو يحكم عليه بالسجن.. فى داخل السجن؟!».

«ومع الحيوان.. مَنْ كان أكثر وفاء للآخر: القائد أم الكلاب؟!».

. . . .

هل أحس القارئ مثلى أن عبد العزيز كامل يريد أن يضع عنواناً على وزن عنوان نجيب محفوظ: «اللص والكلاب»؟

(٤٢)

وبعد أن يروى عبد العزيز كامل كثيراً من ملامح شخصية حمزة البسيونى، ومن ملامح التعذيب الذى تولى قيادته فى السجون، فإنه يحرص على أن يضمن كتابه حدثاً وقع فى السبعينات مع أنه لم يبرح الخمسينيات فى كتابه كله، لكنه فيما يبدو كان حريصاً أشد الحرص على أن يصل إلى رواية ما يعتبره أو ما يعنون له على أنه الفصل الأخير من حياة حمزة البسيونى، مشيراً بهذا الفصل إلى مصرع حمزة البسيونى فى حادث من حوادث المرور الفظيعة:

«... كان [أى حمزة البسيونى] يقود سيارته فى الطريق الزراعى بين القاهرة والإسكندرية، الخضرة على الجانبين، الأفق أزرق، تلتقى عنده حدود النظر بحدود الأرض والسماء، الشمس تسطع بأشعتها على أشجار الطريق، فيصبح الظل والنور سطوراً على صفحة الطريق الممتد، وهو فى سرعته يتخطى ما أمامه من سيارات، فما تعود أن ينتظر أحداً، فى وجهه

هذه القسوة التى عاش بها حتى أصبح أسيراً لها، انتهت أيام مجده الدموى وجبروته، وليالى العذاب التى ذاق فيها الأبرياء من وحشيته ما ترك آثاره على أجسادهم، هذا ما تراه العين، أما الجروح النفسية التى أحدثها فيهم فلا تراها إلا عين الله وحده».

«ويندفع بسيارته، وفجأة يعترضه عائق غير محسوب، فيضطر إلى الانحراف وأمامه سيارة ضخمة محملة بأسياخ من حديد التسليح مائلة نحو الأرض، فتدخل سيارته بينها وتخترق الأسياخ الزجاج الأمامى، وتتجه وهى مائلة كالمخالب نحوه نافذة إلى المقعد وراءه».

«فى لمح البصر تم هذا.. ومضى الرجل».

«السيارة ممزقة كقطعة قماش، لحم الرجل متداخل مع الأسياخ، ويأتى رجال النجدة لجمع قطع اللحم الممزقة».

(٤٣)

على هذا النحو يروى عبد العزيز كامل الحادث قبل أن ينطلق منه إلى تأملاته ويقول:

«وعندما قرأت الحادث، كما قرأه غيرى، توقفت عند وجه الشبه بين أسياخ الحديد والسياط التى كان يستخدمها فى الإيذاء، كلاهما أسمر شديد السمرة، فيه انثناء، فيه قسوة، حتى لم أجد فارقاً بين كتلة من السياط وكتلة من حديد التسليح.. إلا فى الحجم».

«هل تصلبت السياط وأصبحت حديد تسليح؟ هل اجتمعت كل السياط

التى اسـتخـدمـها فى الإيذاء، ووضـعت على عـربة واحـدة، ثم تيبـست واندفعت فى صدره؟».

«اللهم لا شماتة.. ولكن مـا أعجب الميتة! حين ينتـزع الجسم قطعاً من بين أسياخ الحديد، ويجمع ليأخـذ طريقه إلى جوف الأرض، عجيب أمره، كم من الأرواح أزهقهـا، وتولى دفنها فى جنح الليـل، ويكتب أمام الاسم فى أوراق الســجن الحـربى «هارب»، وكـيـف يهـرب السـجـين من هذا السعير؟!!».

«لقى قبل موته أحد أصدقائه، وقـد ضاق به الكثيرون، فكان من قوله: وما ذنبى؟ هل أصـدرت هذه الأوامر، أنا منفـذ، أنا جندى مقـاتل، أمرنى القائد أن أقوم بعمل معين على وجـه معين من أجل سلامة الوطن، فقمت به.. فما ذنبى؟!».

«إنه ظل يبحث عن ذنبه، وظلت دعوات المظلومـين تتجمع حوله، حتى تحولت إلى أسياخ تخترق جسده، ويقيد الحادث قضاء وقدرا».

....

«كانت قـسوته على الـناس أكبر من أن يجـرؤ أحدهم على الـدعاء له، وكانت ميتته أعنف مما يستطيع أحـدهم تصورها نهاية له، عندما يتحول دعاء المظلومين إلى مخـالب من حديد، تتجمع فى عربة واحدة، وتخـرق جسمه فى لحظة واحدة، ويعود التراب إلى التراب، حتى يوم الحساب».

(٤٤)

والواقع أن مذكـرات عبد العـزيز كامل قد قـدمت بعضاً قليـلاً من صور المعاناة التى مر بها صاحب المذكرات فى المعتقلات، وليس بوسعنا أن نلخص ولا أن نقتطف بعض ما رواه الرجل عن هذه الذكريات، لكننا لا نستطيع أن نتجاوز وصفـه لمشاعره الأسيفة وهو يروى قصـة طابور أغنية أم كلثوم حين أجبـر المرشد العـام وزملاؤه فى مكتب الإرشـاد على أن يقفـوا ليؤدوا دور المايسترو لعزف الأغنية، بينما جـموع الإخوان المعتقلين تردد أغنية أم كلثوم التى تهنئ فيها عبد الناصر بنجاته من حادث المنشية:

«. . . ويدور الطابور مـشياً عـادياً، خطوة سريـعة، وحولنا الأسـلحة، وبيننا حملة السـياط، وعلى جانب ساحة العـرض نفر ممن حطمهم المرض، أشباح لا تعرف كيف تقوم على أرجلها».

«ويقف الطابور، وأنظر فأجد الأستاذ المرشد حسن الهضيبى وإلى جواره مَنْ لحق بربه قريباً شهيداً. . ومَنْ ينتظر».

«مَنْ؟ عبـد القادرة عودة، محـمد فرغلى، حـسين كمال الدين، كـمال خليفة، وتذكرت وجوهاً أخرى لم تزر السجن الحربى، ولعلها لن تراه، لقد انشقت أرض الإخوان واتسعت فـيها الأخاديد، كل مجمـوعة، وأحيانا كل فرد، وقد صارت لمصير وسبيل».

«لقد سبق الأستاذ البنا إلى ربه بعد أن شهد بوادر انفراط العقد، وأكلت الدعوة فى عهده بـعض بنيها، وجاء الأستاذ الهضـيبى وبرج الإخوان يزداد

ميلاً، حتى مادت به الأرض، وأعانت عليه معاول من الداخل والخارج».

«هكذا تفرق القادة، بل تفرق مكتب الإرشاد، الحواريون الإثنا عشر أصبحوا أحزاباً وشيعاً، ولله الأمر من قبل ومن بعد».

«وصدرت أوامر القائد فى السجن، فإذا بهؤلاء القادة ينتشرون فى المواقع المحددة لهم، ماذا يريد منهم؟

«سنرى. . .».

«ودار شريط أم كلثوم:

«أجمل أعيادنا المصرية. . بنجاتك يوم المنشية. . ردوا علينا».

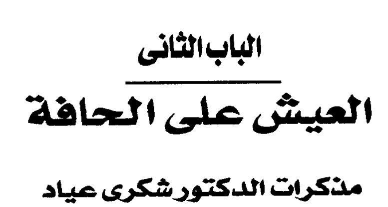
«وتتحرك أيدى أعضاء المكتب، كأن كلا منهم مايسترو فرقة يضبط الإيقاع، ويحرك مع النغم يديه، وتركزت عينى على الشيخ الجليل، وعلى عبد القادر عودة، وهذه الجموع التى طالما قطعت الليل تسبيحا وقرآنا، تكرر وتنشد الأغنية، وقادتها يضبطون الإيقاع».

«وكلما جاء فى الشريط قول أم كلثوم: ردوا علينا ارتفعت الحناجر تكرر البيت الأول من الأغنية. . حتى انتهت».

(٤٥)

بقى أن نشير إلى إحدى الوقائع التى ينفرد بها الدكتور عبد العزيز كامل فى الإشارة إليها، وهى تبرع الأمير محمد على توفيق ولى العهد بمكتبة للإخوان المسلمين:

«. . . حجرة المكتبة بالدور الثانى، هذه المكتبـة التى تبرع بجزء كبير منها سمو الأمير مـحمد على توفيق ولى العهد وقتئـذ، على إثر كلمات طيبة من سليمــان متولـى بك مراقب عام المدارس الأمـيرية، فأرسلهـا مكتبـة كاملة بخـزانات الكتب، وكانت هذه الحـجرة بالذات أقـرب الحجـرات إلى فكرى وقلبى، وكم قضيت فيها الساعات قارئا. . باحثا، أو متحدثا مع أعضاء قسم الأسر».



الباب الثانى

العيش على الحافة

مذكرات الدكتور شكرى عياد

(١)

الدكتور شكـرى عياد أشهر مَنْ أن يعـرف، فهو أكاديمى مـبرز ، وقاص وشاعر وناقد .

ولد الدكتور عبد الفتـاح شكرى (واسمه الأول مّركب وسنعرف السبب فى هذا فيـما يلى من فـقرات) لوالده الشـيخ محـمد عيـاد فى قرية «كـفر شنوان» بالمنوفية، وعاش طفولة قاسيـة، كانت والدته الزوجة الثانية لأبيه، وكان والده أزهريا هاويا للأدب، عمل بالتعليم فى جمعية المساعى المشكورة بالمنوفية، توفى مبكراً.

تلقى شكرى عياد تعليماً تقليديا فى الكتاب، ثم فى المدارس المدنية حيث حصل على البكالوريا من القسم الأدبى، والتحق بالجامعة المصرية، وتخرج فى قـسم اللغة الـعربيـة (١٩٤٠)، ثم حصـل على دبلوم معـهـد التربيـة (١٩٤٢)، وقد علم نفسه بعض اللغـات الأوروبية. وتوافر على تعلم اللغة اليونانية القديمة حتى استطاع أن يتـرجم منها إلى العربية كتاب أرسطو «فن الشعر».

عمل شكرى عياد فى بداية حياته لفترة قصيرة بالتعليم الابتدائى فى مدرسة المساعى المشكورة و بعدها اختير ليعمل محرراً بمجمع اللغة العربية (١٩٤٥)، وحصل على الماجستير (١٩٤٨) برسالة عن «وصف يوم الدين والحساب فى القرآن الكريم»، ثم حصل على الدكتوراه (١٩٥٣) برسالة عن «تحقيق ترجمة حنين بن إسحق لكتاب أرسطو فى فن الشعر» مع ترجمة عربية جديدة، وبعد حصوله على الدكتوراه انضم لهيئة التدريس بقسم اللغة العربية بكلية الآداب جامعة فؤاد الأول (١٩٥٤)، وتدرج حتى أصبح أستاذاً بقسم اللغة العربية (١٩٦٨)، وقد اختير مستشارا ثقافيا لمصر فى سفارة مصر « بريو دى جانيرو » بالبرازيل (سبتمبر ١٩٦٢ - ديسمبر ١٩٦٤) وأشرف على سلسلة المكتبة الثقافية التى أصدرتها هيئة الكتاب ،واختير عميدا لمعهد الفنون المسرحية (١٩٦٩)، وأصبح وكيلا لكلية آداب القاهرة (١٩٧١).

عمل فى عدة جامعات عربية فى الجزائر والسعودية، كما سافر إلى بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة.

(٢)

بدأ الدكتور شكرى عياد حياته السياسية بعضوية جماعة «الخبز والحرية»، وجماعة «أصدقاء الأدب الروسى»، وكان من نجوم الأدب فى جريدة «المصرى»، فى العصر الذى كانت هذه الجريدة بمثابة ميدان لليساريين المصريين من أهل الثقافة والإبداع

كان شكرى عياد تلميذا مخلصا للشيخ أمين الخولى مؤسس جماعة الأمناء، وقد امتدت تلمذته له من الجامعة إلى الحياة الثقافية، وقد انضم

إلى الأمناء، ثم اختير للإشراف على الجماعة (١٩٦٦) بعد وفاة مؤسسها.

وفى أخريات حياته كان شكرى عياد من الذين حاولوا كسر الجمود فى الحياة الثقافية، والانتصار للقيم النبيلة، وقد كون دارا للنشر بعنوان «أصدقاء الكتاب»، وقام بنشر كتبه هو نفسه، وكوّن جماعة «أصداء النداء» من أجل إصدار مجلة جديدة باسم «النداء» وكانت نيته ألا ترتبط هذه المجلة بأية جهة رسمية، وقام بإصدار ثلاثة أعداد تمهيدية، لكن لم يصرح له بإصدار المجلة.

(٣)

كانت للدكتور شكرى عياد صفات شخصية رفيعة، فقد جمع بين صفاء الطبع، وكرم الخلق، والوفاء، والتواضع، والأمانة، والنزاهة، والاستقامة الفكرية، والانحياز للفقراء، وأصحاب الحاجات، وطالبى العلم.

وكان للدكتور شكرى عياد وجود وحضور متصل فى حياتنا الثقافية والفكرية والأدبية.

وفى مجال الإبداع فإنه أصدر ٦ مجموعات قصصية تتميز بقدرات فنية عالية وبمعالجة واعية لواقع مجتمعه وطموحاته، كما أصدر رواية واحدة «طائر الفردوس»، وله مجموعة من القصائد المتميز نظمها فى صدر شبابه وفيها يجمع بين رومانسية عذبة وتفلسف مبدع ومن أهم أعماله الإبداعية سيرته الذاتية العيش على الحافة التى نعرض لها فى هذا الباب، ونحن نعرف أنها لم تحظ حتى الآن بما تستحقه من اهتمام نقدى ودراسى.

نشر الدكتور شكرى عياد عددا من الدراسات الأدبية والنقدية المهمه

منهـا: «البطل فى الأدب والأسـاطيـر» (١٩٥٩)، و«طاغور شـاعـر الحب والسلام» (١٩٦١)، و«مـوسيقى الشـعر العـربى» (١٩٦٨)، و«مدخل إلى علم الأسلوب» (١٩٨٥). «تجارب فـى الأدب والنقد»، و«دائرة الإبداع» ٣ أجزاء، و«اللغة والإبداع»، و«الحضارة العربية»، و«الأدب فى عالم متغير»، و«بين الفلسفة والنقد»، و«أزمة الشعر المعاصر».

أما فى مـجال التـرجمة فـقد ترجم: «اعـتراف منتصف الـليل» لجورج ديهاميل، و«المقامر» لديستـويفسكى، و«البيت والعالم» لطاغور، و«نصوص مخـتارة» لتولستـوى، و«الكاتب وعالمه» لتشـارلز مورجان، و«نحـو تعريف الثقـافة» لتولـستوى. كـما ترجم بعض روايات تورجنيف، ومـقالات «تى. سى. إليـوت» وفى أخريات حـياته أصـدر كتابه « مـصر : نظرات نـحو المستقبل »

ومن كتاباته الدينية «الدين والعلم والمجتمع»، و«تطبيق الشريعة وصياغة الحاضر»، و«نحن والغرب».

نال جـائزة الملك فيـصل للأدب العربى (١٩٩١) كـما نال جـائزة الدولة التقديرية فى الآداب.

(٤)

نجح الدكتـور شكرى عيـاد فى كتابه «العـيش على الحافـة» فى أن يقدم طرازا خاصا مـن السيرة الذاتية التى تتـمتع بسمات فنيـة عالية، كما تـتمتع بطوابع نفسـية ظاهرة، وهو يبدو وكأنه يتـحدث إلى نفسه طيلة حـديثه إلينا حتى إننا لا نستطيع أن نقرر فى وضوح إن كان يقصد أن يتحدث إلينا أم أنه

يقصد أن يتحدث إلى نفسه، بل إننا فى بعض الأحيان لا نستطيع أن نتصور ما إذا كان يحـدثنا بالفعل أم أنه يتظاهر بهذا، ولا نكاد نحكم إن كـان معنيا بمونولوجه الداخلى أكثر من حديثه إلى القارئ، أم أنه على النقيض من هذا يوظف هذا المونولوج الداخلى من أجل ما يريد توصيله إلينا من حديث.

ولا يفتـأ الدكتور شكـرى عياد يوهمنا باقـتدار شديد بكل الـعناصر التى تشكل وتكون حيرته تجاه ما يجب عليه أن يتناوله من موضوعات أو آراء أو ذكريات أو اعترافات فى هذه السيـرة، ويبدو لنا وكأن حيرته لا تقف عند ما يجب عليه أن يتناوله، وما يجب عليه أو ما يسـتحسن له أن يدعه، لكنها ـ أى الحيرة الظاهرة أو المفتعلة ـ تمتد أيضاً إلى ماهية الطريقة التى يستحسن أن يلجأ إليها فى عرض ما يحب أن يعرض من أسرار، أو أن ينتهك من أستار.

وهو يعبر عن هذا المعنى بوضوح حيث يقول:

«أريد أن أحـدثك أيها القـارئ كمـا أحـدث نفسى. . مـا هذا؟ أريد أن أقول: إنى حين أحدثك، حيـنئذ فقط يمكننى أن أصل إلى نفسى. هذا إن اسـتطعت أن أحدثـك بكل الصراحـة، بكل الصـدق الذى أريد. ولماذا لا أفـعل؟ إننى أقف عند الحـافة الحـرجـة بين الكلام والصـمت، بين الحيـاة والموت، أو بين الموت والحياة».

وقبل هذا فإنه يقول:

«. . . لا أريد أن أصنع شيئاً، أريد فقـط أن أظهر كل ما خفى من أمرى وفكرى. هذه كتابة من نوع مختلف، كل كتابة حاولتـها قبل اليوم كان فيها قدر كبير أو صـغير من الصناعة، مهما قلت، تفسـد الكتابة كلها. تجول فى

خيالى صورة ما، فأقول لنفسى: هذا موضوع قصة، أو هذا موضوع رواية أو مسرحية أو قصيدة. أترك الصورة تجذبنى، تأسرنى، ولكنى فى الحقيقة أمكر بها وأخاتلها حتى تقع فى شبكتى. تخطر لى فكرة فأروح أبحث فى الكتب، وأستخرج الأشباه والنظائر، والأسباب والنتائج، والاختلافات والنقائض، وأحكم الاستراتيجيات والتكتيك حتى أوقع الهزيمة بالخصم، وأظفر بتصفيق القارئ. سئمت كل هذا».

(٥)

وقبل هذا وذاك فإن الدكتور شكرى عياد يرى فى كتابه سيرة ذاتية أداء واجباً لحق من حقوق الإبداع عليه، وهو يحس حين شرع فى كتابتها أنه شارف النهاية وأصبح من الواجب عليه أن يؤدى حق هذه الفكرة عليه، وهو الذى سجل من قبل، فى كتب أخرى، أشياء كانت معلقة بين الوجود والعدم:

«. . . أقول لنفسى: ليكن، هأنذا أشرف على نهاية القصة، أمور كثيرة قد حدثت لى ولم أفقه معناها كما ينبغى، وأمور كثيرة كنت أتمنى أن تحدث لكنها لم تحدث. لماذا تبقى هذه وتلك معلقة بين الوجود والعدم؟ لو أننى استطعت أن أحولها إلى كتابة كتلك الكتب التى أخرجتها حتى الآن لما تركتها هكذا كالأرواح الشاردة. فهل أطردها وأنتهى منها؟».

«أحاول ذلك لكن يخالجنى شك أنها ربما كانت أهم من كل شىء قيدته بالكتابة حتى الآن».

(٦)

وتبدو آثار النزعة الأكاديمية غالبة على الدكتور شكرى عياد، وإن كانت هذه النزعة غير قادرة على أن تنحى النزعة الفنية التى يتمتع بها كاتب موهوب ذو خبرة بأساليب الكتابة، ونحن نراه يستلهم باقتدار ونجاح ما وعته ذاكرتاه الأكاديمية والأدبية، فهو «يستحضر» ما وعته ذاكرته «الأكاديمية» من الخصائص الفنية للسير الذاتية، كما أنه «يستلهم» ما وعته ذاكرته «الأدبية» من عوامل الخلود وعوامل الإقناع فيما قرأ من سير ذاتية، وما درس من هذه السير، ومع هذا فإن شكرى عياد لا ينسى أنه فنان وأن عليه أن يضع ما يريد روايته من سيرة ذاتية فى أسلوب خاص به يتميز به عن السابقين بقدر ما تميز هو نفسه، وبقدر ما تميز كفاحه، وبقدر ما تميزت حياته، وبقدر ما تميز إنجازه، وبقدر ما تميز فى أستاذيته، ومن الحق والإنصاف أن نقول إنه كان متميزا فى كل هذه المناحى.

ولهذا فإننا نرى شكرى عياد يتحدث بإخلاص شديد عن بعض المحاولات التى أجهضها من قبل:

«. . . بدأت أدرك الآن لماذا توقفت مرات كثيرة قبل أن أشرع فى كتابة هذه الذكريات. ليس من العدل أن أشغل قرائى بهذه اللعبة التى لن يحصلوا منها على غير التعب. فأنا أعلم أن الكثيرين منهم سيبدأونها طامعين أن يدركوا منها ما لم أدرك، ولن يعرفوا الحقيقة إلا بعد فوات الأوان(!!)، ولن يكون فى استطاعتهم شىء إلا أن يعلموها - بدورهم - لآخرين(!!)، ولكنى أقول لنفسى: أليست هذه اللعبة أحسن أو أقل ضرراً من ألعاب أخرى كثيرة نمارسها دون أن نسأل أنفسنا عن جدواها؟ ما رأيك مثلاً فى

أصحـاب الملايين أو البلايين الذين يكونونهـا ولا يسألون أنفسـهم إن كانت فائدتها تساوى بعض ما اقترفوه فى سبيل جمعها؟ ما رأيك فى أمر الجنس أو المخدرات؟».

«إذاً فلنمارس لعبة الجري وراء ظلالنا ونحن سـعداء، ومع ذلك فما أكثر ما ننسى ظلنا ونحن نجرى. حـقيقة أننا لو افتـقدناه سوف تنخلع قلوبنا من الرعب، ولكننا فى الغالب نجرى وراء أشياء أخرى نسميـها الحياة، وكثيراً ما نتحـدث بشىء من الجرأة عن إنجازاتنـا. بعضنا أيضاً يروى تجـارب الآخرين التى تعجبـه وكأنها تجاربـه الشخصية، وربمـا كان أصحابها الأصلـيون أيضاً كذابين، ومـادام هذا قدرنا ومادمت أستطيع أن أمـسك بالقلم لأكشف لك عن أخفى مـا يدور فى خاطرى عن الحـياة وعن نفسى، فـأغلب الظن أنك سوف تتـسلى بهذا الكلام، فهـو أحسن من أشيـاء كثيـرة يمكن أن تكلفك أكثر، وتمتعك أقل».

(٧)

والحق أيضا أن شكرى عيـاد نجح فى كتابة هذه السيرة المميـزة من حيث أراد النجاح، كمـا أنه نجح فيها من حيث لم يـرد النجاح، أو من حيث لم يتصور بتواضعه هذا النجاح، فقـد أجاد الحديث عما أراد الحديث عنه، كما أجاد إهمال ما أراد تجاهله.. ومع أننا ـ على سـبيل المثال ـ ننظر إلى سيرته حين تنتهى ونتمنى أن تكون قد ضمت حديثا عن علاقاته مع الجنس الآخر، إلا أننا ندرك فى سهولة أن التـجربة التى عاشها لم تهـيئ له من الحياة تلك نسيـجاً أو خامـة كفيلة له بحـديث ذى قيمـة فيمـا يتعلق بهـذا الجانب من حياته، وهو يشرح لنا هذا المعنـى فيما مضى من حياته، وفيـما مضت عليه

حياته، وهو الذى آثر أن يتزوج ابنة خالتـه فى مرحلة مبكرة من حياته دون أن يمر بمراحل العذاب الوجدانى، أو بمراحل الانتشاء العاطفى، أو بما يقابل العذاب والانتشاء على الناحية الأخـرى من شاطئ العواطف والعلاقات بين الذكر والأنثى.

وليس مـعنى هذا أن حيـاة شكرى عـياد قـد مضت دون أن يمـر بأدوار العاطفة التى نحـسها تجاه الجنس الآخر من الإعجاب والانبـهار والاستلطاف والتقدير، فقد حدثنا بما فيه المعـقولية ـ ولا نقول بما فيه الكفاية ـ عن بعض هذه الأدوار أو الأطوار التى حفلت بها حياته.

ومن الإنصاف أن نعترف أن حديثه هذا كان ممتـعا على نحو ما كان وافيا بالغرض الذى خصص له ما خصص من عبارات وفقرات.

(٨)

وإذا جاز لنا أن نقـول إن هناك طابعا واحـدا يغلب على أى سيـرة ذاتية بحيث يمكن تقـسيم السيـر الذاتية على نحو مـا يقسم الشعر إلى شـعر فى الفخر، وشعر فى الغزل، وشعر فى النسيب، وشعر فى الوصف.. إذا جاز هذا ـ وأظنه جائزا ـ فإن لوم النفس هو الطابع المسيطر على مذكرات شكرى عيـاد، وقد تغلب هذا الطابع على مـا قد نظنه ويظنه كـثيرون بمثـابة الطابع المسيطر على هذه السيرة، وهو طابع الاعتراف.

صحيح أن شكرى عياد كان حفيا إلى أقصى الحدود بالاعتراف على نحو اقتـرب فيه من التـعسف مع ذاته، إلا أنه فى اعتـرافه كان حـريصا على أن يقـرن معظم جـزئيـات الاعتـراف بما ينبـغى عليه مـن لوم للنفس على هذا

الموقف أو ذاك مما مر به فى حياته.

والواقع أن اعترافـات شكرى عياد فى هذه السيرة تطالعنا فى صـيغ ذكية تدعو إلى التعاطف مع صاحبها بأكثر مما تدعو إلى النفور منه، أو الاشمئزاز من سلوكه أو رأيه أو موقـفه، وربما أن وصول شكرى عياد باعـترافاته إلى هذه الصيغـة يمثل تحديا لكل مَنْ يريد أن يكتب السيـرة الذاتية الأوابة على نحو ما كتـبها هذا الأستاذ، وعلى نحو ما ضمنهـا هذا الأستاذ من نقد ذاتى لا يتعالى فيه صاحبه على ذاته، ولا عـلى ماضيه، وهذا أمر ربما يبدو سهلاً وربما يبدو ممكنا، لكنه فى كل الأحـوال أمر صعب وإن كان فى حـاجة إلى بعض الشـجاعة.. ومن حـسن الحظ أن شكرى عيـاد لم يؤثر هذا السـبيل السهل، وإنما آثر طريقاً أكثر وعورة لكنه أقصـر مسافة وأصعب مؤونة وأكثر مباشرة، ولهذا فإننا نراه وهو يتعالى فيه على الخطأ أياً ما كان الخطأ، وأياً ما كان شعوره بهذا الخطأ حين ارتكبه. ولعل تصوير الخطأ على مثل هذا النحو الذكى يحتاج إلى براعة عالية، ومقـدرة فنية، وتمكنا من الأسلوب والتعبير، بل إنه يحـتاج تمكناً من الأعـصـاب التى تسيطر علـى القلم وهو يسطر هذا وذاك.. لكن هناك مـا هو أهم من البـراعـة والتمكـن والأعصـاب، وهو الشجاعة الكفيلة بتقـبل تصوير الإنسان نفسه فى المواضع الذى يظنها لم تمر به فى يوم من الأيام، أو فلنقل فى المواضع الـتى يتصورها كـانت بمنأى عنه من قبل ومن بعد.

(٩)

ربما كان من المفيد أن نبدأ مدارستنا لهذه المذكرات بداية غير تقليدية تعمد إلى الوجود الخـارجى الذى عاشه شكرى عـياد وتنسحـب منه (أو تستطرد)

إلى الحديث عن حياته وتجربته فى الحياة:

نرى شكرى عياد يقدم لنا حديثاً ممتعاً عن مكانه ومكان أمثاله فى النظام الجامعى المصرى الذى تكون هو نفسه من خلاله، حين كان هذا النظام لايزال فى فتوته الأولى، وهو يحدثنا عما كان هذا النظام يتيحه من ثقافة وقدرة ووقت، كما أنه يقدم تفصيلات مفيدة لأفكارنا عن هذا النظام الذى كان مأخوذاً به فى أولى جامعاتنا فى البداية المزدهرة من عمرها، وما كان يحفل به هذا النظام من قيم التجويد والتواؤم مع متطلبات المجتمع فى الوقت ذاته:

«. . . كانت السنة الأولى فى كلية الآداب مثيرة وممتعة، بقدر ما كانت الدراسة نفسها سهلة. فقد كانت كليات الجامعة أيامها (جامعة واحدة تسمى الجامعة المصرية، لم ينشأ لها فرع فى الإسكندرية إلا فى أوائل الأربعينيات) كافية لاستيعاب الحاصلين على البكالوريا، دون أن تكتظ المدرجات بالطلاب. كان المتفوقون من القسم العلمى يقبلون فى كليتى الطب والهندسة (كما هى الحال الآن)، تليها كليتا الزراعة والطب البيطرى، ثم كلية التجارة التى كانت تقبل طلاب القسم الأدبى أيضاً، وتبقى كليتا الآداب والحقوق مفتوحتى الأبواب لكل الطلاب الناجحين فى البكالوريا، ولو كانوا حاصلين على أدنى الدرجات. قلة الأعداد كانت تسمح بأن ينتقل الطالب ومعه أوراقه وولى أمره بين الكليات حتى يجد كلية تقبله، فلم يكن الأمر يحتاج إلى مكتب تنسيق».

. . . .

وهو حريص على أن يشير إلى السبب فى سهولة مقررات السنة الأولى

فى كلية الآداب بالنسبة لأمثاله من خريجى القسم الأدبى، وهو ما كان يعنى فرصة أكثر سعة فى الحياة لتزويد النفس الطامحة بحظها من القراءة والثقافة:

«. . . وبما أن كلية الآداب كانت تقبل العلميين، فقد رؤى من الضرورى أن تكون السنة الأولى تمهيدية، وأن يبدأ التخصص من السنة الثانية، ولاتزال هذه القضية موضوع تردد واختلاف بين كليات الآداب التى تكاد تبلغ العشرين الآن».

. . . .

وهو يذكر أنه فى بداية السنة الثانية من سنوات دراساته ألحق بقسم اللغة الإنجليزية، لكنه سرعان ما تركه، على الرغم من أنه كان سيزامل فى هذا القسم مَنْ كان يعتبرها بمثابة النموذج الأمثل للجمال الأنثوى:

«. . . ومضيت أبرمج دراساتى الصيفية كما أشتهى، وسرنى أنى وجدت اسمى فى أول السنة الثانية على رأس الأسماء فى الفصل الأول من قسم اللغة الإنجليزية، ولم أكن كتبته فى الاختيارات، لكن درجتى كانت من أعلى الدرجات، فرشحتنى لهذه الميزة، وأهم ما فيها ـ عندى أنا ـ أن الفصل ذاته كان يضم حسناء الزمان، وحضرت درساً أو درسين على بعد صف أو صفين منها، ثم أدركنى اليأس».

(١٠)

فإذا ما انتقلنا مع شكرى عياد إلى السنوات التى قضاها فى القسم الذى تخصص فيه، وهو قسم اللغة العربية، فإننا نجد مذكرات الرجل الجليل

تقدم لنا نموذجاً روائياً فذاً للحدث الواحد الذى يتكفل تماماً بالتأثير على مستقبل صاحبه، وربما يروعنا أن نرى صاحب هذه المذكرات وهو يدفع ثمن خطأ واحد عدة مرات، ومع أن هذا الخطأ قد يعد فى نظر كثير من القراء بمثابة خطيئة لا تغتفر لارتباطه بشعائر الدين، فإننا نرى شكرى عياد الواعى لمثل هذه الحقيقة غير معنى بأن ينفى عن نفسه الخطأ كلية، وكأنه بهذا الحرص على عدم تبرئة نفسه كلية يضحى من صورة نفسه من أجل الحبكة الروائية فيما يقصه علينا من قصة ذلك الموقف المشئوم الذى جعل أستاذه أحمد الشايب حريصاً على تأديبه وعقابه مرة بعد أخرى بأقصى ما يمكن من عقاب.

وهو يروى كيف تأثرت حياته الجامعية بسلوك أستاذ الأدب العربى الشهير الذى حرمه الأولية والامتياز وأثر فى حياته تأثيراً سلبياً، ومع هذا فإننا نرى صاحب السيرة حريصاً على أن يروى بكل وضوح أنه ظل يحب أستاذه هذا ويقدره:

«. . . أما الأستاذ الذى عرفناه فى السنة الأولى، وبدا أنه الموكل بتوجيه طلاب اللغة العربية فى بداية تخصصهم، فكان الأستاذ أحمد الشايب. إذ كان يدرس لنا تاريخ الأدب، وكانت له محاضرتان، وبدأ فى أول السنة يوزع أبحاثاً على الطلاب فأدركنا أن فى يده درجة أعمال السنة إلى جانب درجة تاريخ الأدب، وكان من سوء حظى أنه رآنى صباح يوم من أيام رمضان، أى أننا كنا فى أوائل العام الدراسى، أشرب كوب ليمون فى محل عصير بميدان العتبة، كان ظهرى إليه، فلم أره و لكن زميلىّ الواقفين فى مواجهتى قالا لى والكوب فى فمى: «الشايب شافك!»، لم أعرف مقدار

هذه المصيبة إلا بعد ذلك حين لاحظت أن الرجل بدأ يعرض عنى، ثم حين أخذ يوزع الأبحاث على الطلاب الباقين فجعلنى آخرهم، واختار لى موضوعا واسعا متشعبا «النسيب فى الشعر الجاهلى»، وكل الطلاب قبلى كانوا يكلفون ببحث شاعر واحد».

«قلت فى نفسى: إن الرجل يتحدانى، يريد أن يعرف قوتى، وعكفت على البحث قراءة وتأملاً وكتابة قرابة ثلاثة أشهر، شغلتنى عن غيره، لكننى لم أهتم لذلك، فالدراسة لاتزال هينة، وإذا جمعت مذكرات الأساتذة كلها، وكانت هى العمدة فى الامتحان على أيامنا أيضاً، لم تتجاوز حجم كتاب متوسط».

«كان بحثى آخر ما ألقى من بحوث، استغرق إلقاؤه المحاضرتين مجتمعتين، وعلق عليه الأستاذ بأن أخذ علىّ أنى لم أقدم للبحث بالتمييز بين النسيب والغزل، ثم استحسن نقطة واحدة فرعية منه، وأعرض عن الباقى، لكن زميلاً عراقياً، أذكره الآن بالخير وأترحم عليه، محمود غناوى الزهيرى، الذى تتلمذ بعد ذلك على الشايب نفسه وأخذ على يديه الدكتوراه، وأصبح عميداً لكلية الآداب فى جامعة بغداد، قال لى بعد أن خرجنا من المحاضرة الثانية: هذا أحسن بحث ألقى فى هذا العام».

(١١)

ويبدأ الدكتور شكرى عياد فى الحديث بطريقة درامية عن تصاعد مأساته مع أستاذه الشايب الذى كان حريصاً حرصاً مطلقاً على الأمانة والنزاهة حتى وهو يعاقب هذا التلميذ الذى ارتكب من الذنوب ما يستحق العقاب، وهو يقول:

«. . . لم أعرف أن الأستاذ الشايب صنفنى كافراً من أول العام، فقرر أن يقصينى عن قسم اللغة العربية إن استطاع، إلا حين رأيت درجاتى فى آخر العام: ١١ من ٢٠ فى أعمال السنة، أى أقل من النسبة المئوية المطلوبة فى المجموع الكلى وهى ستون فى المائة، وإن كان ثلاثون فى المائة كافية للنجاح فى كل مادة على حدة، أما درجة الامتحان التحريرى، فمما يشهد له بالذمة والأمانة أنه لم يعطنى أقل من ١٥، لكن الدرجتين معاً كانتا كافيتين لحرمانى من «الامتياز»، وهكذا أصبحت فى السنتين الثالثة والرابعة طالباً عادياً، مع أن الممتازين كانوا ستة من تسعة عشر طالباً! والحق أن سقوط منزلتى بهذه الصورة كبر علىّ جداً، وفكرت أن أتحول إلى قسم آخر، بادئاً مرة أخرى من السنة الثانية، ولكننى توقعت أن ترفض إدارة الكلية ذلك مادمت ناجحاً، وربما تعزيت بأنى حصلت على أعلى درجتين فى التفسير والبلاغة».

(١٢)

هكذا يصل شكرى عياد إلى الوقوف بين سبيلين لا يدرى أيهما يختار، وهو الذى تعرض منذ بداية الطريق إلى هذه المصادرة على مستقبله الأكاديمى، لكنه كما رأينا يؤثر أن يمضى فى قسم اللغة العربية، وهو يقدم قصته فيما بعد ذلك مع حرص شديد على أن يستغل براعته الفنية فى رسم صورة ذهنية عن أستاذه الشايب لا تكاد تفارق أذهاننا على الإطلاق:

«. . . غرام الأستاذ الشايب بالتصنيف كان أمراً مشهوراً عنه، فمن أحكامه النقدية المقررة والمكررة: إذا جاءنا المتنبى لندخله بين الشعراء نقول له: أمامك باب الخطباء، وإذا جاءنا المعرى نقول له: تفضل من باب

الفلاسفة، وفى تعليقاته الموجزة على بحوث الطلاب فى الشعر الجاهلى كان يقول مثلاً: زهير حكيم، طرفة فتوة. . إلخ. أسألك يارب، بمنك وكرمك، ألا يقف أحمد الشايب بين مالك ورضوان، ويكفينى ما فعله بى فى الدنيا، وأنت يارب أعلم بى إن كنت أفطرت فى ذلك اليوم عامداً أو مضطراً، وما أبرئ نفسى، ولكنى أتذكر أنى فى تلك السنة نفسها تأخرت عن موعد الإفطار بضع دقائق فوجدت أمى تنتظرنى على مائدة الإفطار وهى فى حالة اكتئاب شديد لأنى تأخرت فى هذا اليوم المفترج، ولم أنتظر مدفع الإفطار جالساً بينها وبين الشقيقتين كما ينبغى لرب أسرة يعرف واجباته».

«وأضرع إليك يارباه أن تسكت هذا الشيطان الذى يدمدم فى داخلى: والله لو لقيتك يوماً فى جنة أو فى نار، يا أحمد يا ابن الشايب، لتجدن فى يدى هذا البحث المفقود، ومعه نسخة من كتابى «دائرة الإبداع»، وأخرى من «اللغة والإبداع»، وقد قلت فيهما أحسن ما يمكن أن يقال عنك، ولأدفعن بالجميع فى وجهك قائلا: اقرأ. كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا».

. . . .

هكذا وصل الحال بشكرى عياد فى مواجهة أستاذه الشايب، ومن العجيب أننا نرى حكم الشايب على شكرى عياد قد دفع طه حسين نفسه، بطريقة أوتوماتية، إلى أن يتخذ موقفاً معادياً لشكرى عياد، لا لشىء إلا لأنه كان يريد أن ينتصر لفكرة تميز طلاب أقسام الامتياز حتى لو كان هذا على حساب طالب ممتاز ومتميز حقاً كشكرى عياد.

وسنقرأ فيما يلى، من فقرات شكرى عياد التى نتدارسها، تفصيلات ممتعة عن سلوك هؤلاء الأساتذة الكبار فى مثل هذا الموقف الدرامى.

ونحن نرى طه حسين وهو يمثل، دون أن يدرى، بطلاً من أبطال سيرة حياة شكرى عياد، ونرى هذه العلاقة تبدأ على نحو فيه غرام شديد، فإذا تحولت العلاقة إلى واقع كان فيها ألم شديد، ثم تنضج الخبرة صاحب الذكريات فتجعله ينتصر فى حوار له مع طه حسين. ومن المذهل أن نقرأ لشكرى عياد اعترافاً مذهلاً بأنه كان يتمنى لو كان قد أصبح مثل طه حسين حتى لو فقد بصره.

لنقرأ أول مناسبة ذكرت لطه حسين فى مذكرات شكرى عياد، وهى تبريراته الرومانسية الجميلة لدخوله كلية الآداب بسبب طه حسين:

«. . . ولكننى كنت متلهفاً على دخول كلية الآداب، فلم تكن فيه مشكلة، والمجانية كانت شبه مضمونة، فقد كانت حقاً مكفولاً لمن يحصلون على ٦٥٪ فى شهادة البكالوريا، وكان التجاوز عن نصف درجة فى العهد الوفدى الشعبى، وفى عمادة طه حسين، وبمساعدة الأقرباء الكثيرين الذين أبدوا استعدادهم لمساعدتنا (لم يفعلوا شيئاً فى الحقيقة لأن المجانية فى تلك السنة بالذات نزلت إلى ستين فى المائة أو أقل، وبهذه المناسبة كانت الـ ٦٤,٥٪ تعنى الثانى والخمسين فى ترتيب الناجحين الذين تجاوز عددهم ألفين وخمسمائة فى القسم الأدبى».

. . . .

وبعد خمس عشرة صفحة يتحدث شكرى عياد عن أول مرة رأى فيها طه حسين فى كلية الآداب:

«أول مرة رأينا فـيها طه حـسين أمامنا فى المدرج حـين دخل وفى ذراعه سكرتيره فريد شحاتة، فتوقف المحاضر، وقال طه حسين بفرنسيته المحكمة، وإلقائه الذى لا يعوزه النغم فى عـربية أو فرنسية، ولو كـانت جملة بسيطة كهذه:

LES JEUNES FILLES SANS CHAPEAUX

(الفتيات اللاتى يكشفن رءوسهن)

«لم ينتظر حتى تقف الطالبـات المذنبات، بل اكتفى بهـذا التنبيه، وهمس للأستاذ بكلمات ثم خرج».

(١٤)

ونأتى إلى ما يذكـره شكرى عياد عن مـوقف طه حسين منه فى امتـحان الليسانس وفيما بعد ذلك، وهو يبدأ هذا الحديث مشيراً إلى أنه كان حريصاً على أن يتحدى النظام الذى تحمس له طه حسين وحرمه منه أحمد الشايب، وهو نظام الامتـياز الذى يجعل من حق بعض الطلاب أن يدرسـوا مقررات إضافية فى السنتين الثالثة والرابعة فى مقابل أن يعفوا من الدراسة التمهيدية فى الدراسات العليا، وفضلاً عن هذا تكون درجاتهم العلمية التى يحصلون عليها هى درجة الليسانس الممتازة:

«. . . أضمرت فى نفـسى أن أهزأ بالامتياز ومَنْ اخترعـوه، مضيت فى تثقـيفى الذاتى كمـا يحلو لى، وخصـصت الأسابيع الأخيـرة قبل امتـحان الليســانس للمـقـررات، بعـد أن عـرفـت مـا يريده الأسـاتذة على أوراق الامـتحـان، كان عـددنا صغـيراً، والأرقـام السـرية شيـئاً لم يسـمع به فى

الجامعة، واسمى المجهول يظهر فى لجنة رصد الدرجات وأمامه أعلى درجة فى جميع المواد بدون استثناء، أصبح الأمر معروفاً قبل إعلان النتيجة، صديقى محمود الشنيطى سيكون أول الممتازين (معه طالب واحد فقط، والباقون فقدوا امتيازهم)، ونسبته المئوية حوالى ٧٥٪، وأنا أول العاديين ونسبتى المئوية حوالى ٨٠٪، وسمعنا أن أساتذة القسم دهشوا لهذه المفارقة وبدأوا يتساءلون: ما فائدة الامتياز إذاً؟ ولكن طه حسين لم يوافق على هذه الفكرة، وثبت أن الاقتراح [أى: اقتراح إلغاء نظام الامتياز] طرح فعلاً عندما قال طه حسين للشنيطى فى نهاية امتحان الشفوى: «يريدون أن يلغوا الامتياز؟ أنا أعطيتك درجة جيدة»، أعطاه ١٥ من عشرين، وهو يستحقها فعلاً، وربما أكثر منها، ولكن المشكلة كانت معى أنا».

(١٥)

وهو بعد كل هذا التمهيد يقص قصة المواجهة الأولى بينه وبين طه حسين، ويدلنا على مدى ما يمكن للحب أن يلعبه حين يلجم لسان المرء أن يواجه مَنْ يحبه مكتفياً بالتأمل فى وجه محبوبه:

«. . . دخلت بعد الشنيطى، ولعلنا كنا آخر الممتحنين، كان طه حسين جالساً فى الوسط، وعن يمينه عبد الوهاب عزام، وعن يساره سهير القلماوى، ناولتنى سهير القلماوى جزءاً من شرح الحماسة للتبريزى مفتوحاً وأشارت إلى نص لأقرأه:

ومولى جفت عنه الموالى كأنه ... من البؤس مطلى به القارُ أجربُ

رأمتُ إذا لم ترأم البازل ابنها ... ولم يك فيها للمبسين محلبُ

«قرأت البيتين كيفما اتفق، فقد كنت أنظر إلى طه حسين، والظاهر أن القراءة كانت صحيحة، فإنه لم يعلق عليها، بل سألنى أن أفسرهما».

«لم يكن الشعر الجاهلى غريباً علىّ حتى أحار فى تفسير البيتين، ولكننى بقيت صامتاً أنظر إلى طه حسين، وظلت ابتسامة صفراء على وجهه».

«قالت سهير: الشرح أمامك!».

«وحقاً كان البيتان مشروحين فى النص نفسه، ولكننى كنت أنظر إلى طه حسين».

«هل يمكن أن يخطر بباله أن صبياً ما قال لزميل له وهما جالسان على مقعد خشبى فى محطة أشمون: أتمنى أن أكون مثل طه حسين، ولو فقدت بصرى؟».

«كنت أرى فى وجهه أنه يريدنى أن أسقط، وكانت إرادتى تريد أن تنكسر أمام إرادته، فلم أنطق بكلمة، قال لى: قم!».

«وأعطانى عشرة من عشرين، وارتفعت نسبة الشنيطى الممتاز إلى ٧٥,٥٪، بينما انخفضت نسبتى إلى ٧٥٪».

و«بقى الامتياز».

يريد شكرى عياد أن يقول إن نظام الامتياز الذى كان طه حسين يدافع عن وجوده قد بقى، بينما كان حصول شكرى عياد على ما يستحق كفيلاً بأن يزعزع من وجود هذا النظام الجديد الذى كان لايزال تحت الاختبار.

ونصل مع شكرى عياد إلى الموقف الآخر الذى يرى نفسه فيه وقد أظهر قوته أمام أستاذه الأثير:

«لن يكون هذا آخر العهد بينى وبين أستاذى طه حسين، ولكن هذا الموقف يذكرنى بموقف مشابه عندما حدثوه عن رسالتى للدكتوراه (ربما قبل أن تناقش) وكانت عن كتابه «الشعر الأرسطى»، وكان عبد الرحمن بدوى قد أصدر كتابه «فن الشعر» قبل ذلك بقليل، وفيه ترجمة جديدة للكتاب بقلمه مع حواش كثيرة أتبعها بالنصوص العربية القديمة فى ترجمة كتاب «الشعر وشرحه» ، وقدم لذلك كله بمقدمة ضافية».

«سألنى طه حسين سؤالاً مباشراً:

«أيهما أجود . . عملك أم عمل بدوى؟».

«كنت أعرف منزلة عبد الرحمن بدوى عند طه حسين، وأعرف قيمة عبدالرحمن بدوى، وثقافته الموسوعية، ونشاطه الخصب، ولكننى أعرف أيضاً أنى أنفقت مع كتاب الشعر هذا ثلاث سنوات كاملة، وأنى حاولت فيه ما لم يحاوله عبد الرحمن بدوى، فلم تكن إلا هنيهة قبل أن أجيب:

«عملى».

«كان طه حسين إذا شعر بأهمية شىء استقام جذعه بحركة لا تكاد تلحظ، لمحت هذه الحركة واستبشرت، وتعلمت درساً: لا تضعف أمام أحبابك، إن كانوا يحبونك حقاً فإنهم يريدونك قوياً، حتى أمامهم».

. . . .

وفيما عدا هذه التجارب الشخـصية الخاطفة مع طه حسين، فإننا لا نرى حديثاً مـتوسعاً عن تجـربة طه حسين أو ممارساته، وإنما نـرى هذا الإعجاب الشديد الذى جعل صاحب المذكرات، كـما قدمنا، يتمنى أن يكون مثل طه حسـين حـتى لو فقـد بصره، لكننا مع هذا نجـد لمحة خـاطفة من حـديث للمذكرات عن سـياسة طه حسـين فى التعليم الجامعى من خـلال العمادة، وهى لمحة جميلة بكل المقاييس:

«فيما عـدا اللغة اللاتينية لم تكن مواد الدراسة تحتـاج منى إلى أكثر من قراءة سريعـة، ومع ذلك جاء ترتيبى التاسع من نيف وخمسـين ناجحاً (أى عُشر من تقـدموا للامتـحان على وجه التـقريب)، فقـد كانت سيـاسة طه حسين أن يفتح باب القبول على مـصراعيه، ثم عند الامتحان يكرَم المرء أو يهان».

(١٧)

ويقدم شكرى عياد فى هذه المذكرات أروع نص كتـبه عن أستاذه الحبيب وشيخه أمين الخولى:

«. . . علمنى الصبر على البحث حتى فى أصـغر التفاصيل، والجرأة فى طرح الأسئلة ولو لم يكن ثمـة جواب، وجعل محبـتى للقرآن ممزوجة بكل ما حصلته ووعيـته، وأعطانى مفاتيح البلاغة العربية عـلماً وعملاً، اتخذته أباً، كمـا عرّف أبوة الرأس، فـما قصـر فى أبوتى، أخذنى بالـشدة فى بدء مسـيرتى معه حـتى إذا أنس منى رشداً انبسط مـعى وكشف لى من مكنون

فكره ما لا يودعه عـالم فى كتاب، وكانت مفخـرة عمرى ـ ولا تزال ـ أنى خلفته فى تدريس البلاغة والتفسير فى كلية الآداب».

. . . .

ويتـحدث شكرى عـيـاد فى مذكـراته بحب شـديد عن أستـاذه إبراهيم مصطفى، الذى يعتبره واحداً من اثنين من أساتذة قـسمه كان لهما أكبر الأثر فى حياته:

«. . . لم أكن أعلم أن بين هؤلاء الأساتذة الذين لم أسمع بهم من قبل رجلين سينفعنى علمهـما أكثر من كل ما تعلمت من غيرهمـا، سآكل عيشى به فى الدنيا، وأتقرب إلى الله به فى الآخرة».

وهو يقصد بهذين الرجلين أستاذيه إبراهيم مصطفى، وأمين الخولى.

وهو يصف إبراهيم مصطفى بأنه:

«أستاذ النحـو الذى غرس فى قلبى عشق هذا العلم حـتى أصبحت أراه (ولا تعجب لما أقول) قمة الفلسفة العربية، وقمة الفن العربى».

(١٨)

وهو يتحدث عن الدكـتور الشواربى حديث المتيم بأدبه والتـزامه وقدرته على الإتقان والتأثير :

«وهل أنسى ذلـك الرجل المهـذب الشـديد الالتـزام، إبراهيم أمـين الشواربى، الذى علمنا مبادئ اللغة الفـارسية؟ ولعلك حين تسمع «تدريس مبادئ اللغة» لا تتصور أن القائم بهذا العمل يمكن أن يترك فى نفس المتعلم

أثراً باقيـاً، إلا إذا واصل هذه الدراسة وتخـصص فيهـا، لكن إبراهيم أمين الشواربى كان من الجد والإخلاص والإيمان بقيمة عمله بحيث ألزمنا جميعاً احتـرامه واحتـرام اللغة التى يدرسهـا، وثقافة هذه اللغـة، وكان يدرس لنا ثلاث ساعات فى السنة الثانية، يخصص ساعة منها لتاريخ الثقافة الفارسية، والساعتين البـاقيتين لمبادئ اللغة، وفى السنة الثالثـة يدرس لنا ساعة واحدة لنتعلم مبادئ اللغة الـتركية فى الساعتين الباقيـتين على يدى أستاذ آخر، ثم يواصل مـعنا دراسة اللغـة الفـارسيـة فى نصـوص أدبية ممتـازة، فى السنة الرابعة، إذ تبدل القسمة تكون للغة الفارسية ساعتان وللتركية ساعة واحدة، وعندما وصلت إلى السنة الرابعة كنت أقرأ شعر حافظ الشيرازى مع استعانة يسيرة بترجمة إنجليزية».

وهو يتحدث أيـضاً باعتزاز ومشـاغبة عن أستـاذ التاريخ الدكتور مـحمد مصطفى زيادة:

«. . . درس لنا تاريخ مصر مـن أقدم العصور إلى العصـر الحديث، كان يقرأ من مـذكرة مكتوبة، والطريف أنـه - على ما يبدو - يضع عـلامة على الموضع الذى انتهى إليه، وكان مـغرماً باستعمال «وقـد»، فربما كانت الجملة التالية تبدأ قوله: «وقد»، فيبدأ بها المحاضرة التالية، ولما تكرر ذلك منه جعل الطلاب إذا رأوه يصعد إلى المنصة ويضع الكراسة أمامه يصيحون: «وقد».

(١٩)

ويتحدث شكرى عياد عن أساتذة الفلســفة فى كلية الآداب حديثاً بديعاً، وهو يذكر أنه تلقى الـفلسفة عن ثلاثة أسـاتذة كان لكل منهم محـاضرة فى الأسبـوع، وهو يأسف أن لم يكن هناك أستاذ لعلم الجـمال، مع أنه ، فى

رأيه ، من العلوم الضرورية لمن يدرسون الأدب، وهو يرى أن دراسة علم الجمال كانت أولى من المنطق مثلاً.

وهو يتحدث عن أستاذه الدكتور أبو العلا عفيفى فى لهجة مفعمة بالانتقاد القاسى الذى لا يقف عند حدود العلاقة بينهما فى الجامعة، وإنما يمتد ليشمل كتاباً ألفه ذلك الأستاذ لتلاميذ المرحلة الثانوية ليقول:

«. . . سمعنا أنه حصل على الدكتوراه من لندن فى فلسفة ابن عربى، ولابن عربى فلسفة محترمة فى الجمال، لكن الله رحمه ورحمنا من أن يدرسها لنا أبو العلا عفيفى. فقد كان الرجل يبدو مشمأنطاً بصورة دائمة، لم أره قط يبتسم، ولا ربع ابتسامة، ولا عشر ابتسامة، وكان يدخل المدرج وكأن أحداً يدفعه فى ظهره، ثم يبدأ تأتأة فى قوانين المنطق، وكأن هذا المنطق لا يمكن إلا أن يكون جامداً عابساً مثل وجهه، والحق أن لهذا الرجل قدرة عجيبة على أن يجعلك تكره الفلسفة، وتكره الدنيا كلها، وقد حضرت دروسه فى المنطق، وقرأت كتابه الذى ألفه فيما بعد للمدارس الثانوية، وزعم فى مقدمته أنه قصد به إلى المدرسين لا إلى الطلاب، وكأنه يخوّف الطالب من قراءته، فلم أدر أيهما جنى على الآخر: المنطق على أبو العلا عفيفى، أم أبو العلا عفيفى على المنطق؟».

□

كذلك يتحدث صاحب المذكرات عن الدكتور يوسف كرم حديثاً مقتضباً لا يفى هذا الرجل حقه، وإن كان يعبر عن انطباعات صاحب المذكرات نحوه، وهى انطباعات تقف عند حدود العلاقة بين الأستاذ والتلميذ دون أن تنطلق فى تقييم فضل الأستاذ على التأليف الفلسفى أو الدراسة الفلسفية:

«. . . الساعة الثانية من الساعات الثلاث كانت للفلسفة اليونانية، وكنت قد قرأت «قصة الفلسفة اليونانية» لأحمد أمين وزكى نجيب محمود، وعايشت من خلاله هؤلاء الفلاسفة اليونانيين، ولكن يوسف كرم كان يملك قدرة عجيبة على التلخيص، وكان يقرأ من مذكرة، أو على الأصح يملى، ويقرب المذكرة من عينيه، فأدركت أن له طريقته الخاصة فى معايشة فلاسفة اليونان، وأشفقت عليه من عجزه عن ضبط النظام فى المدرج، وكان إذا اشتدت الجلبة رفع عينيه من مذكرته ونظر إلينا نظرة رواقية بائسة».

(٢٠)

فى مقابل هذا الانتقاد الواضح لأبى العلا عفيفى وفؤاد كرم نرى شكرى عياد يجهر بأن الدكتور إبراهيم بيومى مدكور كان بمثابة الأستاذ الذى أخذ بأيدى طلابه إلى مشكلات الفلسفة، وأنه كان قادراً على السيطرة على تلاميذه، وامتلاك حواسهم، وتقريب الفلسفة من فكر أى إنسان:

«. . . إن لهذا الرجل قدرة نادرة على جعل الفلسفة قريبة من فكر أى إنسان، بل شيئاً ضرورياً كالماء والهواء، لكنه ضن بوقته على الكتابة، وبعثر عمره الطويل فى المناصب، أما حين كان يدرسنا «مشكلات الفلسفة» فى السنة الأولى فى كلية الآداب فكان قد رجع حديثاً من فرنسا بعد أن حصل على دكتوراه الدولة برسالتين، إحداهما عن «منطق أرسطو فى العالم الإسلامى»، والأخرى عن «منزلة الفارابى فى الفلسفة الإسلامية»، وكانت أول مشكلة درسها لنا هى مشكلة «الحياة»، ولا أظنه تجاوزها، لكنها كانت مدخلاً جميلاً لتعريفنا بالفلسفتين المادية والمثالية، وهما كل الفلسفة، وكان

إبراهيم مدكور محاضراً يملك آذان سامعيه قبل عقولهم، ذا صوت واضح رنان، يعرف كيف ينغمه دون تكلف، فيلوّن الطبقات، ويؤكد ما يريد تأكيده من الجمل، وقد درس لنا الفلسفة الإسلامية أيضاً حين انتقلنا إلى السنة الثالثة، وكانت محاضرته تجمع طلاب قسم اللغة العربية وقسم الفلسفة».

ثم يتحدث شكرى عياد حديثاً طريفاً عن أستاذه مدكور وما عُرف عنه من تكرار لبعض محاضراته:

«. . . ولا أدرى هل أؤكد إعجابى به حين أقول إنه كان يكرر المحاضرة أحياناً فى المحاضرة التى تليها، ليفهم مَنْ لم يفهم أولاً، وربما أيضاً لأن فى التكرار ضرباً من التفنن (كما تكرر أم كلثوم فى أغانيها)، أم أطاوع سوء ظنى فأقول إنه يشغل بأمور السياسة والحياة الاجتماعية فينسى أو يؤجل إعداد المحاضرة التالية؟ أى الأمرين كان فإنى لم أره قط ينظر فى ورقة».

(٢١)

ويروى شكرى عياد فى هذه المذكرات ، بطريقة مجملة علاقته بالعمل فى الصحافة، والعمل على نشر كتاباته، وحرصه على ممارسة هواية القص ،واكتساب مهارة الترجمة، ومحاولة الإفادة من أجورها فى تمويل طموحاته، وهو يمزح هذا الحديث بحديثه عن الدراسة ؟ فى كلية الآداب:

«. . . كنت أفكر فى الصحافة الأدبية بالذات، وكانت مجلة «الجامعة» الأسبوعية التى كان لها بعض الرواج لما تنشره من قصص رومانسية، ولشهرة صاحبها محمود كامل المحامى، قد أعلنت عن مسابقة القصة قبل سنة أو أكثر، وأرسلت إليها قصتين ترقبت ظهور إحداهما أسبوعاً بعد

أسبوع حتى يئست، وإن لم أيأس من المجلة نفسها إن استطعت الظهور أمام صاحبها، ورأيت مجلة جديدة اسمها «غريب» على اسم صاحبها محمد على غريب، وكان عبد السلام شهاب زميل خالى عبد الفتاح فى المطرقة قد انتقل إلى دار الهلال. حاولت فى كل هذه الاتجاهات أن أجد عملاً مأجوراً، وكنت أقدم نفسى على أنى قصاص ومترجم، ورست مراكبى خلال سنتى ٣٧ و٣٨ على «الجامعة»، ثم «الرسالة» وابنتها «الرواية»، هاوياً يترقب بطمع أشعبى أن ينقده أحد خمسين قرشاً على قصة مترجمة أو مؤلفة، ثم قرأت خاطرة لتوفيق الحكيم مما كان يكتبه فى «الثقافة» أو «الرسالة» بعنوان «تحت شمس الفكر»، أو «من برجنا العاجى»، ينصح فيها الأديب الناشئ ألا يستعجل النشر، وأن يفرض على نفسه أن يكتب ويمزق ما يكتب مدة عشر سنين على الأقل، قبل أن يعرض ما كتبه على الناس».

«. . . ندمت على ما سلف من تجاسرى، وتهورى، وسوء تقديرى، وقلت آخذ بنصيحة توفيق الحكيم كما أخذت من قبل بنصيحة هيكل [كانت نصيحة الدكتور هيكل باشا تتمثل فى ضرورة إجادة لغة أجنبية على الأقل]، ولاسيما أن الجمع بينهما يمكن أن يكون مفيداً، ومع ذلك فقد حلمت أن أحصل من الترجمة على شىء من المال، وكانت «الفرقة القومية» فى تلك الأيام تقدم أعمالاً مترجمة، والشيخ عبد العزيز البشرى عضواً فى لجنة القراءة، وأخى محمد يعرف عبد العزيز البشرى كما فهمت من ثنايا كلامه، فترجمت مسرحية لجالسورذى، وأخرى لبرنارد شو، وحدثت أخى عنهما فلم أظفر بشىء، وغرقت فى بحور القراءة فلم أكن أكتب إلا قليلاً، وانفذت حكم توفيق الحكيم مع معظم ما كتبته فلم أستبق إلا قصة نشرتها فى مجلة «الراية» سنة ٣٧ أو ٣٨، واحتفظت بها لأنى كنت أحتفظ

بالمجموعـة كلها، ثم سطا على المجمـوعة صديق أود ألا أذكره فاحـتفظت بهذا العـدد بالذات لأنه كان يحـمل قبل قصـتى مباشـرة، أول قصة قـرأتها لنجيب محفوظ، وياله من جوار كريم! أما قصتى نفسها فلم أحترمها، ولم أدخلها فى أى مجمـوعة لى، لكنى أسفت لأنى لم أحتفظ ببحث كـتبته فى تلك السنة نفسها (٣٧ ـ ٣٨)».

وهو يروى بعد ثلاثين صفحة قصة علاقته بمؤلفات طاغور وتشيكوف:

«. . . كنت قـد قرأت فى المجـلات العربيـة أشيـاء عن طاغور، فـقلت لنفـسى: هـذا رجل شـرقى، فلننظـر كـيف يكتب، وبدأت بمجـمـوعـاته القصصية، ثم استـعرت من مكتبة الجامعة مجلداً جمع شـعره ومسرحايته، وبدأت أترجم من قصصه القـصيرة وأقدمها إلى أحمـد حسن الزيات فينشر معظمـها فى «الرواية»، وبعـضهـا فى «الرسالة»، وأعـجبنى شكل القـصة القصيرة، فرحت أقرأ قصص تشيكوف، مجموعة وراء مجموعة».

(٢٢)

ويتحدث شكرى عياد عن تـكوينه الفكرى المبكر بذكاء شديد، وهو يقدم لنا حديثاً مركـزاً يدلنا على مدى ما كانت شخصيـات جيله تتسم به من حظ فى التكوين المتمـيز من خلال قراءة جيـدة، ومصادر كفيلة باسـتنهاض همة الشباب وطموحاته على المدى الطويـل، وهو يشير بكل وضوح إلى الكتاب الشهير الذى ترجمه أحمد فتحى زغلول، وإلى المؤلفات التاريخية التى ألفها حسن جلال، وفخرى أبو السعود، ونقولا حداد، وسلامة موسى:

«. . . ولكن الذى أفادنى أكثر، وساعدنى عـلى اختيار طريقى فى الحياة

أكثر مما ساعدتنى المدرسة الابتدائية سابقاً والثانوية فيما بعد، كان كتاباً عنوانه «سر تقدم الإنجليز السكسون» اسم مترجمه فتحى زغلول، وهذا وحده يجعله مألوفاً لأن كل الناس كانت تعرف اسم سعد زغلول، وكان المؤلف فرنسياً اسمه ديمولان، ولابد أن هذا شوقنى لقراءته أيضاً، فكونك تتكلم عن مزايا ناس آخرين، بدلاً من الكلام عن أمجاد أسلافك الذين راح زمانهم من مئات السنين أو آلاف السنين (هذا شيء كنا نسمعه ونقرؤه منذ الطفولة) أمر يدل على أنك صادق، ويدل فى الوقت نفسه على أنك تريد أن تكون أحسن مما أنت».

وبعد صفحات يتحدث شكرى عياد عن دور المكتبة فى تعليمه، ويصفها بأنها أصبحت مدرسته الثانية، وأنها نجحت فى أن تغذى نزعاته المتعددة:

«. . . سنة بعد سنة أصبحت المكتبة هى مدرستى الثانية التى أتعلم فيها كما أريد، غذيت نزعاتى الثورية المبكرة بقراءة «الثورة الفرنسية»، و«نابليون بونابرت» لحسن جلال، و«الثورة العرابية » لفخرى أبو السعود، و«الاشتراكية» لنقولا حداد، وعن طريق سلامة موسى عرفت نظرية التطور، ونظرية فرويد، وكان كتابه «العقل الباطن» ذا فضل عظيم عليه فى مرحلة المراهقة، وسيأتيك نبأ ذلك بعد حين (وليكن ما يكون)».

(٢٣)

ومع هذا فإن شكرى عياد ينبهنا إلى بعض مظاهر الطابع المرتجل الذى يفرض نفسه على ثقافة قارئ المجلات، وهو ينبهنا إلى هذا المعنى بطريقة ذكية جداً حيث يشير إلى واقعة أثبتت له أن فهم معانى الكلمات بالمنطق قد

يقود إلى أخطاء فادحة:

«... وقبلت فى المدرسة الثانوية بالمجان، ولكنى كنت أمد يدى بكراسة ما إلى مدرس ما، فنظر إلىّ منزعجاً، وراح يتأمل ما بين أصابعى، وما لبث أن أرسلنى إلى طبيب المدرسة، وفى لحظات كانوا قد أرسلونى إلى البيت، فالذى رجعت به من الإسكندرية أو من طنطا ـ لا أدرى، فقد كانت طريقة الحياة والنوم واحدة ـ كان مرضاً جلدياً اسمه «الجرب»، نعم كنت أجرب مثل كلب، وبقيت فى البيت أسبوعين، تسمطنى أمى كل ليلة بالماء الساخن ثم تدهننى بشىء ذا رائحة نفاذه اسمه «كبريت الجمال». الجرب ورائحة كبريت الجمال كانا سببين كافيين لابتعاد الجميع عنى، تأكد ميلى إلى الوحدة، وكانت لذتى الوحيدة هى فقع البثور التى تظهر على ذراعى، ولا أدرى كيف كان الوقت يمر طوال هذين الأسبوعين، كنت قد استلمت كتب المدرسة ولكنى لا أتذكر أنى تشاغلت بها، وفى تلك الأيام لم يكن هناك راديو ولا غيره، ربما كنت أقرأ بعض المجلات، أنا قارئ للمجلات منذ بدأت أفك الخط، البركة فى المجلات التى كان يأتى بها أخى محمود.
أعرف ذلك لغلطة مضحكة ارتكبتها فى درس العربى وأنا فى الثانية، أو على الأكثر فى الثالثة الابتدائية، قرأ المدرس فى كتاب المطالعة: «انخلع فؤاده من الرعب»، وسأل: ما معنى «فؤاده»؟ رفعت اصبعى متحمساً وقلت: «طربوشه»، وأدهشنى أنه لم يقبل هذا الجواب، فقد كنت أرى كثيراً من الصور الكاريكاتيرية التى يرسمها سانتيس (رسام الكاريكاتير الوحيد فى تلك الأيام) يظهر فيها شخص ما فى حالة فزع، وطربوشه مرتفع على رأسه سنتيمترين أو ثلاثة».

(٢٤)

وهو فى هذا السبيل يتحدث عن تأثره المبكر ببعض الآراء التى تتعلق بمناهج تعليم الأدب، وكيف أنه كان يجد فى وجاهة تلك الآراء واقتناعه بها ما يجعله يرددها وكأنها آراؤه هو:

«... مرة كان فتحى المصيلحى جالساً بجانبى على مقعد فى حوش المدرسة، وتكلمنا عن دروس الأدب. كنا لانزال فى تلك السنة الأولى، وأبديت ضيقاً بالشعر الجاهلى الذى كان مقرراً علينا، وانتقدت منهج الأدب لأنه يبدأ بهذه النصوص الصعبة، وكان الأولى أن ندرس فى السنة الأولى نصوصاً حديثة، ونتدرج حتى نصل إلى العصر الجاهلى. بالطبع لم أكن لأجرؤ على إبداء هذا الرأى لو لم أقرأه فى مقالة لدرينى خشبة نشرت فى «المجلة الجديدة»، والحق أنى بدأت أحب الشعر من خلال كتاب «المنتخب من أدب العرب» الذى صرف لنا جزؤه الأول فى تلك السنة، ولكنى أقبلت على شعر صفى الدين الحلى، والشاب الظريف، والبهاء زهير، والجزار، والوراق، إذ كانت أشعارهم مليئة بأنواع الجناس والتورية التى كانت شائعة أيضاً فى أزجالنا العامية».

(٢٥)

وبعد عشر صفحات يصل شكرى عياد إلى بلورة رأيه السلبى فى أساتذة اللغة العربية الذين كانوا مكلفين بتعليمه هذه اللغة فى مراحل التعليم المختلفة فيقول:

«... لا أجد كلمة طيبة واحدة أقولها فى حق أساتذة اللغة العربية، إذا

كنت اليوم قادراً على أن أكتب هذا الكلام فقد فعلوا كل ما فى استطاعتهم لتنفيرى من أى كتابة أو قراءة، لم نكن مطالبين إلا بحفظ الكتب المقررة فى النحو النصوص، والقراءة من كتاب المطالعة المقرر، وكانت حصة المطالعة غالباً بعد الغداء، السادسة أو السابعة، مثل حصة الخط، ونحن نغالب النعاس، وقد تولى أساتذتنا قتل كتابين عظيمين قررا علينا فى السنتين الثانية والثالثة «كليلة ودمنة» و«أدب الدنيا والدين»، ولم يستطيعوا أن يفعلوا شيئاً فى كتاب «المنتخب من أدب العرب»، إذ كان حجم المقرر فيه ضئيلاً فبقى معظمه ملكاً لنا نحن الطلاب، لا يستطيع أن يفسده علينا مدرس سقيم الذوق، ومع ذلك فمازلت أذكر أستاذ السنة الثانية الذى كان يدرس لنا الأدب الأندلسى، وتعبير الإعجاب والانتشاء على ملامح وجهه الصفراوى وهو ينشدنا هذا البيت لشاعر أندلسى ما:

وتحت البراقع مقلوبها تدب على ورد خدى ندى

«ورغم إعجابى باللعب على الألفاظ فى أشعارنا المصرية - فصيحة كانت أو عامية - فإنى لم أستطع قط أن أستسيغ صورة العقارب التى تدب على ورد خد المحبوبة.. مسكينة تلك المحبوبة!».

. . . .

وهو يقدم صورة غير نادرة ولا مستغربة لبعض مدرسى اللغة العربية فى ذلك الزمان ممن تربوا على النهج القديم، ولم يكونوا قد تشعوا بعد بأثر طه حسين والعقاد وغيرهما، ولا شوقى والمنفلوطى، ومن الإنصاف أن نذكر أن هذا الأستاذ وقف عند الحد الذى تعلمه ولم يقف ضد الجديد، ذلك أنه وصل إلى «صهاريج اللؤلؤ» التى كانت بمثابة نموذج بارز فى المرحلة التى

تلقى فيها تعليمه:

«أما أستاذنا فى الرابعة والخامسة الأدبيتين، وكان من المفترض أن يعدنا للدراسة العالية، وأن مَنْ يميلون منا إلى اللغة العربية والأدب العربى سيذهبون إلى كلية الآداب حيث طه حسين والآخرون الذين التفوا حوله، فلم يكن يعترف بطه حسين ولا العقاد ولا غيرهما، وحين قال له أحد زملائى إنى كتبت قصة، نفيت هذا الخبر بشدة، فهذا الرجل لم يحدثنا مرة واحدة عن كاتب معاصر، ولاشك أنه كان يعد قراءة المنفلوطى أو مسرحيات شوقى مضيعة للوقت، فكيف لو علم أنى أقلد كتاباً يسمون أنفسهم «المدرسة الحديثة» ويتحدثون عن مذهب «الريالزم»، وأنى أبعث بواكير إنتاجى إلى أحد أفراد هذه الجماعة وهو محمود كامل المحامى، الذى كان يصدر مجلة اسمها «الجامعة»؟ وعندما سألت هذا الأستاذ لأرضيه عن اسم كتاب أدبى قيم يوصينى بقراءته، لم يعرف إلا كتاباً واحداً» عنوانه «صهاريج اللؤلؤ» للسيد توفيق البكرى، يمكنك أنت - أيها القارئ - أن تبحث عنه وتقرأه، أما أنا فقد كفتنى وأشبعتنى عينات صغيرة منه».

وهنا يستطرد شكرى عياد ليقول:

«قارنت هذا الأستاذ بأبى الذى سمى شقيقى الفقيد «أحمد لطفى» وكان يرانى أقرأ «روز اليوسف» فلا يعترض، بل يبدى إعجابه بأسلوب محمد التابعى».

(٢٦)

ويجيد شكرى عياد تصوير بعض الأجواء الاجتماعية التى كانت تميز

الحياة فـى زمن شبابه، وهو يحاول أن يجـد فى هذه الأجواء بعض الملامح المتمـيزة التى يقـدم من خلالهـا صورة موحـية لرغـبة الشبـاب فى الثقـافة الجديدة، واندفاعهم إلى تحقيق هذه الرغبة، وربما كان من حق القارئ علينا أن نجتزئ له بعض مـا يصور هذه الحياة، وذلك من خـلال حديث صاحب المذكرات عن تجربته المفزعة مع سينما شبين الكوم المعروفة بسينما طناش:

« . . . وقد تعودت أن أدخل السـينما ليلة الخميس مـن كل أسبوع (ثمن تذكرة الترسـو قرش صاغ واحد)، كـان المتعصبـون للتعريب أيامهـا يسمون السينما «الصور المتحركة»، والحقيقة أنها لم تكن أكثر من صور متحركة، لا أظن أنى فهـمت فيلماً واحـداً من تلك الأفلام، رغم أن الشاشـة الأصلية كانت مزودة بشاشة صغيرة بجانبها تحمل ترجمة للحوار، وكان العامل الذى يدير الفيلـم ينسى أحياناً فـيكر مسـافة طويلة من الحوار يسـتحيـل تتبعـها، لذلك، ولأن أكثـر المشاهدين كانوا أمـيين أو أشبـاه أميين، فـقد كان فـتوة السينما «حكيم» يقوم بوظيفة الراوى فى أثناء عرض الفيلم».

«عندما كانت السينمـا تعرض فيلماً مصرياً كان الإقبـال يشتد، لكن الأمر كان ينطوى على مـخاطرة بالنسبة لصاحب السـينما، فقد كـان طلبة الزراعة (أى الزراعة المتوسطة)، وهم الطلاب الأكبر سناً، والأشـد قوة، يتجمعون على باب السينما فـى هيئة مَنْ يريدون شراء تذاكر والدخـول من الباب مثل بقية خلق اللـه، لكنهم يصيحون فجـأة: «هجمة! هجمة» وعـند كلمة السر هذه يندفعون فى الداخل».

«كنت - كمـا قلت لك - حديث عهـد بهذه المدينة الظالم أهلهـا، وكانت أول هجمة وآخـر هجمة أشهـدها، وكان الشىء الأقرب احتـمالاً ألا أخرج

منها حياً، فى لحظة وجدت نفسى مـرفوعاً إلى أعلى، كان إحساساً لذيذاً أن تعـوم على بحـر لا تدرى بالضـبط من أيـن جاء، لا يـمكن أن يكون هذا الإحساس اللذيذ قد دام أكثر من بضع ثوان، وشعرت بالأقدام فوقى، برق فى ذهنى خاطر أن الموت أصـبح قريباً جداً، وإذا أنا واقف، ويدان قـويتان تمسكان بذراعى».

(٢٧)

والشاهد أننا لا نكاد نرى شـكرى عياد حريصـاً على أن يفخر بتـفوق أو ألمعية حـققهما فى شبـابه، وقد رأينا أنه بدلاً من أن يشير إلى ترتيبـه المتقدم فى شهادة البكالـوريا، فإنه ذكر أن مجمـوعه كان ٦٤,٥٪ فقط، ثم أردف على استـحيـاء بذكر ترتيبـه المتقـدم على مستـوى هذه الشهـادة، ويبدو لنا بوضوح أن شكرى عياد كان من الثقة بنفـسه إلى الدرجة التى جعلته يبحث عن التـجارب السلبـية والنقـاط التى تقـتضى الاعـتراف ليـسجلهـا فى هذه المذكرات التى تخلو إلـى حد بعيد من الـفخر، ورغم هذا فـإننا نراه يحدثنا حديث الفخر عن أول بحث علمى أعده فى حـياته، وهو بحثه عن النسيب فى الشعر الجاهلى:

«. . . والواقع أنى لو لم أطرح هذا البـحث فى سلة القـمامة أو أتلـفه بطريقة من الطرق عملاً بنصيحة توفـيق الحكيم (يشير الدكتور شكرى عياد إلى نصيـحة توفيق الحكيم للـكتاب بأن يتخلصـوا مما يكتبون فى أول عـشر سنوات من كتـاباتهم) لأحببت أن أنشـره الآن. فقد بدأته بمناقـشة رأى ابن قتيبة فى منهج القصيـدة، وقلت إنه لا يتفق مع معظم الشعر الجاهلى الذى وصلنا، ورجـحت أن القصـائد الطويلة التى سـميت بـالمعلقات كـانت نمطاً

خاصاً من الشعـر، وأن الشعراء أنفسهم كانوا يزيدون فيهـا وينقصون منها، ويحتـمل كذلك أن الرواة جـمعـوا بعض المقطوعات إلى بعض، عـمداً أو خطأ، لاتحـادها فى البـحـر والروى (وهذه هـى النقطة التى اسـتـحـسنهـا الشايب)، وقلت: إن الشعـر الجاهلى كان فى مجـمله شعراً طبيعـياً مرتبطاً بمناسـبـاته، وبناء على ذلك لا يصح الاقـتـصـار فى دراسـة النسـيب على مقـدمات القصائد، ووقـفت وقفة طويلة نوعـاً عند عروة بن حزام الشـاعر العـذرى الذى اختلف الرواة فى كـونه جاهليـاً أو إسلامـياً، ورجـحت أنه جـاهلى، وأن شعـره يعبـر عن حالة الـقلق الروحى التى سرت فى جـزيرة العرب قبيل الإسلام».

(٢٨)

ولا يفتأ شكرى عياد طيلة هذه المذكرات يسخر من نفسه ومن قدراته التى لم تثبت نفسـها، ولم تكتشف من قبل، وهو على سبيل المثـال يتحدث عن مدرس الحساب الذى قدر له أن يدرس على يديه حـديثاً سلبياً، وهو يستغل مهارته الأدبية والمنـطقية فى أن يصور أن تأثيره فى توجيـهه نحو الأدب كان أقـوى من تأثير أسـاتذة اللغة العـربية علـى طول السنين من الابتدائيـة إلى الثانوية، وهو يذكر أن هذا الرجل سد أمامه باب الرياضة بالضبة وبالمفتاح:

«. . . أنا الذى عانيت ما عانيت من هذا الأستـاذ، وتحول مجرى حياتى من عالم رياضى من طبقـة نيوتن أو أينشتاين، إلى أديب لا يساوى شـيئاً، أنا أحق الناس بأن أستغله فى عمل من أعمالى القادمة، وأنا مستعد لمقاضاة أى إنسان يحاول أن يسلبنى هذا الحق».

(٢٩)

وعلى كل الأحوال فـإننا نرى شكرى عياد فى كـثير من فصـول الكتاب يشكك فى قيـمة المعلمين، وفى قـيمة فكرة التـعليم المدرسى المنظم، وهو يقول فى مطلع فصل من الفصول:

«... هل يمكن لأحد أن يعلم أحداً شـيئاً؟ أشك كثيـراً، هناك استثناء واحد: يمكنك أن تعلم شخصا آخر كيف يعمل جهاز معينا، سواء أكان هذا الجهاز لغة، أم أرقاماً، أم لوغاريتمات، أم حاسوبا، فيما عدا ذلك لا يصنع المعلم شيئاً إلا أن يحول بين المرء وعقله، لذلك لا يستغرب أن يكون أحسن التلامـيذ هم الذين يتخرجـون على أيدى أسوأ المدرسين، هكذا يقـال مثلاً عن ابن سـينا، يمكننى أن أقـول بشىء من المجازفـة إن تاريخ التـعليم هو تاريخ محو التعليم».

....

وقبل هذا فإن شكـرى عياد فى الفصل الأول من مذكـراته يحرص على التشكيك فى جـدوى كل من التعليم والتطبـيب على حد سـواء وهو يتسع بهذا المعنى ليشكك فى قيمة الزراعة والصناعة وينطلق إلى الحديث الساخط على فهمنا لمعنى « البركة» :

«... ويتعلم أطفـالنا لأنهم يجلسون بالفـصول، أو تدور مـصانعنا لأن الناس فى الداخل أو الخارج يطلبون ما تنتـجه، أو تنبت حقولنا لأننا نعرف طبيعة تربتها، أو بخواص البذور التى نضعها فيها، وهل تتفاوت أقدار الناس بيننا لأنهم يختلفون فى درجة العلم أو المهارة أو الاجـتهاد، أم تتفاوت لسر

خفى سماه بعضنا «البركة» حتى يخفوا جرائمهم تحت ستار القدرة الإلهية؟ وهل سأل أحدنا نفسه مرة لماذا تظهر القدرة الإلهية فى بلادنا بصورة غير التى تظهر بها عند غيرنا من خلق الله الذين يفكرون ويعملون؟ إذا كان السبب فى هذا هو أنه يحبنا أكثر مما يحبهم فهل يحب أيضاً قذارتنا، وفقرنا، وجهلنا؟ لعل فينا فضيلة واحدة يحبها الله وهى أننا نتشبث بالحياة ما استطعنا، وهو سبحانه مانح الحياة يحب منا أن نتقبل منحتها مهما تكن صورتها، ولكنه منح الحياة أيضاً للسوائم، والكلاب، والسنانير، والوحوش، والحشرات، فهل يحب منا أيضاً أننا ربطنا أنفسنا بهذه المخلوقات منذ أجدادنا الأولين فعبدنا العجل، وابن آوى، والسنور، والبقرة؟ ».

(٣٠)

وعلى الرغم من كثرة انتقادات شكرى عياد لوالده إلا أنه يقف باحترام أمام سيرته التى فرضت عليه هذا الاحترام، وهو يصل فى الاعتراف بهذا المعنى إلى أن يقول:

«.. كانت سيرته كالمسك فى أشمون وما حولها، حتى إن مَنْ يلقانى اليوم من تلاميذه القدامى لا يعرفنى، بعد أن أجهدت نفسى طوال هذه السنين لأكون إنساناً معروفاً، إلا أنى ابن الشيخ محمد عياد، الذى حببهم فى العربية، وكان صوته بتلاوة القرآن يبث الخشوع فى قلوب الأتقياء والعصاة».

....

ومع هذا التقديس للوالد فإن شكرى عياد يعود بعد صفحتين ليقدم

صورة متوازنة لما يراه عيوباً ومزايا فى والده:

«كان أبى رجلاً ديناً، ما فى ذلك شك، لكنه لم يكن متزمتاً، فى وقت من الأوقات كان مواظباً على شرب قدح من البوظة كل يوم، والبوظة، بالمصرى لا بالشامى، نوع من الجعة يصنع من الخبز، أذكر بائعاً كان يمر علينا فى أول منزل سكناه بأشمون، فيملأ قدحين ويتركهما على منضدة أسفل الدار، وكنت أنا صاحب القدح الثانى لأنى استطبت طعمها، ولم ير أبى بأساً بأن يشركنى معه فى شربها، وكنت أعرف من أقوال الناس أن شرب كمية كبيرة من هذه البوظة يسكر كما تسكر الخمر، وكنت أعلم أكثر من هذا أن أبى اعتاد الأفيون زمناً ولم يقلع عنه إلا حين رأى أناساً محترمين يقادون إلى السجن بسببه».

(٣١)

وبعد ثلاثين صفحة من هذا الموضع نرى شكرى عياد يبلور قصة زواج والده من والدته ملخصاً وجهة نظره هو، ووجهة نظر والديه معاً بطريقة بديعة وسريعة ومركزة جداً تنبئ عن كل المتناقضات فى النظر إلى الحقائق الاجتماعية:

«. . . لقد اتجه طموح أبى نحو زيجة ثانية، زيجة يختارها على ذوقه هذه المرة، وكان يعرف أمى، فأبوها ـ جدى لأمى ـ ابن عمته، وقد رآها تشب من طفلة إلى فتاة ناهد، فلما بلغت السادسة عشرة وكان هو يناهز الأربعين، طلبها من ابن العمة، فأعطاها ابن العمة لابن الخال، وقد سمعت تحاورهما حول موضوع زواجه الأول، والظاهر أن أمى، رغم فارق السن، كانت تغار من زوجته الأولى، وكان أبى يزعم لها أنهم زوجوه دون

أن يسألوه رأيه، فكانت تجيبه بأن الأبناء السبعة لم يأتوا من الهواء، فيضطر أن يعتذر بالغريزة البهيمية».

(٣٢)

ونأتى إلى بيت من بيوت القصيد على نحو ما يقال فى مثل هذه المواضع، ذلك أنى لست أستطيع أن أبتلع القسوة التى عامل بها الدكتور شكرى عياد والده الحبيب هذا فى موقف من المواقف التى كان الآباء المصريون يجدون أنفسهم فيها مضطرين إلى اتباع سياسات من تلك التى تنسب إلى الفلاح المصرى الذى تعود على الظلم، والذى تعود على مجابهة هذا الظلم بنوع من أنواع التقية الاجتماعية (لا العقيدية) التى يجدونها ، فى تقديرهم ، ضرورية لمثل هذا الموقف، لكننا نرى شكرى عياد الذى رزق الحس المرهف، والكرامة الإنسانية، واحترام الوالد وتقديره وتقديسه، عاجزاً عن أن يفهم دوافع والده إلى أن يلجأ إلى ما لجأ إليه، ونحن نراه يقف من موقفه أصعب موقف يمكن لابن أن يقفه من والده فى مذكراته، سواء فى ذلك حكمه اللحظى حين حدثت القصة، أو حكمه التالى الذى كتبه فى هذه الذكريات بعد ستين عاماً من وقوع ما وقع، لكننا مع هذا لا نستطيع إلا أن نشيد بقدر الصدق الفنى فى تعبيره عن مشاعره المضطربة.

«يوم واحد سيطرت فيه الغوغائية على جموع الطلبة فاندفعوا إلى معمل الطبيعة والكيمياء وأحرقوه، لم تكن المدرسة تستحق منا ذلك، لم يكن ناظرنا الأستاذ محمود كامل حسن ذلك المربى العظيم يستحق منا ذلك، كانت المظاهرة تتجمع عندما يدق جرس طابور الصباح، وبعد كلمة أو كلمتين من بعض الخطباء لتلخيص الموقف الحاضر والدعوة إلى الخروج فى

مظاهرة، تفتح لنا أبواب المدرسة ونخرج فى سلام».

«ناظرنا الجليل لم يطق البقاء فى المدرسة بعد ذلك الحادث فطلب نقله إلى ديوان الوزارة، لكنه قبل أن يغادرنا قام بعمل أخير رآه واجباً عليه (ربما ليترك المدرسة فى حالة شبه مستقرة) أبلغ عدداً كبيراً من أولياء الأمور أن أبناءهم ممنوعون من الدراسة، ويعدون مفصولين إذا لم يحضر ولى الأمر لمقابلة الناظر، كنت من هؤلاء، وربما كان طلبة «الخامسة أدبى» جميعاً منهم، عدا طالبين أو ثلاثة أعلنوا بصراحة ومن أول الأمر أنهم لا يمكنهم أن يشتركوا معنا، وكانوا يقفون بمعزل عنا، الله أعلم بحالهم، أحدهم - وكنا نرشحه زعيماً لأنه كان فارع الطول، وكان يشترك فى الاسم مع أحد زعماء الحركة الوطنية، لم يدخل الجامعة ووظفه أبوه بالبكالوريا».

«ولكن أبى أنا لماذا فعل بى وبنفسه ما فعله فى ذلك اليوم الأغبر ؟».

«استدعيت إلى حجرة الناظر، وأظننى كنت أعلم أنى سأجد أبى فى انتظارى، ولكنى لم أكن أتخيله بهذا المظهر، كان يلبس جلباباً من الصوف البلدى، أسود اللون حقيقة، لكنه لا يليق بشيخ محترم، كان معلماً، ونادراً ما رأيته عليه، كان هذا أول جزء من التمثيلية التى أعدها، أما الجزء الثانى فتوبيخ لم أع منه شيئاً، صحبه بصفعة تحملتها هذه المرة، لكن الجزء الثالث كان أقوى الأجزاء فى تمثيليته، ومازلت أذكره وكأنى أراه الآن:

«أبى يشد طرفى فتحة جلبابه كأنه يلفت النظر إلى رقة حاله، ويصرخ أمام الجميع: «أنا فقير.. أنا غلبان».

....

ثم يحدثنا شكـرى عياد عن مـوقفه القـاسى تجاه والده بعد هذه الواقـعة فيقول:

«أستطيع أن أغتفر لك كل شىء يا أبـى، إلا أن تهين نفسك، الفقر ليس بعيب، ولا يلزم أن يجعل الإنسان غلبانا».

«لبثنا بعدها أياماً لا يكلمنى ولا أكلمـه، ولا يكاد أحدنا ينظر نحو الآخر ومرة واحـدة، التفت إليـه وهو راقد فى فراشـه كعادتـه وذلك حين رأيت «عصا» قرب الباب، وأحـسب أن نظرتى لم تخل من سخرية، وأحسب أنه خجل من نفسه».

«رغم كل شىء أشـفقت عليك يا أبى، فليس من الـسهل أن يعـتذر أب لابنه، الابن يمكن أن يمـحو خطأه بالاعتـذار، ولكن الاعتـذار ـ حتى إن حدث ـ لا يمحو خطأ الأب».

. . . .

ويصل شكرى عياد فى إحساسه بجرح الكرامة إلى أن يقول:

«كل ما جرى بعد ذلك بينى وبينه لا أذكره حتى وفاته».

«الموت ذلك الغـياب الدائم، يظل حـادثاً لا تهضـمه النفس، ومـوته لم يكن مفاجئاً، وإن بدا كذلك، فقد كنا نتوقعه فى كل نوبة نسهر بجانبه وقلبه يئز أو يدق، كل الفرق أن الموت تخير له وقتاً جميلا».

«احتجت إلى زمن طويل حتى أتعود غيابه، وإلى وقت أطول حتى أتبين

حقيقـة مشاعرى نحوه، لم يكن الحزن لموته، إنما حـزنت، ومازلت حزيناً، لأنه سبقنى بالموت قبل أن أعيد إليه كبرياءه».

(٣٣)

والشاهد أننا نرى شكرى عـياد أميل إلى التجنى فى فـهم وتقدير موقف أسرته الصغيرة من مجمل العـواطف الإنسانية النبيلة، وكأنه لا يكاد يتصور أن الصمت نفـسه يعبر عن الحب، وأن الإخـلاص العميق نفـسه لا يتطلب تعبيراً ولا حديثاً، وأن العواطف المشبوبة كثيراً ما تكون كامنة فى الأعماق، لهذا فإننا نرى شكرى عـياد يتحدث عن غياب العواطف فى أسـرته الصغيرة حديثـاً لا يخلو من بعض التجنى على الذات وعلـى الأسرة، لكنه، والحق يقال، فيما يبدو من حديثه يعتقد بصواب ما يروى، وبصواب ما يفعل:

«. . . لم يكن إظهـار العواطف فى أسرتنـا شيئـاً عادياً، بل كـان إظهار الشدة التى تقتـرب من القسوة أحياناً، معدوداً من حـسن التربية، ولابد أن أمى كانت إنسانة مـعقدة جداً، فقد تزوجـها أبى وهو يناهز الأربعين، وهى بنت ستة عشر، وكانت لها ضرة تكبرها كثيراً، وبقيت أمى ثلاث سنوات لا تحـمل، فتـفاءلت ضـرتهـا بقرب رحـيلهـا، وكانت تأمـر بناتهـا أن يغنين: «ياعروسـة سلم اللى جابـك، شهرين وثلاثـة وترجعى لأصحـابك». هكذا روت لى أمى بعـد أن كبرت وأصـبحت تجـتر بعض ذكـرياتها القـديمة وأنا أسمـع، وقد حـملت أمى مرة ومـرة ومرة ومـرة، لكن ثلاثة من أطفالـها (ذكرين وبنتاً حفظت أسماءهم لكثرة ترديدها: فهمى، وأحمد، وانشراح)، ماتوا قبل أن يجاوزوا الثـانية من العمر، أما الرابع (عبد الفتـاح) فقد عاش حتى بلغ الخامسة ثم لحق بإخوته، وجـئت أنا بعده، فصممت أمى على أن

تسمينى عبد الفتاح، عساها تبرد نارها على عبد الفتاح الأول، لكنها خافت أن يعاقبها الله على عنادها فسمتنى هذا الاسم المزدوج (عبد الفتاح شكرى) وكانت لا تنادينى إلا بالاسم الثانى».

«أعتقد أن الدافع الأقوى فى سلوك هذه السيدة كان العناد والسيطرة، وأنها - ولعلها لم تكن الوحيدة فى هذا بين بنات جنسها، وخصوصا فى ذلك الزمن - لم تعرف تلك العاطفة الرقيقة الراقية التى نسميها «الحب»، ولا تحتاج المرأة أن تحب لكى تتصرف بوحى من غريزة الأمومة، أو لكى تمارس الخضوع لبعلها، ولاشك أن ظروف حياتها - وقد ذكرت بعضها - كان لها بعض الأثر فى ذلك».

(٣٤)

بل إننا نرى شكرى عياد وهو يتحدث عن علاقته بوالدته بعد وفاة والده حديثاً يجمع بين الضجر الشديد من سلطتها، والحرص الواضح على نقدها، وهو يبدأ حديثه عن علاقته بوالدته فى تلك الفترة من مدخل فرويدى، لكنه سرعان ما يتحول عن هذا المدخل ليوجه انتقاداته العنيفة إلى تلك السيدة الحازمة التى أتاحت له تربية مستقيمة صارمة كان يستحقها بحكم ما ركب فيه من نزعات الأدباء والمفكرين المبكرة، ومن العجيب أننا نرى شكرى عياد نفسه وهو يعترف بمدى التسلط الذى كان يمارسه هو نفسه على والدته دون مبرر ظاهر ولا حقيقى:

«... ذلك الرجل فرويد أفسد علينا تفكيرنا فى أمهاتنا. لقد كان يتعامل مع مرضى ولسنا مريضين، لا أنت ولا أنا، نحن نعيش فقط على حافة

المرض، معنى ذلك أننا يـمكننا أن نقول، كمـا قال سوفـوكليس على لسان جوكاستا قبل فرويد بخمسة وعشرين قرنا: إن التفكير فى الزواج من أمهاتنا خـاطر سـخيف، يمكن أن يـحـدث فى الأحـلام، ولكن لا يتـصـور فى الواقع».

«والذى حدث فى الواقع أنى أقمت نفسى مـقام أبى، أقول لأمى مثلا: لا تلبـسى هذا لأنه لا يليق، لماذا تركت خصلة من شـعرك تظهـر من تحت منديل الرأس؟ فـلان هذا شـخص أجنـبى، أنا الذى أقـابله ولا شـأن لك بالموضوع، وكانت - بعنادها المشهور - تتحـدانى فى أحيان كثيرة، فأثور ثورة جارفـة ولا أعرف مـاذا أصنع بها، وهى لا تشـفق علىّ فى غضـبى، حتى أصبـحت أؤمن أنها لا تحـبنى بالمعنى الذى يمكن أن أعـرفه للحب، لكـنها تتملكنى كقطعـة منها، وإن لم نستطع أن نتجنب كلانا الآخـر فكلامنا غالباً حاد متوتر».

....

ثم يصل شكرى عيـاد إلى اتهامات واضـحة لوالدته بأنهـا كانت تريد أن تنتـقص من رجولتـه، ومن قدرته على اتخـاذ القرارات بما فـيهـا القرارات الشخصية التى تمس مستقبله هو:

«من مراقبتى لأحوال هذه السيدة أيقنت أنها تريد، فى أعماق نفسها، أن تخصينى، كانت تراقبنى بدقة حين يضمنا اجتماع عائلى مع قريبات يناهزننى فى السن، وكان الاحتشام واجباً، حتى فى طفولتى، وأعجب من ذلك ما أخبرتنى به إحدى أختىّ من أنها كانت فى أثناء سنوات الجامعة تتنكر بالملاءة

اللف كإحـدى بنات البلد وتخرج إلى شارع الجامـعة تترقب ساعـة خروجى من البوابة (كانت بوابة وحيدة فى ذلك الزمان) لترى: هل أمشى مع بنات؟ كان هذا همها الوحـيد. كانت لديها دائماً حججهـا المعقولة: ألا نشغل عن الدراسة بالجرى وراء البنات، وبعد أن تخرجت وتوظفت أصبح همها مراقبة الجارات، بالإضافة إلى بنات الأسرة، وأصبحت حجتها أننى يجب أن أزوج أختىّ أولاً، ولكننى كنت أعرف أن هذا كله كذب، إنها تريد فى الحقيقة أن تخصينى».

«هل كل الأمهات هكذا؟ لا أدرى صدقنى، أنا أكتب هذا لأنى ـ بالضبط ـ لا أدرى، لم تستطع أمى ـ بالطبع أن تحبسنى فى قمقم، كانت لها غفلات وكانت لى نزوات، ولكننى لـم أهزمها الهزيمـة الساحقـة إلا حين تزوجت بنت أختها، وأصبحت أستطيع أن أدخل بها إلى حجرتنا لنفعل ما يحلو لنا، مع وجود الأم والأختين فى البيت».

(٣٥)

وعلى هذا النمط يمـضى شكرى عيـاد إلى أن يصل بعـد خمس عـشرة صفحة إلى أن يتـحدث عن والدته حديثاً تعلو فيه نبرة النقـد الصريح، كما تعلو فيه رغـبة التعبير عن قـدرته على التشفى والتصدى معـاً: التشفى من مواقفـها الفكرية التى تصل فى تناقضـها إلى الجمع، على حد تعـبيره، بين الوثنية والنسك الشـديد معاً، والتـصدى لرغبتـها فى سيطرتهـا عليه، وهو يقول:

«. . . ربما كـان ذلك وجهـاً آخر لتـمردى عـلى سيطرة أمى التى كـانت

تصلى الفروض فى أوقاتها، وتصوم وتستفتى أبى فى أمور العبادات، لكنها وثنية حتى النخاع، تحرص على حضور مولد السيد البدوى، وتذهب يوم شم النسيم مع نسوة من أهل أشمون إلى ولى بين الحقول يسمينه سيدى الغريب، يستقبلهن خادم الشيخ الذى ينتظر هذا اليوم كل سنة ليأخذ النذور المعتادة، لكن لم يكن هناك إلا الضجة التى تنشأ كلما اجتمع عدد من النساء فى مكان، والكلام عن كرامات الشيخ الغريب».

. . . .

وبعد صفحتين أخريين يتهم شكرى عياد والدته بالحرص على إظهار النصر والبطولة فى قيامها بدورها على نحو متميز، وكأن الحرص والنصر ليسا من حقها:

«. . . كان حرص أمى على إظهار أننا مستورون يعادل حرصها على إظهار بطولتها فى إدارة شئون حياتنا، ولم أكن أجد بأساً بأن أتركها تربح هذه النقطة، لولا أنها كانت تكرر علناً، وتنقل رواية عن الآخرين أيضاً، ويعلم الله إن كانت صادقة أو كاذبة، إننى يجب أن أحفظ جميلها طول العمر».

(٣٦)

وفى مقابل هذا الدلال الذى يمارسه الابن على الأب والأم، فإننا نراه ينهج منهجاً آخر فى معاملة بعض أقاربه الأقربين، وعلى سبيل المثال فإننا نراه يتحدث بحب ممزوج بالإعجاب عن خاله عبد الفتاح شلبى الذى كان زجالاً معروفاً فى جيله، وهو يروى قصة حياة هذا الخال من وجهة نظر

عائلية قد لا تهـمنا فى حد ذاتها لكنها تهمنا من حـيث ينبغى علينا أن نتأمل فى التأثير الذى تركته فى نفس صاحب المذكرات:

«. . . عندما ذهبنا إلى الإسكندرية فى رحلة الصيف (. . . .) كان خالى عبد الفتاح لايزال يعمل مكوجياً، لكنه كان يعبر عن رفضه لهذه المهنة بطول فترات التـعطل (وكنا فى بداية الأزمة الاقتصـادية العالمية ـ سنة ١٩٣١ ـ لا يحتاج الإنســان إلى مجهود كبـير ليبقى متعـطلاً) وهوى الموسيقى، فكانت عنده هارمونيكا لم يلبـث أن باعها، وكان فى الوقت نفـسه ملتحقـاً بمدرسة ليلية لتعليم الفرنسية ولم يصبر عليها طويلاً، وقد بدأ ينظم الزجل وأجلسنى مرة بين زمـلائه الزجالين، ولـيثبت نبـوغى المبكر طلب منى أن أقـرأ زجلاً منشوراً فى مجلة، فـخيبت ظنه بتعثرى المستـمر فى الكلمات لأنى لم أتعلم فى المدرسة قـراءة الأزجال العـامية، سـيذهب بعد ذلك بقلـيل إلى القاهرة ويصبح مـحرراً ثابتاً فى مـجلة «المطرقة» التى كانت وفـدية سليطة اللسان، وسيـرسل إلىّ أعدادها بانتظـام على المدرسة الثـانوية، وسأصبح مـاهراً فى قـراءة الأزجال، لكن الناظر يـستـدعينى ـ وأنا صـبى فى الحـادية عشـرة ـ ويطلب منى أن أمتنع عن الاشتـغال بالسياسة، فأكـتب إلى خالى كى يمتنع عن إرسـال المجلة إلىّ، مؤكـداً له أنى سأواظب على قـراءتها، وأن قـرش تعريفة كل أسبوع ليس بالشىء الكثير على مجلة تنشر أزجاله».

«ولكن أزماته المالية كانت جزءاً من روتين حـياته، أحياناً كان يطب علينا فى شبين الكوم، ولعـله كان يجد صعوبة فى الاقـتراض من أمى، أو يأخذ منها كل ما يمكنه أخـذه، فيستخدم سلطانه علىّ وأعطيـه كل ما معى، ولم يكن يتجاوز فى العادة عشرة قروش، لكنه رد إلىّ ديونه أضـعافاً كثيرة حين كبـرت قليلاً وأصبـحت أقدر جـمال الجسـد الأنثوى، فكان يأتينى بتـذكرة

مجانية لصالة بديعة أو صالة ببا، وحين كبرت أكثر أخذنى إلى غرز الحشيش التى كانت تضم أحياناً بعض الفنانين، وأحياناً بعض المدرسين الإلزاميين».

«فى أثناء الحرب العالمية الثانية ضاق مجال العمل فى الصحافة، فهاجر عبد الفتاح شلبى فترة إلى الحجاز، وكان رائدا فى هجرة الصحفيين المصريين نحو المشرق، لكن ذلك كان قبل انهمار الثروة النفطية، فلم يطل به المقام هناك، واشتغل بعد عودته بتأليف الأغانى، كانت أشهر الأغانى التى كتبها لبديعة صادق: «أحب نجومك ياكابتن، أحب هدومك ياكابتن آه ياكابتن. . . إلخ»، وأغنية أخرى «يامعلم قلبى الحنية، يامعلم روحى بتتكلم، بتقول لك ما تحن عليه، آه يامعلم يامعلم»، لم يكن ذلك انحدار لزجال المطرقة، لكن المحزن أن تغنيه مغنية عظيمة مثل بديعة صادق، التى لم تجد مجالاً للعمل فى غير الصالات، وكان أهم زبائنها من المعلمين الذين اشتغلوا مع الجيش الإنجليزى».

(٣٧)

ونحن نرى حديث شكرى عياد عن خاله الموهوب عبد الفتاح شلبى يمزج العام بالخاص على نحو ذكى، بل إن هذا الحديث يقدم بطريقة فنية جميلة قطعة حية من تاريخ مصر فى الثلاثينيات، وتأثير هذه الحقبة بعد ذلك فى التاريخ الوطنى المعاصر:

«. . . كان عبد الفتاح شلبى من أوائل الزجالين الذين ألفوا الكلمات المناسبة لشخصية شكوكو بطرطوره وعصاه، كما كانت «أخبار اليوم» صاحبة الدور الأكبر فى الدعاية به، ضمن معركتها ضد الوفد (اضحك!) من أوائل

الأغانى المشهورة التى ألفها عبد الفتاح شلبى لشكوكو: «حدرجة بدرجة من كل عين زرجة»، و«من تحت لفوق من فوق لتحت»، أما أشهر أغنية «حمودة يانى» التى يقول فيها شكوكو «إدينى بوسة أنا قد أبوكى ناولينى ناولى ناولى يابنت الجيران»، ويقول قبلها أو بعدها على لسان المحبوبة ونغمات الموسيقى التى تناسب بير السلم: «حمودة يانى أنا سامعة صوت، حمودة يانى أنا خايفة موت»، هذه الأغنية التى بدأت مرحلة جديدة فى تاريخ الغناء المصرى، ولم يلتفت إليها جاك بيرك فى دراسته الأنثروبولوجية العميقة حول هذا الموضوع، هذه الأغنية التاريخية لا يمكننى الجزم باسم مؤلفها، هل هو عبد الفتاح شلبى أو صديقه فتحى قورة؟ على كل حال لم يلبث فتحى قورة أن اكتسح السوق، ولم يبق لعبد الفتاح شلبى إلا محمد طه وأبو دراع».

....

ولا يبخل شكرى عياد علينا بالحديث عن التطور الخطير الذى أصاب حياة عبد الفتاح شلبى:

«ثم حدث الانقلاب الكبير والخطير فى حياة عبد الفتاح شلبى، فقبل وفاته بسنوات قليلة أعلن نفسه شيخ طريقة، وزعم لمريديه أنه تلقى العهد من أبيه الذى كان قد انتقل إلى جوار الله منذ أكثر من عشرين سنة، ولم أسمع قط فى تاريخ الأسرة أنه كان شيخ طريقة، إنما كان شيخ كتّاب كما عرّفتك، وكانت الصلة قد انقطعت أو كادت بينه وبين ولده عبد الفتاح منذ انتقل هذا الأخير إلى الإسكندرية، ولكن الشيخ عبد الفتاح أصبحت له خيمة تنصب فى مولد السيدة ومولد الحسين، وتؤكل بها الفتة واللحم ويقام

أمامها الذكر، وفى هذه الحالة الأخيرة نظم عبد الفتاح شلبى سيرة الرسول زجلاً، ثم صحا لنفسه فنظم «الميثاق» وظفر بمعاش استثنائى نفع أولاده بعد وفاته».

«أهم من كل هذا: أنى لم أسمع من عبد الفتاح شلبى كلمة واحدة، ولا رأيت على وجهه أمارة واحدة تدل على الغل أو الحسد حين يذكر فتحى قورة، وبقيا صديقين إلى أن اختار الموت الأشهر منهما».

(٣٨)

على أن أكثر ما يهم تاريخنا فى هذه المذكرات هو ذلك الحديث الممتع الذى يقدم شكرى عياد من خلاله جوهر نظرته الصائبة إلى تاريخ الوطن المصرى، وذلك من خلال فقرة رائعة يصور فيها سخريته من طريقة تدريس هذا التاريخ وتأليفه ويقول:

«. . . كنت أكرّ ما حفظته بالليل عن بطولة رمسيس فى موقعة مجدو، ولا يخطر ببالى أن الحكاية كلها نخع، وأن أبطال هذه المعركة الحقيقيين كانوا أناساً بسطاء من شعب مصر، مثل أولئك الذين كانوا بعد أربعة آلاف سنة يهجمون على الدبابة ليفجروها بقنبلة يدوية، أو مدفع رشاش، على كل حال التاريخ كان قصة جميلة، لم تتعقد إلا حين تعقدت الأمور بين مارا وروبسبيير ودخل فيها «الزنبقة الحمراء» الذى كان نبيلا إنجليزيا يمثل دور الأبله لكى ينقذ الأرستقراطية الفرنسية المعذبة فى رواية لمؤلفة إنجليزية اسمها « البارونس أوركزى » قررت علينا فى السنة نفسها، وكان أستاذ اللغة الإنجليزية الإيطالى الأصل مستر كاريليو يبغضها أشد البغض، ويسخر من خيالها السقيم، وأسلوبها السوقى، ولا يشير إليها إلا بـ«تلك المرأة».

. . . .

(٣٩)

وسرعان ما يـظهر شكرى عياد عجبـه الشديد من حكاية ما يروى من أن الرئيس عبد الناصر (وهـو لا يذكر اسمه صراحة) بدأ تأليف قصـة استعارها أو تأثر فيها بما فى هذه القصة لكنه لم يكملها فـأجريت مسابقة لإتمام القصة فاز فيها أحد أصدقاء شكرى عياد :

«. . . لكن الروايـة [أى الرواية التى كـــانت مـقـررة فـى ذلك الوقت] أعجـبت زميلنا الذى كان فى ذلك الوقت طالبـاً فى العباسيـة الثانوية بمدينة الإسكندرية، ولم نكن نشعر نحن ولا غيرنا بأن زميلنا هذا سيصبح زعيمنا، وأن الرواية التى لم تعـجب أسـتاذنا الإيطالى الحـاقـد على الأرسـتـقراطيـة الإنجليزية أو الفرنسيـة أو كلتيهما معاً، سـوف تعجب زميلنا هذا الطالب فى مدرسة العباسية، ليستوحى منها رواية أخرى عن معركة رشيد، يسميها «فى سبيل الحـرية»، مع أن الرواية الأصلية كانت ضد الثورة الفـرنسية، لكنه لا يكتب منها إلا بضع صـفحات، وأن هذه الصـفحات سوف تنشـر فى مجلة «آخر ساعة» التى كان يرأس تحريرها محمد حسنين هيكل، وأن صديقنا عبد الرحمن فـهمى سـيتم الرواية ويظفر بجـائزة مقدارهـا خمسـة آلاف جنيه، ويعظم كثيراً فى عيوننا نحن أعضاء الجمعية الأدبية المصرية».

ومن الطريف أن شكرى عـيـاد يحرص على أن يسـخـر ، على طريقتـه المهذبة من هذه القصة كلها فـيستعير فى التعليق عليها كليشـها من كليشهات القدماء الفولكلورية :

«أليست هذه من أعاجيب القدر التى لو كتبت بالإبر على آماق البصر لكانت عبرة لمن اعتبر؟».

(٤٠)

ويتحدث شكرى عياد حديثاً موجزاً وموحياً عن أصداء الحرب العالمية فى جيله منتبها إلى ما لم ينتبه إليه غيره من علاقة التلمذة والأستاذية بين يونس بحرى وأحمد سعيد ، ويشير بسرعة إلى موقف الجماهير من ثورة الكيلانى فى العراق.

«. . . وكان الناس يستمعون فى القهاوى والبيوت إلى صوت يونس بحرى المذيع العراقى من راديو برلين يسب الإنجليز ويتوعدهم بالهلاك السريع، كما سيستمعون من بعد إلى صوت تلميذه أحمد سعيد، وكانوا يصفقون لثورة رشيد عالى الكيلانى التى انهارت بعد أيام أو بعد ساعات، واشتدت وتيرة الحماسة عندما دخل الألمان حرب الصحراء ووصلوا إلى العلمين فخرجت المظاهرات فى الإسكندرية تهتف: تقدم يا روميل».

(٤١)

على أن أهم ما فى حديث شكرى عياد عن هذه الفترة هو ما نقرؤه له من حديث مباشر وحافل بالصدق والصراحة والإخلاص عن تشخيصه الدقيق لفترة التكوين الثورى التى شهدها وعاشها وشارك فيها ، وهو يعترف بأنه استشعر مبكراً مدى الخطورة التى تتمثل فى اعتماد الملك على الجيش حيث يقول:

«لست مورخاً، لكنى لا أستطيع أن أفـهم لماذا أهمل مؤرخونا هذه الفترة من تاريخنا الحـديث، أعنى الفتـرة من ٣٧ إلى ٤٢؟ ولماذا لم يبق منهـا فى ذاكرة الناس وفى ذاكرة التاريخ الصحفى إلا يوم ٤ فبراير؟».

«هذه هى الفتـرة التى أثبت فيـها رجال الأحـزاب، المرة تلو المرة ، عدم إيمانهم بالديمقراطية، وسيطرت فـيها الدعاية على أذهان الناس، وأصبحت القـوة الغاشـمة وحـدها هى وسـيلة الحفـاظ على الحكم أو الوصـول إلى الحكم».

«لست مؤرخاً ولا متنبـئاً، وقد كنت أعترف دائماً بأنى مـشغول بما يجرى فى داخلى، أكثر مما يجرى من حولى، ومع ذلك فإنى أذكر يوماً من صيف ٣٩، حـديثاً دار همـسـاً بينى وبين مـحمـود الشنيطى ونحن نـتمـشى على كـورنيش الإسكندرية، أذكـر ذلك جـيدا لأنهـا الرحلة التى أجـبـرتنى أمى عليهـا، وكنا فى زيارة خالى الذى أصبح ناظر ملجـأ، يستطيع أن يستـخدم كابينة البلدية يوماً فى الأسبوع، يسـتطيع أيضا أن يصحبنى إلى الخياط الذى يتعامل معه ليصنع لى بدلة على حسابه، أتهيأ بها لسنة اللسيانس».

«قلت لمحـمود: لم يعـد له (أى للملك) إلا بنادق الجيـش كى تحمـيه، سيكتشف الجيش يوماً أنه يمكنه أن يحول فوهات هذه البنادق إليه».

(٤٢)

ولا تخلو المذكرات التى بين أيدينا من تعليقات ذكية لصاحبها على بعض مظاهر التقدم الاجـتماعى فى وطنه، وعلاقة هذه المظاهر بالتحـول السياسى

الذى حدث لهذا الوطن فى هذه الحقبة:

«. . . كانت هذه السنوات (١٩٣١ ـ ١٩٣٦) هى السنوات التى فرخت جيل الضباط الأحرار، وأيضاً الرعيل الأول من الماركسيين، الذين أدخلهم الضباط الأحرار، جيلاً وراء جيل، السجون والمعتقلات. نسبت أن أقول لك إن الرواية الأخرى التى قررت علينا فى السنة الخامسة الثانوية كانت «قصة مدينتين»، ومع أن ديكنز كان روائياً أعظم بمراحل كثيرة من «تلك المرأة» لم يتحيز لفريق دون آخر، فقد كان فيها شىء من وصف الباستيل، وكثير من وصف حفلات الجيلوتين، ولاشك أن هذه الأوصاف قد بلّدت مشاعر البعض منا، خصوصا حين وجدوا خبراء التعذيب من فلول الجستابو جاهزين بآلاتهم الجهنمية».

. . . وهو يعمد إلى تسجيل المفارقة الساخرة فى أن زملاء تلك الفترة لم يكونوا يعرفون أن بعضهم سيتحول فيما بعد إلى ضباط وأن البعض الآخر سيتحول إلى معتقلين تحت حكم هؤلاء الضباط ، وهو لا يفيض فى هذا المعنى البديع الذى ألتفت إليه وإنما يقرنه بسرعة بمعنى آخر لا يقل عنه أهمية ، وهو صورة هتلر وموسولينى فى أذهان جيله . . وهو يكتفى بهذا الربط الظاهر بدلاً من أن يفيض فى انتقاد الديكتاتوريات هنا وهناك.

«أما فى تلك الأيام فقد كنا نشتعل وطنية، ولم نكن نعرف مَنْ منا سيكون ضابطاً، ومَنْ سيكون معتقلاً، وكان هتلر وموسولينى فى أوج مجدهما، ولكن أكثرنا لا يفهم إلا أنهما زعيمان وطنيان، يتحديان دولتى الاستعمار (فرنسا وانجلترا)، ولم يكن موسولينى محبوبا لتاريخه الأسود فى

ليبيا، فضلاً عن حربه ضد الحبشة، لكن هتلر كان الزعيم الأوروبى الذى احترمنا وصافح خضر التونى فى أوليمبياد برلين، والتقى به أحمد حسين فى برلين (حتى تكون له صحبة)».

(٤٣)

وفى خضم كل هذه التفصيلات والرؤى نرى شكرى عياد وهو يتحدث عن حبه للحرية حباً شديدا، ونرى هذا الحديث مبثوثاً فى سطور كتابه كما نراه مشعاً من بين فقرات هذا الكتاب الذى كتبه صاحبه بحرص شديد (على نحو ما رأينا فيما سبق من فقرات) على استنقاذ حريته من والديه، ومن جيله، ومن أساتذته، ومن الناس أجمعين، والواقع أن شكرى عياد يبدو عاشقاً للحرية، مؤمناً بها، متيماً بالبحث عنها وإدراكها، وهو يقول بكل صراحة:

«... عشقت الحرية حتى كنت أنظر إلى أقرب الناس إلىّ كما لو كانوا هم ألد أعدائى، فمَنْ غيرهم يمسكنى؟ مَنْ غيرهم يحول بينى وبين حريتى؟».

«اصطفيت من نفسى رفيقاً، لكن رفيقى أصبح سجانى، سجنى الروحى كاد يهلكنى، لم يبق فى الدنيا شىء يشوقنى، لم يبق فى الدنيا شئ ينادينى، خواء العالم من حولى زادنى وحشة، بعقلى كنت أرى، وفى أعماقى كنت أختنق، ورحت أردد مع المتنبى:

رمـانى الدهر بالأرزاء حتى فـؤادى فى غشـــاء من نبال

فصرت متى أصابتنى سهام تكسرت النصال على النصال

وهــان فمـا أبالى بالرزايا لأنى ما انتفعــت بــأن أبالى

«غشـاء من حـديد أو صوّان، والقلب فى داخله حى لا يزال، يـصرخ حيث لا يسمعه أحد: مَنْ يكسر هذا الغشاء! مَنْ ينقذنى من الموت؟!».

«اليوم يتحـدثون عن شعاع الليزر الذى يمكن أن يخـترق حتى الصلب، أقوى من الليـزر شعاع ينبعث من العـين إلى العين، ويخترق غـشاء القلب ولو كان من فولاذ، شـعاع نفضىّ، جردنى من كل شئ ، وأبقى لى شـيئاً واحداً: الحياة».

«لحظة فرحت فيها بحياتى، وإذا الشعاع قد انسحب وتركنى مع قلبى فى صحراء الوحشة».

«صرخت: ماذا جنيت؟».

«قال: بحثنا عن روحك، فوجدناك بلا روح».

«فمازلت من يومها أبحث عن روحى هنا وهناك ولا أجدها».

....

(٤٤)

ويحاول شـكرى عياد أن يلـقى بتبعـة فقـدانه للحرية فى بعـض مراحل حياته (أو فى مجملها) على والدته:

«وعبر السنين كنت أشك فى أن أمى هى السبب، حتى بدرت منها كلمة قبل أن تموت، عرفت منها أنها تعتذر عن ذنب لا تطيق التصريح به، أجبتها بمزيج من الدعابة والسخرية، كما تعودت أن أفعل بعد أن اكتهلت وعقلت، ولكن المعنى كان واضحاً: فات الأوان يا أمى، لا أنا أنا، ولا هى هى».

«واليوم، كلما رأيت أحد أحفادى يكبر أقول له:

«يمكنك أن تكون أفضل من أبيك وأمك».

«هل ترانى مخطئاً؟».

(٤٥)

ومع كل هذا التأمل العميق فى علاقاته بوالدته، فإننا نجد شكرى عياد لا يتحدث عن المرأة بمعنى المرأة إلا بعد دخوله كلية الآداب، ونحن نرى الصدق يشع من حديثه عن المرأة فى هذه الكلية:

«. . . ولا بأس بأن نؤخر الحديث عن الأساتذة قليلاً لنتكلم عن الطالبات أولاً، فمعظمنا جاءوا من الأرياف أو من الصعيد، لم يروا فى حياتهم بنات بهذه الأناقة وهذا الجمال، وأحياناً لا تتجاوز المسافة الفاصلة بين الواحد والواحد مترين أو ثلاثة أمتار، المسافة الحقيقية فى الداخل، القليلون منا تجرأوا حتى فى تلك السنة الأولى واستعاروا كراسة محاضرات وردوها فى اليوم التالى، بعد أن سهروا يتأملون جمال الخط».

«كانت كلية الآداب مشهورة ببناتها، يسميها الحاقدون والحاسدون: كلية البنات، لأن كلية الحقوق ليس فيها إلا عدد قليل جداً منهن، وكلية العلوم

وكليـة التجـارة كـذلك، وكلية الـزراعة لا تقـبلهن سـداً للذرائع، والطب البيطرى مثلها، والطب هناك فى آخر الدنيا، لها عالمها الخاص، وبعض هذه الكليـات ضمت متـأخرة إلى الجـامعة، مـتخلفـين عن الطلائع الأولى فى معركة تحرير المرأة، المهم أن كلية الآداب كانت تشـهد وجوهاً غريبة معظمها قادم من كلية الحقوق، ينحشـرون فى المحاضرات العامة، يمكن أن يطردوا فى السكاشن، فـسّاق، لا يقنعون بالنظرة الأولى، لكنهم، عـلى كل حال، يكتفون بالنظر».

. . . .

وبعد فقرات قـصيرة يعود شكرى عياد إلى هذا الحـديث المتيم بالجمال، والمعبر عن الإحساس الصادق تجاهه فيقول:

«. . . أعود إلى انبهارنا بالطالبات فى تلك السنة الأولى، بالطبع لم يكن سواسـية كأسنان المشط، أشـدهن اجتذابـاً لأنظارنا المسهمـة سمراء فـارعة الطول تترك شعرها الغـزير مرسلا حتى يصل إلى خصرها، وشقـراء صغيرة الرأس والجسم مثل قطة جميلة، أميل إلى القصر والنحول مثل الفرنسيات، فى وجهها بثرة أو بثرتان من حب الشباب نتجـاوز عنهما باعتبارهما حقاً من حقوقـها، ربما وقفت إحدى هاتين الفتـاتين لحظات أمام الصف الأول تكلم زميلة لها، فنملأ عيوننا منهـا، لا تخلو الصفوف الأولى من جميلات أُخَر، لكنهن يتهيبن مثل هذه الوقفة».

(٤٦)

ويصل شكرى عياد إلى تـسجيل ما يشبـه نموذجاً عفيفـاً من غزل صريح

وواضح فى إحدى زميلاته فى كلية الآداب وهو يسميها « حسناء الزمان » فيقول :

«. . . أما التى جعلت الكلية كلها تقف على رجل، ومعها كلية الحقوق فى الحوش القبلى، فكانت فتاة تبارك الخالق فيما خلق، أول ما رأيتها شبهتها بصورة فى كتاب السنة الخامسة الثانوية لمارى أنطوانيت، براءة ملكية ناعمة لا يخطر ببالها أنها ملكة، ولا أن فى الدنيا جياعاً ومحرومين، ثم راجعت نفسى فعوذتها بالله من الشيطان الرجيم، ومن مصير كمصير مارى أنطوانيت، وقلت أيضاً: حقاً إنى لم أر مارى أنطوانيت، لكنها لا يمكن أن تكون بهذا الجمال، كانت حسناء الزمان لا تكاد تخرج من باب الجامعة حتى يتبعها جمهور من طلاب الكليتين، كأنهم ينتظرونها، أو كأنهم تركوا كل ما يمكن أن يشغلهم وانطلقوا ساعين فى موكب الشمس، ربما رأتنى أمى بينهم فى إحدى طلعاتها الاستكشافية فمنعها ضعف بصرها وبصيرتها من أن ترى الشمس، وربما عرفت، وهى أعرف الناس بى، أنى لن أجرؤ أبداً على الاقتراب منها».

«ترى أين هى أم كيف هى الآن؟ أعجوز مثلى فتسمح لى بكلمة فأقول لها إنها زلزلت كيانى، وجعلتنى عاجزاً حتى اليوم عن صياغة أى نظرية معقولة عن الجمال، ولو لاستعمالى الشخصى فقط، حتى أستطيع أن أعبر الهوة المرعبة بين الجسد والروح؟».

. . . .

وهو يذكر أنه كان سيزاملها فى قسم الإنجليزية لكنه أحس ألا فائدة

ترجى من مثل هذه المزاملة:

هى الشمس مسكنها فى السماء فعــز الفــؤاد عزاء جميلا

فلــن تستطيع إليــها الصــعود ولن تستطيع إليك النزولا

(٤٧)

وربما يجـدر بنا أن نعود مع شكرى عـياد إلى حـيث يتحـدث فى بدايات مذكراته عما عثر عليه فى ذاكرته من صورة الحب الأول الذى أحبه لفتاة من أقاربه، وهو يصف خواطره وصفاً دقيقاً فيقول:

«. . . تلوح لى بين ركـام الماضى البعـيـد قطعة صـغيـرة تلمع كالجنيـه الذهب، إن لم تكن هى الحب فما عرفـت الحب فى حياتى قط، كم كانت سنى وقـتهـا؟ عندمـا قارنـت الحوادث والأمكنة اسـتطعت أن أسـتنتج، لا تضـحك، أنى كنت بين السادسـة والسابعـة، وأصابنى سـهم الحب، كـما يصيب الكبـار، على حين غفلة، كنت ألعب مع صبـية من أترابى، ونادانا أهل الدار لنعـاون فى نقل أشيـاء من الطابق الأسـفل إلى الطابق الأعلى، كانت هى، تلك التى رمـتنى بسهمـها، واقفـة على بسطة الطابق الأعلى، تتلقى منا ما نحـمله لتضعه فى مكانه الجـديد. كان وجهها بـدرياً، وشعرها أسود حالكاً، مفروقاً على الجانبين، لا يـكاد يتجاوز شحمتى أذنيها. هكذا أتمثلهـا إلى اليـوم، زهرة لم تكد تـتفتح عن أنوثـتهـا، مضـيت أعـمل فى حماسة، صاعداً هابطاً، وأنا الاحظ نظرتها الحـانية المشفقة، وكأنها تريد أن تقول لـى: على مهلك، أو لعلهـا قالتـها فـعلاً. عندما انـتهينا أمـرتنى أن

أستريح، فجلست على درجة السلام، وغابت قليلاً فى الداخل ثم أحضرت قطعة حلوى، وكنا نعرف من الحلوى نوعين: الكرملة، وهى صلبة نطحنها بأسناننا، وأخرى طرية نسميـها الفنضام، أو «عفش الجناين»، هذه هى التى وضعـتها فى فمى فـتركتـها تذوب ببطء، ونفسى تحـدثنى أنى لن أذوق مثل حلاوتها أبداً».

«هذه قصـة حبى من أولها إلى آخرها، لكـننى سأضيف إليهـا على عادة الروائيين فى القرنين الماضيين، «خـاتمة» تلخص ما جرى لأبطال القصة بعد أن فرقت بينهم عوادى الزمن».

«لقد تزوجت حـبيبتى بعـد سنوات قلائل، ولا داعى لتضخـيم الأمور، فإنى لم أرها قط بعد تلك المرة، وأظنها انتقلت مع أسرتها بعد ذلك بقليل، ولم تلبث أن حـجـبت حتى جـاءها العـريس المناسب، أو الذى رآه أهلهـا مناسباً، وأنا بعد فى طور المراهقـة، وعواصفها الخماسينيـة الصفراء تحجب صـفـاء الذكـريات، ثم تمضى سنوات أخـر وإذا أنا شـاب حـديث العـهـد بالوظيفة، وإذا أنا أسكن معها فى شـارع واحد فى المدينة التى انتقلت إليها مع زوجها، وإذا أنا أزور بيتها بدعـوة من زوجها، ألسنا بلديات، وهو أخبر منى بأحوال تلك المدينة؟ وهى كعـادتها محجوبة، لم تقـابلنى مرة واحدة، ثم تمضى سنوات أخـر وإذا أمـى تخـبـرنى أنهـمـا كـانتـا تتـزاوران، وأن «حبيبتى»، وهل كان أحد يعرف أنها حـبيبتى؟ كانت شديدة الشقاء مع ذلك الزوج الذى كان يكبـرها كثيراً، وينـفس عن غيرته وقبـحه ووضاعتـه بسوء معاملتـها، ولكنى لم أرها قط فى واحدة من تلك الزيارات، فـإنها لم تكن

تأتى إلا وأنا غائب فى عملى».

(٤٨)

ومن أطرف وأبلغ ما تتضمنه هذه المذكرات حديث صاحبها عن صداقته للقط الأليف فى حى بين السرايات:

«صديقى الصدوق فى هذه الفترة لم يكن من بنى آدم، إذا أردت أن تقول إنه جنى فلن أوافقك، ولن أعارضك، فأنا لا أكتب الآن بحثاً فى الأنثروبولوجيا. أنا، كما اتفقنا، لا أحدثك إلا عن وقائع وانطباعات، وإذا تركت فى نفسك بعض التساؤلات فلا حيلة لى فى إزالتها، يمكنك أن تنساها».

....

....

....

«كان صديقى يغيب عنى باليومين والثلاثة، ثم أراه فجأة على الشباك ينظر إلىّ بعيونه الخضر، نتحاور بلغة نفهمها نحن الاثنان، يقول لى: كيف حالك؟ أقول: الحمد لله، يقول: مازلت حيث رأيتك آخر مرة، ألا تفعل شيئاً غير القراءة والكتابة؟ أقول له: قسمتى، يزداد عطفاً وحنواً ويقول لى مواسياً: أحياناً أتمنى لو أجلس هكذا مثلك، بعيداً عن الناس والكلاب، وحتى القطط أيضاً. أقول له: أعرف أنكم تتعاركون أحياناً كالآدميين،

يقول: الحياة صعبة، أقول: أنت تخفى عنى شيئاً، يشيح برأسه، أقول له: سوف تنساها وتصاحب غيرها، يقول: كلهن سواء».

«إذا كان عندنا لبن أحضر له طاسة صغيرة، يلعق اللبن بهدوء ومجاملة، يلبث قليلاً ريثمـا يجيل بصره فى المكان، يقول لى: لم يتـغير شىء، هكذا أنت، سأتركك مطمئناً، أقول له: صحبتك السلامة».

«لا أزعم أنى اكتفيت من الأصدقاء بذلك القط، سواء أكان قطاً حقيقياً، أم جنياً متخفياً فى جسم قط، هو أيضاً كان له عالمه الخاص، وكانت صداقته لى ومضات صغيرة فى ظلمة روحى، ولكننى بحثت دائماً عن الصداقة بين بنى البشر».

. . . .

. . . .

(٤٩)

نأتى إلى بعض اللوحات السوداء فى مذكـرات شكرى عياد، ومن الجدير بالإشارة أن مذكرات شكرى عـياد تتضمن قدراً أكبـر من المعتاد فى الحديث عن الجوانب المتعلقـة بطيش الشباب، فيما يتعلق بمـمارسة الشذوذ الجنسى، وبرواية ما هو معـروف عن هذه العادة، وعن وجودها فى مجتمـعات قريته الصـغيـرة ، والمدينة التى عـاش فيـها، ونحن نـراه يتخلص من مـثل هذا الحديث عندما يعيش فى القاهرة، وإن كانت ذكرياته لاتزال عالقة فى ذهنه، وهو يقدم لحديثه عن ذكرياته عن هذه التجارب المرذولة بحديث شبه خطابى

لكنه ساخـر، يأسف فيه على هذه الحظوة التى أصبح المثـليون يتمتـعون بها فى العالم الحديث، وهو يقول:

«. . . الجنسية المثلية أصبحت معياراً من معايير الحرية والديمقراطية، إن لم تكن أهم هذه المعايير. البرنامج العالمى للإذاعـة البريطانية نظم استطلاعاً عن موقف الجنسية المثلية (التى نسميها نحن المتأخرين الشذوذ الجنسى) حول العالم، وسمعـت مأبوناً من الهند يفاخر بانتسابه إلى هذه الطـائفة، ويسخر من مواطنيه المتـخلفين لأنهم يمكن أن يتسامحـوا مع «الإيجابى»، أو حتى يحترمـوه، لكنهم يحتقرون السلبى. الشـواذ أصبحوا قـوة ضغط فى العالم المتقـدم وراء مئات الملايين أو ألوفـها من الجنيهـات والدولارات والفرنكات التى تنفق من أجل اختـراع دواء لعلاج الإيدز، وليـس من أجل مكافحـة الأمـراض المتـوطنة، وعندمـا أرسل كـاسـتـرو إلى الولايات المتـحـدة بين المعارضين طالبى اللجـوء السياسى أكثر من مـائة من هؤلاء المأبونين. مرضى الإيدز ضمن لهم إخوانهم فى دولة الرفاهية العظمى استقبالاً كريماً وعلاجاً باهظ التكاليف على نفقة الدولة، وعندما عـقد المسلمون فى بريطانيا مؤتمراً للمطالبة بـحقوقهم الـسياسيـة كانت الفئـة الوحيدة التى نجـحت فى تنظيم مظاهرة مضادة على أبواب المؤتمر هى هذه الفئة من الشواذ، وعندما جرؤت عالمة فى الاجتـماع على أن تقول فى إحدى ندوات تلك الإذاعـة العالمية إن أغلب حالات الشـذوذ قد لا تكون راجعة إلى اخـتلافات طبيعـية، بل إلى مؤثرات اجتـماعية، حوصر هذا الرأى فلم يسـمع بعد ذلك، وعندما أعلن ضابط شرطة أن مرض الإيدز هو عقـاب إلهى عادل لأولئك الشواذ، قامت القيامة هناك حتى فصل الرجل من وظيفته».

ومن اللوحات السـوداء فى هذه المذكرات ما يرسمـه صاحبهـا من صورة منفرة لأحـد زملائه فى كلية الآداب معـدداً بعضاً من مثالبـه، وهو لا يذكر اسمه ولا حـروفاً من هذا الاسم، كما أنه لا يـقدم وصفاً يستـدل به عليه، وإن كنا مع هذا لا نعـدم حيلة فى معـرفة اسـمه من خلال المعلـومات التى يوردها الكتـاب الفضى لكليـة الآداب جامعـة القاهرة، ومما يجـدر ذكره أن شكرى عـياد اسـتطرد إلى حديثـه عن هذا الزمـيل بعدمـا قص علينا قصـة صداقـته العمـيقة لقط أليف كـان قد تعود زيارته فى بـيت «بين السرايات» الذى كان يقيم فيه فى أثناء دراسته الجامعية ويقول:

«. . . عرفته فى آخر مراحل الدراسة الثانوية، كان - كما ظهر من أمره - يعد نفـسه ليكون كاتبـاً، ومن عجيب أمره فـى هذا الباب أنه أبى أن يكتب على كراسة الإنشاء، كـما يكتب الطلاب جميعاً، «إنشاء عـربى»، واستبدل بها «كتابـة عربية»، وقد لاحظ كثرة ترددى على مكتـبة البلدية، فقلدنى فى ذلك، ثم دخل معى كلية الآداب، واختار مـثلى قسم اللغة العربية، وكنت دائماً مـتقدمـاً عليه، إلى أن تغيـر الحال بفضل نظام اسـمه نظام الامتـياز، وأسـتاذ اسـمه أحـمد الشـايب [وقد قـدمنا مـا رواه شكرى عيـاد عن هذه القصة]، فأصبح «الصديق» ابتداء من السـنة الثالثة طالباً «ممتازا»، وأصبحت أنا طالباً عاديا»، فاصطفى صديقاً ثالثاً، يحلو له حين نجتمع نحن الثلاثة أن يفاوضـه فى دروس الامتياز التى لا أحـضرها، احتملت ذلك سنة، عـملاً بوصية النابغة وبشـار، إلى أن أقدم على فعلة قبيحة لم أسـتطع أن أغتفرها له، كان طه حسين يدرس لنا الشعر الأموى فى السنة الثالثة، وطلب منا أن

نعد بحثاً فى تحليل رائية الأخطل:

خف القطين فراحوا منك أو بكروا وأزعجتهم نوى فى صرفها غير

«أجهدت نفسى فى تحليل القصيدة، واثقاً أن طه حسين إن لم يقرأها بنفسه فلابد أن يقرأها أحد مساعديه، ولبث «الصديق» متكاسلاً إلى أن اقترب موعد تقديم البحث فسألنى أن أعيره بحثى «ليسترشد به» كما زعم، ولا أذكر الآن كيف وقع بحثه بين يدىّ، هل بلغ من وقاحته أنه أطلعنى عليه بنفسه؟ هذا غير مستبعد أيضاً، فإذا به منقول عن بحثى بنصه، وقد أضاف إليه بضعة أسطر فى الختام، بدأها بقوله: «بقيت كلمة عن النص الذى رجعت إليه فى دراسة هذه القصيدة...».

«ولم يكن ثمة نص غير ذلك الذى نشره لويس شيخو فى «شعراء النصرانية»، لكنها إضافة يمكن أن تقنع مَنْ يقارن بين البحثين أن بحثه هو الأصل، وبحثى هو المنقول أو المسروق».

....

ويعود شكرى عياد بذاكرته إلى الماضى القريب، شأنه شأن كل الذين يصدمون فى واقعة معينة:

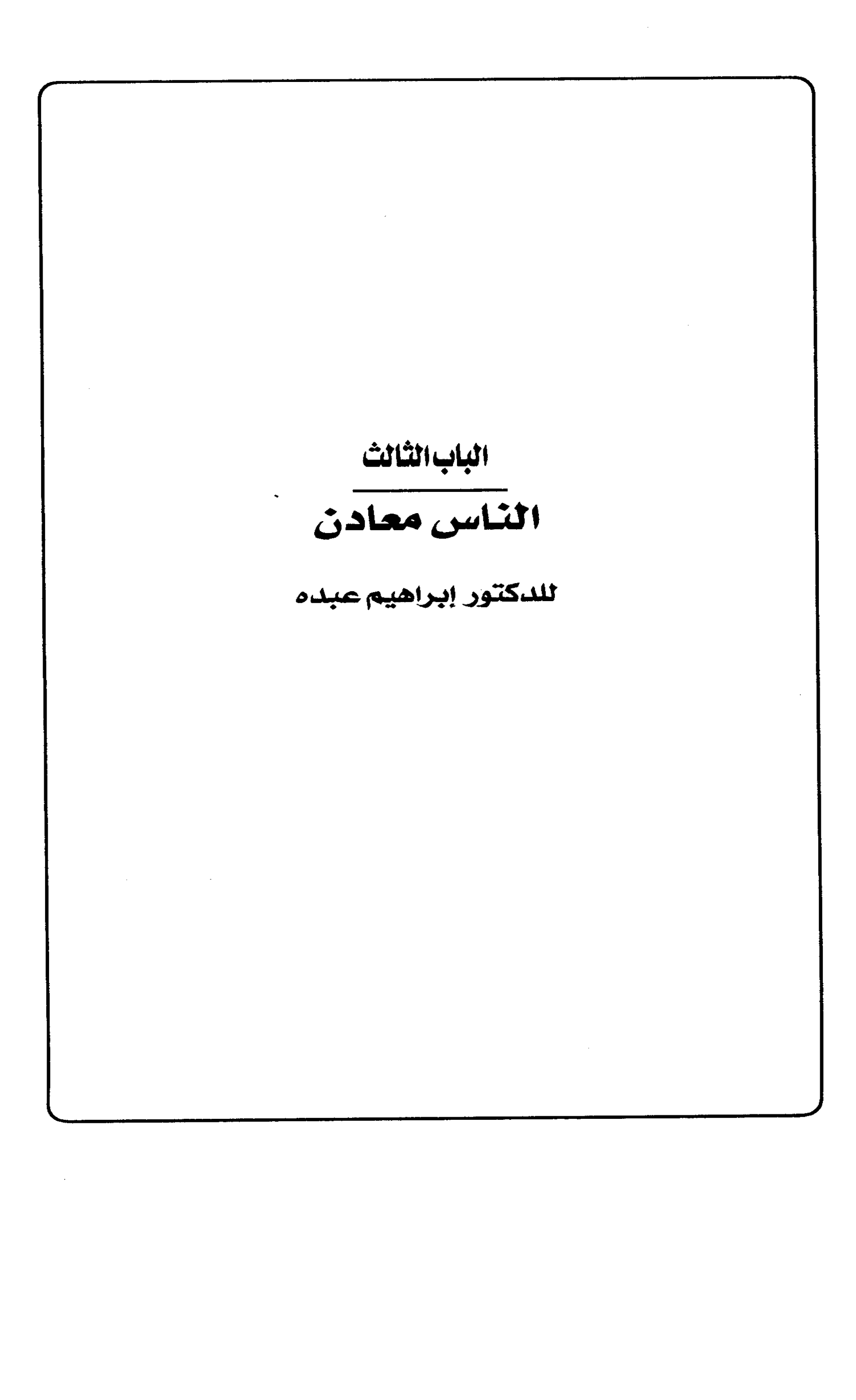
«وتذكرت أنه استعار منى قبل سنة أو سنتين حقيبة جلدية متوسطة، تصلح للكتب أو لسفرة قصيرة، وادعى أنها ضاعت، ثم سمعت من زميلنا عبد الحميد يونس قصة أعجب، وهى أنهما التقيا فى مجلس، وكان من عادة الكثيرين إذا جلسوا أن يتخففوا من الطربوش بوضعه على منضدة أو نحوها، وكذلك فعل عبد الحميد، فلما هم بالقيام، وكان ذلك الإنسان قد

سبقه، مد يده ليتناول طربوشه فإذا به شيء آخر تحسسه عبد الحميد فوجده بالياً ظاهراً وباطناً، فعلم أن صاحبنا غافله وأبدل الطربوشين. كان عبدالحميد يونس - رحمه الله - ضريراً، وشجاعاً إلى درجة أسطورية فى تحمل محنته، ولكنه كان يتألم ألماً شديداً لمثل هذه الحادثة، وقد سمعتها منه مرات».

. . . .

ثم يعود شكرى عياد ليقص علينا ما كان من أمر زميله(!!) فيما تلا ذلك من أيام:

«واحتجت مرة إلى مال، وكان صاحبنا هذا يزعم أن له فى ذمة شخص آخر مبلغاً كبيراً، وأنه يستنجزه إياه، فعلمت أنه يريد أن يكسب حمداً ولا يبذل إلا وعوداً، وجاء الفرج من الله بلا فضل من مخلوق، بل كنت أنا صاحب اليد العليا لأنى خلصت زميلاً من ورطة غير هينة، ومازال ذلك الصديق يلاحقنى بوجهه الصفراوى إذا حضر، وخطاباته الطويلة المنمقة إذا رحل (كتابة عربية!) حتى سألنى قرضاً صغيرا فسارعت بإعطائه إياه، ثم تعمدت ألا أطالبه، وطال الزمن فجاء يعتذر فوبخته ولم أقبل منه رد المبلغ، ولم يكن ذلك هو آخر العهد به، لكن الزمن تكفل بالباقى».



الباب الثالث

الناس معادن

للدكتور إبراهيم عبده

(١)

هذه مذكرات مبكرة كتبت ونشرت قبل سيل المذكرات المناظرة لها بأكثر من عشرين عاماً، حيث نشرها صاحبها الدكتور إبراهيم عبده عام ١٩٦٠، ولا يخفى على بديهة أحد أن مذكرات تنشر فى ذلك الوقت لابد أن تكون مذكرات ملتزمة تماماً. . أى ملتزمة بالجو السياسى الذى كانت تعيشه مصر فى ظل حكم جديد كان لايزال فى أوج فتوته وهو حكم ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، ذلك أن هذا الحكم الفتى لم يكن ليسمح بنشر إلا ما يصب فى مصلحته، ولم يكن ليسمح بنشر شىء لا يسير فى درب الحديث عن إنجازاته المذهلة(!!) إذا ما قورنت الأمور بالماضى الأسود(!!). ومع هذه الحتمية الواضحة فإن الدكتور إبراهيم عبده بحس الأديب، وبمقدرة الفنان، وبمهارة الصحفى، وبأفق الأستاذ الجامعى استطاع أن يقدم ما أراد تقديمه من معان نبيلة دون أن يخل بالعقد الإجبارى الذى كان يفرض نفسه على الكتاب فى ذلك الحين، وقد نجح الدكتور إبراهيم عبده فى أن يقدم للقراء صوراً مضيئة لكفاح العصاميين النوابغ من أمثاله الذين قدر لهم أن يتعلموا وينبغوا فى عهد الليبرالية، وأن يصلوا إلى أكثر المواقع تقدما بهذا الكفاح

المتصل، ثم إذا هم - كما يعرف القارئ - يفقدون معظم هذا كله فى طرفة عـين على يد الثورة، ونـحن نحس بهذا المعـنى فى هذه المذكرات بوضـوح شديد حـتى من دون أن يشيـر إبراهيم عبـده بحرف واحد إلى هذه الـنهاية القاسية التى واجهوها!

وسوف نرى فى مدراستنا لهذه المذكرات أن صاحـبها قد استغل إلى أبعد حد ممكن حـاجة العهد الجـديد إلى تصوير معاناة أبناء الوطن مع الفـقر فى العهد السابق، فإذا هو يفيض فى هذا المعنى بما يبدو وكأنه يصور به ما يخدم دعاية العهد الجديد، لكنه فى حقـيقة الأمر كان يدل قراءه فى ذلك الوقت الذى نشر فـيه مذكراته وفـيما يتلوه من أوقـات على حقيقـة أخرى لا تقل أهمية، وهى أن أمثاله من النجوم المتلألئة فى سـماء عهد الليبرالية كانوا فى الأصل من هؤلاء الفقراء الذين سـعوا إلى المجانية ونالوها، كمـا سعوا إلى الوظيفـة واستمتـعوا بها، وظلوا على الدوام يسـعون من أجل الرزق الذى يكفل لهم الستر، ويحفظ عليهم مـا وصلوا إليه فى سماوات العلم والمعرفة والحيـاة العامة، قـبل أن تأتى الثورة فتـخرجهـم من الجامعـة للأبد بدعوى التطهير!!

(٢)

ربما كـان من المهم أن نقدم للقـارئ تعريفـاً موجـزاً بسيـرة الرجل الذى نتناول مذكراته، فالدكتور إبراهـيم عبده واحد من أساتذة الإعلام الرواد فى مصر، حين كـانت هذه الأستاذية ماتزال أستاذية «صحـافة» ولم تتحول إلى «إعـلام» بعـد، وقـد مـارس هذا الرجل الوظائف المدنيـة ولمع اسـمـه فى الأستاذية الجامعية وفى الصحافـة وفى كتابة المقالات، كما أثبت نجاحاً بارزاً

فى النشر والطباعة، وأصبح فى عهد الاشتراكية واحداً من أصحاب دور النشر والمطابع الخاصة الناجحة، ولا تزال كتبه الأولى بمثابة مراجع مهمة لدارسى الصحافة وتاريخها، أما كتبه الأخيرة فتمثل مع كتابات الدكتور حسين مؤنس وعدد آخر من الأكاديميين الأدباء البلغاء، طرازاً محبباً إلى النفس من الكوميديا السوداء التى نقدت المجتمع المصرى فى عهد الثورة.

تلقى الدكتور إبراهيم عبده تعليما مدنيا ونال ليسانس الآداب من جامعة القاهرة (١٩٣٥) من قسم التاريخ، وقد تخرج معه فى الدفعة ذاتها وفى القسم نفسه أستاذ التاريخ الدكتور محمد جمال الدين سرور، وفى قسم اللغة الإنجليزية الدكتور رشاد رشدى، والأستاذة أمينة السعيد، وفى قسم اللغة العربية الدكتور شوقى ضيف، وعين موظفا فى جامعة القاهرة، وقد روى أنه عمل فى قصر العينى لكنه ضجر بالعمل فأسند إليه العميد الدكتور على باشا إبراهيم عملا خفيفا مكنه من مواصلة دراسته، وسرعان ما نال درجة الماجستير فى الآداب (١٩٤٠)، ثم درجة الدكتوراه فى الآداب (١٩٤٣)، وكانت درجته فى التاريخ لكن موضوعها كان فى الصحافة، وهكذا فتح الباب أمام هذا التخصص المزدوج الذى حظيت به هيئات التدريس فى ذلك القسم، وقد عمل إبراهيم عبده فى هيئة التدريس فى كليته التى تخرج فيها، وكان من مؤسسى معهد الصحافة، وتولى عمادته (١٩٤٩).

وقد لمع اسمه فى الحياة العامة حيث كان صديقاً وزميلاً لفؤاد سراج الدين، ولمجموعة أخرى من أقطاب الأحزاب السياسية من الذين تولوا الوزارة قبيل الثورة وبعدها ومنهم نور الدين طراف، ومحمد فريد زعلوك باشا... إلخ.

كمـا كان على علاقة عـمل ببعض رموز الحـركة النسائية المصـرية، وقد تولى الجانب الإعـلامى فى بعض النشاط النسائى الناهض فى تلك الفـترة، وكان على علاقة ببعض رجال الاقتصاد، وقد كتب سيرة طلعت حرب.

وكان من أساتذة الجامـعة البارزين عند قيام الثورة، لكن فـترة وفاقه مع هيئة الحكم الجديدة لم تستمر طويلا، وبعـد خروجه من الجامعة فى إحدى حركـات التطهير التى حـدثت فى عهد الثورة أسـس مؤسسة سـجل العرب للنشر وتولى إدارتهـا وأصدر من خلالهـا مجموعـات وسلاسل من الكتب المهمة، كما أصدر الموسوعة الذهبية للناشئين.

(٣)

وقد ظل الدكتور إبراهيم عبده لفتـرة طويلة، حتى وفاته، يحتفظ بقدرته على إبداء آرائه المعـارضة والسـاخرة من عـهد الثـورة، وقد جـمع كتـاباته السياسية فى كتب مهمـة «نفاقستان»، و«الوسواس الخناس»، و«من النفاق مـا قـتـل»، و«تاريخ بلا وثائـق»، و«الثـورة فـى مـتـحف الخـزف»، و«الديمقراطية بين شيوخ الحارة ومجلس الطراطير»، وعندما صدرت جريدة الوفد فى ١٩٨٤ تولى كتابة مقال أسبـوعى فى صفحتها الأخيرة، وفى هذه المقالات حمل على وزير الإعلام وعلى السياسات الإعلامية.

من مؤلفـاته التى تكررت طبـاعاتها: «تاريخ الطـباعة والصـحافـة خلال الحملة الفـرنسيـة (١٧٩٨ ـ ١٨٠١)» (١٩٤٠، ١٩٤٨)، و«تاريخ الوقائع المصرية (١٨٢٨ ـ ١٩٤٢)» (١٩٤٢، ١٩٤٤، ١٩٤٥)، و«تطور الصـحافة المصرية وأثـرها فى النهضتـين الفكرية والاجتـماعـية» (١٩٤٤، ١٩٤٦)، و«أعـلام الصحـافـة العربيـة» (١٩٤٥، ١٩٤٨)، و«تاريخ جـريدة الأهرام

(١٨٧٥ ـ ١٩٥٠)» (١٩٥٠).

ومن مؤلفاته بالاشتراك: «تطور النهضة النسائية فى مصر منذ عهد محمد على» (١٩٤٦)، و«طلعت حرب» (١٩٤٦).

كما ترجم «أثر الشرق فى الغرب» لجورج يعقوب (١٩٤٦)، وترجم بالاشتراك مع بعض زملائه «الحدود الشرقية للدولة البيزنطية» (١٩٥٠)، و«العرب والروم» (١٩٥٠).

وله أيضا «فى السودان» (١٩٣٦، ١٩٤٧)، و«حياة ثانية» (١٩٣٣، ١٩٤٥, ١٩٤٦، ١٩٥٠)، و«فى المصايف» (١٩٣٤).

وله مجموعة من البحوث والمقالات منها: «لماذا أرى اللاتينية من العربية» (١٩٣٥)، و«صراع الأديان فى بلاد الحبشة» (١٩٣٥)، و«اللغات السامية» (١٩٣٦)، و«أفلوطين» (١٩٤٢)، و«خطابات تل العمارنة» (١٩٤٢)، و«أبجد» (١٩٤٣)، و«المستشرقون» (١٩٤٣)، و«سليمان الحكيم» (١٩٤٣)، و«فى صدر الإسلام» (١٩٤٣)، و«الأدب العبرى» (١٩٤٣)، و«أفلوطين»، و«حول الثقافة فى عصر إسماعيل» (١٩٤٧)، و«حديث الكتب: تاريخ الأدب السريانى» (١٩٤٩)، و«باحثة البادية» (١٩٤٩)، و«مؤتمر المستشرقين الألمان (١٩٤٩)، و«الدخيل فى اللغة العربية» (١٩٥٠).

كانت له مجموعات مبكرة من المقالات فى مجلة الهلال وغيرها من المجلات الثقافية.

نبدأ فنشيــر إلى رأينا فى أن إبراهيم عبده نجح فى أن يقــدم للقارئ قطعة أدبية بليغة تحفل بالمشاعر وتصويرها، كما تحفل بالطبائع ووصفها، وبالوقائع وتوصيفها، وهو فى أسلوبه الفذ فى هذه السيرة الخاطفة أقرب ما يكون إلى الرجل الحـريص على المشاعـر والخلجـات بأكثـر من حـرصه على الطبـائع والوقائع ، لكنه، مع هذا وبذكاء شديد، حريص على أن يسجل موقفه من الطبائع كـأنما يبرئ ذمـته، أما الوقـائع المتعددة فـإنها تأتى فى سـياق القص لتثـبت لنا صدق تقدير صاحب المذكـرات، وصدق أحكامه، كمـا أنها تأتى لتكون النسيج الروائى الذى لابد منه فى كل سيرة ذاتية من هذا الطراز.

ونحن لا نظلم هذه المذكرات إذا ما ســارعنا وذكرنا أن صاحبها قــد ألفها فى ساعة وجد نفسه فيها فى حاجة إلى أن يكتب، وإلى أن ينفس عن نفسه بعض ما تحـمل هذه النفس من ذكـريات الماضى، وهموم الحاضـر، والقلق على المستقبل.

كما أننا لا نظلم هذه المذكرات إذا قلنا إن صاحبها لم يرد بها التاريخ على نحو أصـيل، وإنما أراد بها الحاضر الـذى كان يعيشــه، و الذى كان يريد أن يعبــر عن موقفــه منه، وعن موقـفه من بعض أقطابه.. إن مــديحاً.. وإن لوماً.

ونحن لا نظلم هذه المذكرات إذا قلنا إنها أقرب إلى الكتابة المنضبطة منها إلى الكتـابة المستـرسلة، حـتى لو بدا صاحـبهـا حـريصاً على أن يصـفهـا بالتلقائية، وحتى لو أنه جـعل لهذا الحرص صفحة خاصة فى مـقدمة كتابه كتب فيها هذا المعنى بكل بلاغة ووضوح وقال:

«هذه ذكريات لا مذكرات منشورة.. بغيــر ترتيب أو حساب عن المجتمع

وناسه فى نحو أربعين سنة، حافلة بكل معادن الدنيا فى شئون السياسة، والعلم، والأدب، والفن، وسترى بين هذه المعادن معادن أشك أنها مرت بأى مجتمع، أو عرفت فى أى زمان».

هكذا يختصر إبراهيم عبده فى بلاغة شديدة ما يريد أن يعبر عنه فى هذه المذكرات فى قوله: إن الناس معادن، وهو القول ذاته الذى اتخذه عنواناً موحياً لهذه المذكرات، ومع تقديرنا للعنوان وللمقدمات فإننا نعرف بكل يقين أن المذكرات تقدم ما هو أوسع من هذا، حتى لو أنها دخلت إلى هذا المحيط الواسع من باب الحديث عن علاقة صاحبها بهؤلاء الناس الذين اختلفت معادنهم.

(٥)

يصور الدكتور إبراهيم عبده بذكاء شديد قصة كفاحه الشخصى من أجل استكمال تعليمه، وهو يفعل هذا على حلقات تأتى فى سياقها التاريخى، فيتحدث على سبيل المثال عن كفاحه من أجل دخول التعليم الثانوى على الرغم من ميل أهله إلى إلحاقه بمدرسة التلغراف، وهو يروى أنه استطاع الحصول على موافقة الوزير على أن يكون تعليمه بالمجان فى المدرسة الخديوية، وهو من أجل ما يعتقده وفاقاً مع روح العصر الذى كتب فيه مذكراته، لا يذكر اسم هذا الوزير، ولا وصفاً له، إنما هو يكتفى بأن يشير إلى حصوله على المجانية فحسب فيقول:

«... وانعقد إجماع الأسرة على إلحاقى بمعهد هو ألطف المعاهد وأخفها، مدرسة التلغراف! ستة شهور لتعلم المهنة، ومن ثم الوظيفة حاضرة، وجنيهاتها الستة راتب مرموق فى ذلك الزمان!».

«رحب بذلك أهلى فى الريف والحاضرة، فتلك مدرسة بلا تكاليف، ورحبت أمى بالمدرسة ترحيباً قوياً، فهى تريد أن ترانى موظفاً فى الحكومة وإلى جانبى زوجة وأولاد، وهى أمنية ترجو أن تتحقق لها قبل أن تموت».

«وما كان يعنينى إقناع الأهل بما رسمه القدر لى وآمنت أنا به، إنما كان يعنينى أن تصغى إلىّ أمى، فقد حدثتها بأمانى فى الحياة فبكت لأن تحقيق الأمانى يحتاج إلى مال، وحدثتها أن سنى لا تسمح بالزواج أو إنجاب العيال، فبكت لأنها تخشى أن تموت قبل أن أكون زوجاً وصاحب عيال!».

. . . .

«وبكت أمى مرة ثالثة لأنها مذعورة من أفكارى وأحلامى التى سيطرت على قلبى ونفسى وعقلى جميعاً. . أن أتعلم حتى أصبح أستاذاً فى مدرسة المعلمين، وأين هى هذه العنقاء وأنا لا أملك تكاليف المدارس، ولا كساءها، ولا التزاماتها الكثار».

«وقال الصديقان محمود (الشاهد) وصلاح (الشاهد): ماذا لو قابلت وزير المعارف، فإنك لقادر على أن تنتزع منه قراراً بأن يلحقك بأية مدرسة تجهيزية؟».

(٦)

ويقدم إبراهيم عبده وصفاً تلقائياً ممتعاً لرحلته إلى الإسكندرية من أجل لقاء الوزير والحصول منه على المجانية، وهو المسعى الذى تكلل بالنجاح:

«نحن فى صيف ١٩٢٥، والحكومة تصطاف فى الإسكندرية، إذ تكون

الحكومة عادة حيث يكون الملك، والملك فؤاد يبكر فى الاصطياف، ويستأخر فى العودة حتى يكاد الخريف أن ينصرم، وهذه عقبة لأصحاب الحاجات عند الوزراء والوزارات، وحاجتى ملحة، والمجانية لا تشفع فيها الكفاية أو الامتياز وحدهما، بل لابد أن يسعى الطالب، وهو عادة ولى أمر التلميذ، إلى هنا وهناك، يبذل ماء الوجه تارة، أو يدفع من جيبه تارة أخرى، أو يدفع شيئا أغلى من هذا وذاك؟!».

«وكان المفروض أن التعليم حسب نص الدستور حق لكل مواطن، إلا أن الواقع كان غير ذلك، إذ أن هذا الحق كان للأغنياء وحدهم، والمجانية تمنح بالسعى على النحو الذى أشرت إليه».

«ولم يكن لى ولى أمر يسعى هذا السعى أو ذاك، فكان لابد من أن أعتمد على نفسى، ولم أكن قد زرت الإسكندرية، ولا أعرف الطريق إليها، ولم يكن جرمى وهو دقيق كالطيف [يشير إلى ضآلة جسمه]، ولا ملبسى وهو البنطلون القصير، يوحيان بمقدرة تنتزع المجانية من وزير».

«وضربت فى الأرض حتى بلغت محطة القاهرة آخر الليل لأركب (المستعجلة) إلى الإسكندرية، وهو قطار سخروا من بطئه فنعتوه هذا النعت، إذ أنه يقطع المسافة بين العاصمتين فى سبع ساعات، وغيره يقطعها فى ثلاث!».

«وركبت المستعجلة فى الدرجة الثالثة، وبلغت الإسكندرية مع الصبح، وسألت عن بولكلى حيث ينزل الوزراء، وكان حى الوزارات فى بولكلى مكاناً ضيقاً، نال كل وزير فيه حجرتين، حجرة له وحجرة لرجال مكتبه، وكنت قد تزودت بأوراق رسمية تثبت أننى ابن رجل بنى المدارس وأهداها

للدولة، وأن من حقى على هذه الدولة أن تعلمنى، وأننى جئت للوزير غير متسول، بل أقبلت عليه إقبال صاحب الحق».

«وكان سكرتير الـوزير شاباً لطيفاً، غيـر أنه حرفى، وهو اليوم مسـتشار كبيـر، أبى أن يدخلنى إلى الوزير، غير أننى أصررت على لـقائه، فلما أذن لى بالدخول بكيت ولا أدرى لماذا بكيت وأنا مـقتنع بأنى صاحب حق، حق أبى على الدولة، وحق تفوقى فى الشهادة الابتدائية، وحق المواطن العادى الذى كان يظن أن فى مصر دستوراً يبيح للمصريين أن يتعلموا».

«وكان لقاء الوزير حلواً، وخرجت من عنده أحـمل توقيعاً يسمح لى أن أتعلم بالمجان فى المدرسة الخديوية».

(٧)

هكذا نجح إبراهيم عبـده فى أن يحصل على المجانية بسـهولة وكأنه يريد أن يقول إن هذا لم يكن أمـراً صعباً يصـور على أنه عقبـة تحول بين الناس وبين التعليم، لكنه مع هذا يصـور الأمر تصويراً لطيفاً يبعث الأمل ويحـييه فى نفس كل متطلع إلى العلم.

وبالأسلوب نفسه يصور إبراهيم عبده نجاحه فى جهاده من أجل استكمال تعليمه الجامعى.

. . . .

. . . .

«. . . ومرة أخرى بكت أمى، واقتـرح أهلى فى القاهرة وبنها العسل أن

ألتحق بأية وظيفة، وأسعى للدرس ليلاً كما صنع ويصنع غيرى من المجتهدين الراغبين فى العلم حقاً».

«وخشيت شيئاً واحداً فى السعى وراء الوظيفة، خشيت أن تلزمنى أمى بالزواج بعد أن تطمئن إلى وظيفتى وهى مورد موصول، وكان زواجى شغلها الشاغل، وكأنها كانت تريد إلى جوارى زوجة تدللنى كما كانت تدللنى هى، وإنها لترانى دائماً طفلاً جديراً بالرعاية والتدليل».

....

«فلما أصررت على أن أتفرغ للدرس، ورأتنى حائراً فى تحقيق بغيتى، ذكرت مآثر أبى على التعليم، ثم قالت: كاد أن يكون أمياً إلا نه بنى المدارس وأهداها للدولة حين بارك الله فى ماله، وأنه لمن الظلم أن تكون فى هذه الحيرة لاستكمال دراستك ولأبيك كل هذا النصيب فى خدمة مواطنيه».

«وإذاً فقد أعان أبى الدولة وشاد لها المدارس، أفما يجدر بهذه الدولة أن تعين ولده وهو يسعى إلى أشرف ما يسعى إليه مواطن فى الحياة».

«وذهبت إلى بيت لطفى السيد باشا فى مصر الجديدة ومعى توصية من الشيخ مصطفى المراغى، وكان صديقاً لعمى فى الخرطوم، وقابلنى مدير الجامعة ونصحنى أن أنحى عن فكرى كلية الحقوق، فإنه لا يملك المجانية فيها، وإنما يملكها فى كلية الآداب، وأن له فى تلك الكلية تلميذاً يسوس أمورها، وهو رجل مجاهد سعى سعيى وجاهد جهادى حتى أصبح علماً يحنو على كل مجاهد مثله من فقراء المواطنين».

ولا يقف سعى إبراهيم عبده فى سبيل تمويل نفـقات تعليمه عند حصوله على المجانية فى كلية الآداب، لكن هذا السعى يمتد حتى يتاح له أن يحصل على إعـانة كبيـرة بمقاييـس ذلك الزمان تيـسر له أن ينتظم فى هذا التـعليم المجانى، وأن يتفوق فـيه وفيما يصحبـه من نشاط، وهو يدلنا على أنه كان فى وسع مجالس المديريات أن تقدم مثل هذه الإعانات القيمة:

«واشتـركنا فى كتابة رسالـة إلى مدير القليوبية نـحكى له فيها مـوقفى، ونبين له مـا قدمه أبى من خـدمات مادية للتـعليم، ونطلب إليه أن يبـصرنا كيف يعان واحد من أبناء هذا الإقليم ليتم دراسته الجامعية وهو ابن رجل له على التعليم فى مديريته يد ومعروف؟».

«وقابلنى مدير القليوبية محمد عزمى، واتفق معى على أن أكون مبعوث مجلس المديـرية فى كلية الآداب، بشرط أن أخـدم التعليم فى المديـرية بعد تخرجـى خمس سنوات، ويلتـزم المجلس مقـابل هذا بصرف راتب شـهرى قدره خمسة جنيهات».

....

ربما كان من حق القارئ أن نشـير له إلى أن إبراهيم عبده نفـسه لم يذكر لنا أن أحداً قد طالبه بعد تخرجه بأن يفى بهذا الشرط ولا بأن يقوم به، ولا بأن يرد للمديرية ما أنفقته عليه إن كان راغبـاً عن العمل فيها وفى خدمتها، ولا هو عوقب عليه.

وهكذا نستطيع أن نفـهم ذكاء مثل هذه الشروط التعـاقدية التى تدفع إلى

الاجتهاد لكنها لا تثقل أصحابها، ومن الإنصاف أن نشير إلى قيمة هذا الجو النبيل فى نمو الأمم العظيمة.

(٩)

ويتحدث الدكتور إبراهيم عبده عن الجو الذى أتاح له استكمال دراسته العليا والعمل فى الصحافة، وذلك بمعاونة أستاذه طه حسين، وعميد كلية الطب على باشا إبراهيم، ومع أنه لا يقدم الامتنان الواجب للرجلين، فإنه يقدم أقصى ما كان مسموحاً به فى العهد الذى لم يكن يرحب بالإشادة بأمثال هؤلاء الباشوات!!:

«... وخرجت من عنده [أى من عند طه حسين] بعد أن أوصى بى سكرتير الجامعة ليعيننى فى إحدى الوظائف الخالية بعشرة جنيهات، تضاف إليها جنيهات كوكب الشرق الأربعة، وهذا دخل يحسد عليه صاحبه، فإنه يساوى الآن سبعين أو ثمانين جنيهاً إذا روعيت تكاليف الحياة اليوم وتكاليفها فى تلك الأيام».

«وعدت فى شهر سبتمبر من رأس البر لأشغل وظيفة (كاتب تملّى) فى قصر العينى، وتملى هذه بشدة اللام تعنى كلمة (دائم)، فأنا كاتب دائم جعلوا اختصاصه أمور الحسابات».

«يالها من داهية! كاتب حسابات لشاب لا يعرف فى الحسابات شيئاً، ولا يفرق بين الاستمارة ٥٠ ع ح و٦٢ مكرر ع ح!!».

«يالها من خاتمة مضنية مؤذية لدراسة التاريخ الحديث والتخصص فيه على عمق ليس قليلاً أو يسيراً».

«كـاتب تملى، وفى قصـر العينـى!! حيث المرضى، والروائح الكريهـة، ومناظر الأطباء والممرضات والجرحى، والمتنيلات الصارخات اللائى يستقبلن كل صباح أمواتهن من القصر العتيد».

. . . .

وبعد أن يروى الدكتور إبراهيم عبـده بذكاء طريف بعض معاناته الإدارية فى هذه الوظيفة، ومحاولاته الاستفـزازية للخلاص من الالتزامات الوظيفية الدقيقة، يصل إلى خاتمة سعيدة لمشكلته مع الالتزام الوظيفى:

«. . . وفى اليوم الـتالى دعانى المسـجل وأجلسنى إلى جـواره، وأخذنا نترجم معـا محضر مجلس الكليـة إلى اللغة الإنجليزية، وفجـأة طلب زميلاً من زملائى الموظفين وأخذ يسبه ويـشتمه ولم يبق على واحد أو واحدة من أسرته إلا ومس عرضه وعرضهـا من بعيد أو قريب، ثم طرده من الحجرة، وقال: هكذا يجب أن يعامل كل مَنْ يتفلسف من الموظفين!».

«وبعد أن فرغنا من ترجـمة محضر مجلس الـكلية ذهبت إلى سكرتيرها وصبـى المسجل وخـدنه، وإن لم يكن فظاً أو غليظاً مثلـه، بل كان مهـذباً رقيـقاً بلسـماً للجـراح التى تخلفـها سيـاسة المسـجل وطباعـه، وقلت له: ياصاحـبى قل (للبك) المسجل، إننـى احتجـاجاً على ما صـدر منه فى حق زميل من زملائى، وإهماله لطلبى فى نقل الخـزانة أو نقلى إليها، قد قررت ألا أعـود إلى مكتبى حـتى تفـسر لى أسـباب هذه التـمـثيليـة التى تمت فى حضورى، ويتم نقل الخزانة أو نقلى إليها».

(١٠)

وهنا يأتى دور عميد الطب الذى جعل من الوظيفـة الحكومية شيئا أقرب

ما يكون إلى منحة التفرغ التى تعين صاحبها على استكمال دراسته العليا (وأداء وظيفته الصحفية) بصورة أو أخرى:

«. . . كان عميد كلية الطب فى ذلك الوقت على باشا إبراهيم أعظم الجراحين الذين عرفتهم مصر فى عدة أجيال، وكنت واحداً من موظفيه، غير أننى موظف مشاغب، كما كنت بالنسبة إليه عضواً مشاغباً فى مجلس اتحاد الجامعة، وكان هو حينئذ رئيساً لهذا الاتحاد».

«وطلبنى الأستاذ العميد حسين شكانى المسجل وقال فىّ ما قال مالك فى الخمر، وشرحت للباشا العميد وجهة نظرى فى قضية الخزانة والسلفة، وبينت رأيى فى التمثيلية التى مثلها المسجل وزميلى الموظف، وفيها من بذاءة القول ما ينبغى أن يعف عنه العاملون فى الجامعة».

«ونظر إلىّ على باشا وفى عينيه ما فى قلبه من عطف وإيثار، ومنحنى حق التغيب عن الكلية والعمل فى جريدة كوكب الشرق، فذلك ـ كما قال الباشا ـ العميد مكانى الطبيعى وليس مكانى السلفة والحسابات، ولا بأس على الدولة أن تنقدنى الجنيهات العشرة أول كل شهر، فإنى أخدم مهنة على أى حال».

ونتأمل فى تأرجح موقف إبراهيم عبده وتفكيره فى دوافع سلوك الرجل العظيم من وجهات نظر متعددة:

«وعجبت أن تكون وظائف الدولة هكذا خلعاً يتصرف فيها الرؤساء على هواهم، وسرنى ما صنعه الباشا، فذلك غاية مناى وأمنية حياتى، أن أعمل فى الصحافة وضمان الرزق موفور وأكيد!».

«ولكن الرجل كان أحصف منا جميعـاً، كان يريد أن يبعدنى عن موظفيه حتى لا أبث فيـهم روح الثورة على النظم المعمول بهـا، وعلى باشا إبراهيم كان وئيد التطور، وغير مكروب على التعلق بجديد».

«وكان وجود موظف يحمل درجة الليسانس فـى قصر العينى شيئاً طريفاً يخالف المفهوم فى اختيار الموظفين، وهم عادة غير مؤهلين، وإن تأهلوا فما ينبغى أن يحـدث ذلك فى طفرة ويكون منهم جامعـيون! إن ذلك فى الحق شيء غير مقبول وغير مهضوم؟!».

«ورأى الباشا العميد فى ندبى للعـمل فى كوكب الشرق إغلاقاً لباب يأتى منه الريح، فـمن يدرى؟ أبعـيـد على هذا الموظف المشـاغب أن يذهب إلى جـريدته فيكتب فى قـصـر العينى وإدارته مـا يفسـد هدوء العـاملين فيـه، الراضين عن سوءاته، المؤمنين بأن ما فى القصر هو خير ما يكون!».

. . . .

(١١)

وينفـتح أمام إبراهيم عـبده باب جـديد للرزق أكثـر دخلاً، وأقـرب إلى نفسه، وهو يعـترف أن هذا الباب فتح بمعـرفة أصدقائه القـريبين، وأنه كان باباً ظريفاً متوافقاً مع طابعه ونشاطه وماضيه القريب:

«. . . استـقلت فى نهاية الشهـور السبعة من وظـيفتى العتـيدة، ودهش كثـيرون لهـذه المغامرة الخـطيرة، فقـد كانت الاسـتقالة من عـمل حكومى مغامرة، خاصة إذا كنت على درجة دائمـة، وكانت الدرجة الثامنة بجنيهاتها العشرة فى تلك الأيام وظيفة يسيل من أجلها لعاب مئات من الزملاء!».

«واستقلت باتفاق مع صديقى فريد زعلوك وكيل اتحاد الجامعة والطالب بكلية الحقوق، ونور الدين طراف سكرتير الاتحاد والطالب بكلية الطب، فقد اختارنى لإدارة هذا الاتحاد براتب خمسة عشر جنيهاً، فضلاً عن سلطات ملحوظة فى إدارة الاتحاد، والقيام على خدمة لجانه المختلفة، وهى لجان كان لى فيها أيام التلمذة نشاط ملحوظ».

(١٢)

وتأتى مرحلة العمل فى الجامعة التى تهيأت لإبراهيم عبده بسهولة، وهو يتحدث عن فضل أستاذه الدكتور محمود عزمى فى ضمه لأسرة الجامعة بناء على توصية الأستاذ أحمد الصاوى محمد وذلك بعدما نال الماجستير فى تاريخ الصحافة:

«. . . وفرغت فى ذلك الحين من اجتياز امتحان الماجستير عن جانب من تاريخ صحافتنا، والتقى حصولى على هذه الدرجة العلمية بالتفكير الجدى فى إنشاء معهد للصحافة فى كلية الآداب».

«ودُعى محمود عزمى، كنت أعرفه باسمه دون رسمه، إلى تنظيم دراسات هذا المعهد، وقد استطاع أن يرتب له ويعد المواد الملائمة لنجاحه، وجعل طلابه من حملة الليسانس أو البكالوريوس بعد أداء امتحان عسير».

«وفى ذلك الوقت كانت تربطنى بالأستاذ أحمد الصاوى محمد صداقة ومودة، وهو فى الوقت نفسه صديق للدكتور محمود عزمى، فاقترح عليه أن يستعين بى معيداً فى معهد الصحافة».

«وقابلت محمود عزمى فى (بار اللواء)، وهو مكان كان يلتقى فيه عادة

الصحفيون والرقباء، وكنا فى سنة ١٩٤٠، وفى أول العهد بالحرب العالمية الثانية، وتحدثنا وكأنه يجرى لى اختباراً، وأعجبنى الرجل وأحببته، وقد ندبنى معيداً له، وكنت بذلك فى تاريخ معهد الصحافة أول معيد».

. . . .

وينطلق إبراهيم عبده إلى الثناء على محمود عزمى وشخصيته وأستاذيته وجهاده من أجل وطنه متعجباً من أنه لم ينل حظه من التقدير الرسمى والصحفى:

«. . . ومن عجب أن مثل هذا الرجل العظيم لم تعرف له الصحافة مقامه المقدور إلى اليوم، ولم تسع لتخليد ذكره فى لوحة أو تمثال أو كتاب، ومن عجب أن هذا الرجل العظيم الذى أنشأ معهد الصحافة وذاد عنه خصومه، ووضع له الأسس وأرسى القواعد، لم يذكره هذا المعهد أو هذا القسم بكلمة خير، كأن نكران الجميل طبع فى أهل العلم، وإن علمونا أن نكران الجميل لا يكون إلا فى القلوب التى خوت من كل معنى جميل».

«وقد بدأت مع محمود عزمى فى معهد الصحافة كما يبدأ الصبى المؤمن بأستاذه، وأخذت أدنو إلى قلبه كما يدنو الابن من أبيه، فلم تمض شهور إلا وأنا جزء منه فى كثير من الآراء والأفكار».

«كنا نختلف فى السياسة وفى الدين، فهو لم يكن يؤمن بالوفد، وأنا كنت قريب الصلة بخيار الوفديين، ولى رأى طيب فى منهاج سياستهم العامة، وكان هو لا يؤمن بدين، فالدين عنده المعاملة، وأنا شاب مؤمن بدينى وأتعصب له أحيانا تعصب الجامدين».

(١٣)

ويقدم الدكتور إبراهيم عبده صورة بانورامية لشخصية محمود عزمى وتوجهاته السياسية والفكرية والدينية، وهو لا يصوره ملاكاً وإنما يصوره بشراً له عيوب لكن له العذر فيها:

«. . . وفيما خلا أمور السياسة والدين كنت أحب كل شىء فى عزمى، وأرى فيه قدوة تحتذى، خاصة فى مناهج الدرس، وتبرمه الشديد بأوضاعنا الاجتماعية والسياسية التى ترضى لشعبنا هذه الحياة الذليلة التعسة الخالية من كل معانى الحياة».

«وكانوا يتهمونه بالشيوعية، وأنه زوج لسيدة روسية حمراء، لكن الرجل لم يكن شيوعياً، بل كان يأمل أن يعيش كل الناس فى مستواه، وكان هذا مطلباً عسير التحقيق فى أى مذهب سياسى، لأن حياته لم تخل من الترف له ولزوجه ولكلبته بوشكا!!».

«وكان محمود عزمى معدناً طريفاً غالياً يستحق تقدير الوطن. كان يكره الملكية، ويعتقد أن النظام البغيض هو أس تأخرنا، ويؤمن بأن أخلاق الشعب المصرى ستكون جديرة بالذكر والافتخار إن جاء يوم ونحى هذا الشعب عن رقابه كابوس الملكية، خاصة كابوس الطفل فاروق!».

«وعجبت للرجل. . .».

«كان رقيباً للصحف فى أعطاف رقابة إنجليزية، وكان مستشاراً فى الحكومة، وكان أستاذاً للفن الصحفى، ومع ذلك فهو يجهر بهذه الآراء لا

فى خفية، بل علانية فى بار اللـواء، وفى محاضرات المعهد، وفى الطريق العام».

«كان يقول: يا أستاذ أنا مع الغرب حتى ينتصر الروس والأمريكان، وأنا فى الحكومة بآرائى هذه وأفكارى هذه حتى تضـيق بى الحكومة، وأرجو أن تكون معى فى المعهد حتى نمكن لهذه الأفكار فى ضمائر هؤلاء الأولاد!».

«وبذلك فسـر لى لماذا كان رقـيباً للصـحف، وماذا يعنى من إقـباله على معهد الصحافة وليس فيه رزق موصول جدير بهذه العناية وهذا الإقبال».

«لم تخل سـيرة عزمى مـن مآخذ، لأنه إنسـان، وكل إنسان عظيـم تعد هفواته وتحسب له سوءاته، وهى عادة كم قليل».

«أنا مدين لهـذا الرجل السنوات التى جلست فيـها إلى جواره معـيدا فى معهد الصحافة. فقد تعلمت كيف يملك الأستاذ المحاضرة والمستمعين إليها، وكيف يجادل ويحسن الجدل، وكيف يكون جريئاً فى الرأى، وكيف يعترف بالخطأ إن كان ثمة خطأ فى فكرة أو معنى».

«لم يكن يبـخل علىّ بالتشجـيع، وكان يقـول لتلاميـذه، وكانوا بضـعة طلاب كبـار وطالبة واحدة، وكلهم أكـبر منى سنا وأنا أحدثهم تخـرجاً فى الجامعة، كـان يقول لهم: إذا ذكرنا تاريخ الصحافة المصرية فـإننى مرجعه، وإنه ليأخذ منى ليعطيهم، وكم أخجلنى تواضعه».

....

(١٤)

وهو يتـحدث عن المكانة الرفـيعـة التى أحرزها فى الجـامعة والـتى كان

الفضل فيها يعود إلى محمود عزمى بالمقام الأول:

«. . . كان يكلفنى إلقاء بعض الدروس عنه ولا يتركنى حتى لا يأكلنى الأولاد على حد تعبيره! ولم يتركنى ألقى محاضراتى وحدى إلا بعد أن اطمأن إلى أننى أخذت نهجه، وعرفت طريقته، وملكت جزءاً يسيراً من طرائق جدله ونقاشه».

«أمضيت ثلاثة عشر عاماً أستاذاً فى معهد الصحافة، وهنا أصدرت أحسن كتبى، وكنت حريصاً أشد الحرص على أن آخذ سمت الأستاذ الذى يتحرج من الكبيرة والصغيرة على السواء، ويأبى أن تبدو له عورة فى عمله أو خلقه، أو تحوم حوله شبهة تقوى على إحراقه، أو مس ظفره».

«وشعرت فى الجامعة بحريتى كإنسان مفكر، أذيع الرأى الصحيح، وأقول كلمة الحق، وأحكم فى الأمور بصدق فى غير تهيب أو حياء أو خجل».

«وكنت قد حصلت على درجة الدكتوراه، ثم مضت الأيام تجرى وشغل عزمى بواجب جديد لوطنه فى هيئة الأمم، فأخذت مكانه فى سياسة شئون المعهد، وكطبعنا فى بلادنا لم يسغ كثيرون أن تلقى المسئوليات على كاهل شاب بدافع من الحقد أو الغيرة، أو بدافع من حب البقاء، البقاء للشيوخ وحدهم، وهذه جبلة الأجيال المريضة التى تريد للحياة أن تقف دون تقدم أو ارتقاء».

(١٥)

ويتحدث الدكتور إبراهيم عبده عن معاناته فى أداء وظيفة الأستاذ بسبب

حرصه على الاستمرار فى العمل فى الصحافة، وهو يقدم وصفاً شائقاً (ومبكراً) لنشاط أستاذ الجامعة الذى يجمع بين عمله فيها وبين نشاط مهنى آخر، وكيف يجلب مثل هذا النشاط الانتقاد لصاحبه:

«كنت مدرساً نشطاً فى سنة ١٩٤٥».

«غيرى ملأ الفراغ بلعب النرد، أو الورق، أو السهر، أو الزيارات، وملأته بالعمل الذى أحبه وأخلق فيه».

«انصرفت إلى تحرير مجلة نسائية، وأشرفت على إصدار مجلة للأطفال سميناها (الكتكوت)، فصرخ المختلفون كيف لهذا الشاب أن يفيد ويستفيد؟!».

«وذهبوا إلى مدير الجامعة وفى يمينهم قالة السوء عن أستاذ الصحافة، كيف يخرج على تقاليد الجامعة وآدابها ويشتغل بالصحافة؟!».

«وطلبنى المدير».

«هل أنت الذى تصدر مجلة الكتكوت؟».

«نعم».

«هل يليق بأستاذ أن يصدر مجلة للأطفال؟».

«الرأى عندى أن إصدار مجلة للأطفال لا يقل قدره ولا شرفه عن إصدار صحيفة كجريدة الأهرام».

«أما وجدت أكرم من لفظ كتكوت؟».

«إن الكتكوت لفظ دقيق لطيف لكل شيء صغير، وهي مجلة للأطفال، وكل طفل.. كتكوت!!».

«أما كان يحسن أن تختار للتطبيق العملي مجلة غير مجلة للأطفال؟!».

«إني تلميذ سعادتك.. فأنت أعظم طبيب يحسن علاج الأطفال في مصر، إنني إنما أحاول أن أنهج نهجك، وأقفو أثرك».

«وهنا وقف سعادة المدير فانصرفت، وبعد أيام نقلت من كلية الآداب».

«كنت أظن أن نقلي من كلية الآداب جاء تحقيقاً لرغبة مدير الجامعة الذي ساءه أن يشغل مدرس الصحافة في كلية الآداب وقته وفنه في إصدار مجلة للأطفال ويسميها الكتكوت!».

(١٦)

على هذا النحو تنتهي القصة التي يمكن وصفها بأنها ممكنة الحدوث، لكن إبراهيم عبده سرعان ما يردف هذه القصة بقصة فرعية أخرى تبدو وكأنها فرضت على القصة الأصلية لغرض في نفس يعقوب، ذلك أن مضمون محتوى هذه القصة المقحمة يتنافى مع ما نعرفه من أن كثيرين انتقدوا الخديو إسماعيل بأكثر من هذا الذي فعله إبراهيم عبده دون أن يصيبهم ضرر:

«والصحيح أنني نقلت من كلية الآداب لأنني سجلت كلمة حق في كتاب، تضمن كتابي فصلاً عن الصحافة في عهد الخديو إسماعيل، ذكرت فيه أن الخديو المذكور كان ضرورة لمصر بخيره وشره».

وهو يروى أن خروجه الأول من الجامعة كان ضمن سبعة وعشرين أستاذاً ومدرساً، وأن هذا الخروج لم يدم كثيراً وإنما أعيد هؤلاء (باستثناء واحد فقط) بعد شهور قليلة:

«... ونقلت فى هوجة التصفية، وكانوا يقصدون بالتصفية نقل غير الصالحين من الأساتذة والمعلمين بمناسبة تطبيق كادر القضاء على أعضاء هيئة التدريس فى الجامعة!».

«وبالطبع كنت واحداً من غير الصالحين وعددهم سبعة وعشرون أستاذاً ومدرساً».

«ثم سقطت وزارة صدقى باشا وجاءت وزارة أخرى وفيها وزير للمعارف جديد، راجع التصفية فأجرى فيها تصفية أخرى، عاد على إثرها إلى الجامعة ستة وعشرون أستاذاً ومدرساً من المنقولين، وكنت واحداً من العائدين!!».

«ومع هذه الهزات الخطيرة فى حياتنا العلمية، كنا ننتج ونؤلف ونعلم بشرف وأمانة».

(١٧)

وعلى نحو ما رأينا من اعتزاز إبراهيم عبده بإصداره مجلة الكتكوت فإننا نراه حريصاً أيضاً على أن يظهر اعتزازه بالمجلة النسائية التى أشرف عليها، وهو يرى هذه المجلة التى لم يذكر اسمها بمثابة أنجح المجلات النسائية، كما يشير إلى أن علاقته بها كانت علاقة عضوية:

«. . . وكنت فى ذلك الوقت أشـرف على تحـرير مجلـة نسائيـة، وهى المجلة النسائية الأولى التى عرفها الشرق العربى كاملة المعانى، مستكملة كل أسـباب النـجاح، وهى شىء عظـيم فى تاريخ الصـحافـة المصـرية، وعلى صفحاتها برز كتاب كثـيرون وفنانون يشار إليهم فى كل حين، وكان من بين مَنْ تجلت ملكاتهم صـديقى كـمال الملاخ الفنان الموهوب، وكنت أرجـو أن يمضى كما كان، مفتناً بريشته لا كاتباً بقلم هادئ أو عنيف».

«لقد كانت المجلة منى فى مقام الـبنت أو الولد، وقد فتحت لى صدرها فى الشدة والرخاء، ومنذ احتجبت عن الصدور لم أفكر، إلا مسوقاً بسلطان الحاجة، فى إنشاء مقال أو كتاب أو حديث يذاع هنا أو هناك».

(١٨)

ويبدو حب إبراهيم عبده لدوره فى معهـد الصحافة قريباً إلى قلبه، وهو حب يرقى إلى الوله الذى لا نهاية له، وهو على سبيل المثـال يتحدث بفخر عن زملائه وتلاميذه فى معهد الصحافة:

«كان مـعهد الصحـافة شيئـاً متحركـاً، ندب للتدريس فيه نخـبة من أهل الفن، زكى عبد القادر، ونجيب كنعان، والسـيد أبو النجا، ومحمد رفعت، وإبراهيم المازنى، وغيـرهم كثير، وقـد جاءوا بأفكارهم وتجاربهم، فـخلقوا جديداً وأذاعوا طريفاً، وجعلوا فى معهد الصحافة حياة وحيوية».

«كنت أرتب لتلاميذى دراسات عملية فى الصحف، ومن تلاميذى الذين أفخـر بجهـادهم ونشاطهم الدكـتور نجـيب أبو الليل، وهو عندى أكـبر من تلمـيذ، وأدنى إلى القلب من صـديق وحـبيب، والدكـتور خليل صـابات

وتربطني به مودة الأستاذ ومحبة التلميذ، وإيثار الصديق للصديق، وكمال عبد الحميد، ومحمود الجوهري وغيرهم من عشرات تضيق الصفحات عن ذكرهم، ويؤذيني أن أنسى سائر المئات من الأسماء التي كان لي في تنشئتها نصيب، فالأسماء التي حضرتني هنا أبقى أصحابها على مفهوم ما بين الأستاذ والتلميذ، فما روتهم نازلة أو غاشية، ولا جروا - في الشدة - من إفريز لا فريز؟!!».

(١٩)

ويتحدث إبراهيم عبده عن محاولات أخرى استهدفت إخراجه من الجامعة، سواء أكان هذا الإخراج للتكريم أم للعقاب، لكنه يقدم النص الذي يروي به قصة هذه المحاولات بطريقة ملتبسة تجعل الحدث أميل إلى الانضواء تحت راية العقاب:

«. . . كنت سعيداً في كلية الآداب بما قسم الله لي من حظ موفور، وكدت أذهب عنها مرتين، مرة سنة ١٩٤٣ حين فكر وزير صديق في نقلي إلى وزارة الشئون الاجتماعية، وقد اعتذرت عن العرض في ذلك الحين، ولم يقدر الرجل عليها في المرة الثانية سنة ١٩٥٠، لأن الوظيفة التي عينها لي كانت وظيفة مدير المطبوعات والنشر، وهي وظيفة حساسة تحتاج إلى إيمان بالحاكم، واعتقاد شديد في رسالته، ولم أكن هذا الرجل الذي يرضاه رجال حزبه، فلست ذاهباً إليهم في الرأي، وإن لم أختلف معهم في النظر إلى المعالي من الأمور».

«والحق أن الوزير الصديق كان رجلاً واسع الأفق في سياسة الدولة، كان أصدقاؤه ومعارفه من غير حزبه أكثر من أصدقائه ومعارفه الحزبيين،

ولو كان بيده لملأ الوظائف الكبيرة بكل خبير، واستعان فى شئون الحكم بكل منتج ومفيد».

«وكنت فى محاضراتى أواجه بالمناقشات السياسية، وتدريس الصحافة وتاريخها وفنونها يفرض هذه المناقشات، وكنت أعلم أن من بين تلاميذى تلاميذ من كل مذهب ودين، وكان البعض يضايقه نقدى لسياسة الحكم من وزارة وبرلمان، وتعقيبى باللائمة على بعض الوزراء وبعض النواب، إذ فجعنى أن أجد من بين أعضاء البرلمان صاحباً لى يقف وسط النواب ويدافع عن (الطافية)، والطافية أحط أنواع الخمور والمسكرات!!».

....

ومن الطريف أننا نفهم دون عناء أن الوزير الذى يتحدث عنه إبراهيم عبده هو صديق فؤاد سراج الدين باشا الذى كان وزيراً للشون الاجتماعية فى ١٩٤٣، وأصبح وزيراً للداخلية فى ١٩٥٠ ، ومع هذا فقد كانت الإشارة المتكررة إلى اسم فؤاد سراج الدين فى كتاب يصدر فى الستينات أمراً غير مستحب ولا مقبول .

(٢٠)

وهو يتحدث عن تجربته مديراً للمطبوعات والنشر فى عهد على ماهر دون أن يشير إشارة واضحة إلى السبب فى هذا الاختيار:

«ندبت مديراً للمطبوعات ورقيباً للنشر عقب حريق القاهرة فى ٢٦ يناير ١٩٥٢».

«كنت أستاذا مساعدا للصحافة فى الجامعة، وهذه وظيفة علمية تحتاج إلى تطبيق عملى، وإدارة المطبوعات تراقب المسرحيات وأفلام السينما والاسطوانات وما إلى ذلك من الفنون الرفيعة ذات الأثر البالغ فى حياة شعبنا وسائر شعوب الوطن العربى التى تسمع أغانينا، وتشاهد أفلامنا».

«ورقابة النشر تعنى مراجعة ما ينشر فى الصحف والكتب والمجلات قبل طبعه، وهو عمل غريب على معلم للصحافة، غير أنه مران طيب على المواءمة بين المحظور والمنشور».

«وبروح الأستاذ الجامعى وضعت قواعد لمعالجة الصلة بين إدارة المطبوعات والصحف من ناحية، وبينها وبين أصحاب الفنون التى ذكرتها من ناحية أخرى، ورأيت ألا أستقل بالرأى أو أنفرد بقرار».

«دعوت نحو مائة فنان وفنانة من رجال المسرح والسينما لتناول الشاى فى بيتى، لأناقش معهم القواعد التى سيصدر بها قرار وزارى، وحضر الاجتماع أم كلثوم، ومحمد عبد الوهاب، وجورج أبيض، ويوسف وهبى، وفريد الأطرش، وكبار الممثلين والممثلات، وكبار المخرجين فى المسرح والسينما، وتناقشنا فى اللائحة التى صدر بها قرار وزارى بعد أيام جاء طبقاً لرغبات هذه الصفوة المرتجاة، وسجلت الصحف والمجلات صوراً للحفلة وما اتخذ فيها من قرار».

«ماذا قال المجتمع؟».

«سخط بعض المسئولين فى الجامعة لأن أستاذاً سمح لنفسه أن يختلط بالممثلين والممثلات، وأن يظهر فى الصور معهم، وأن يجلس بينهم، وإنها

لهنة ما يجوز أن تفوت دون سؤال هذا الأستاذ عما ارتكب فى حق الجامعة وتقاليدها من إثم خطير، وشر مستطير؟».

«أى والله.. حدث هذا فى سنة ١٩٥٢، وسجل فى أوراق رسمية لاتزال تحيا فى الأضابير».

«ليس هنا محل للدفاع عما ارتكبته من إثم وشر! فالفن وأصحابه ظاهرة اجتماعية أعز من أن يجرحها غبى، وأكبر من أن يمسها جهول، والفن فى ذمة الجامعات ذات الأصالة شىء جدير بأن تكون له كراسى، وخليق بأن يكون له أساتذة ومعلمون، وهو قديم فى الحضارة قدم الأولين من يونان وفراعين، وأن الحضارة من آلاف السنين تدين لفنون التمثيل وما دار فى فلكها من فنون».

(٢١)

ويروى إبراهيم عبده أيضاً موقفه من السماح بعرض بعض الأفلام المعطلة، وما جره عليه هذا الموقف:

«وجدت فى إدارة المطبوعات عشرات من الأفلام المعطلة بحجة أو أخرى، فراقبتها بنفسى، وأجزت عرضها على مسئوليتى، وكان هناك فيلمان، أحدهما مصرى والآخر إيطالى، وكان عرضهما فى دور السينما مشكلة سياسية خطيرة فى تلك الأيام، وحذرنى الموظفون من خطورة الموافقة عليهما».

«وكان الفيلم الأول فى عهد خليفة من خلفاء بغداد ثار عليه الناس وحرقوا العاصمة، وكنا لانزال نعيش فى دخان حرائق القاهرة».

«وكان الفيلم الثانى يمثل فقر الشعب الإيطالى، وإهمال حكوماته فى رفع مستواه، وهنا قياس يعيش على مستواه شعبنا، وعرض مثل هذا الفيلم دعوة صريحة للتبرم والضيق، أو دفعة إلى تفتيق الأذهان لتغضب وتثور».

«ونفضت نفسى من صدرى وناقشتها، ماذا يضيرنى لو وافقت على عرض الفيلمين؟ وماذا ألقى من عقاب إذا تم التنفيذ وترتبت عليه المتاعب؟ قد يلغى ندبى وأعود إلى الجامعة، قد يحال بينى وبين ترقيتى إلى كرسى الأستاذية، وحدثتنى نفسى أنى لن أشنق على أى حال!».

«وأعدت نفسى إلى صدرى، وطلبت أنور وجدى صاحب الفيلم الأول، وكان الرجل قد فزع إلىّ من قبل معلنا خراب بيته إن لم يعرض فيلمه، فقد غامر فيه بكل ماله وصحته بعد أن وافقت المطبوعات على الموضوع والسيناريو، وترك عنقه - على حد تعبيره - بين يدى مدير المطبوعات، واتفقنا على عرضه فى دور السينما فى القاهرة والأقاليم فى وقت واحد، وخلال فترة العيد حتى إذا انتبه رجال الملك وعيونه إلى ما يعنيه الفيلم ورأوا مصادرته استحال عليهم الأمر إلى أن تنتهى إجازة العيد».

«وعُرض الفيلم فى عدة دور سينمائية فى القاهرة ومعظم دور السينما فى الأقاليم فترة العيد، وهى فترة مجزية، يشاهد فيها الناس الأفلام بسخاء، فلما عدت إلى عملى بعد إجازة العيد صادرت الفيلم فى القاهرة، وتلكأت فى مصادرته أياماً حتى استنفذ غرضه فى الأقاليم».

«أما الفيلم الثانى فقد أجزت عرضه ثم ألغى ندبى، وقدر له الظهور والعرض على الجمهور، وكتب إحسان عبد القدوس فى ١٤ يوليو ١٩٥٢ فى روز اليوسف يثنى على الفيلم، ويذكر بالخير مَنْ وافق على عرضه».

«والفيلم الوحيد الذى لم أوافق عليه كان يعالج بعض المشاكل الدينية التى كانت قائمة فى ذلك الوقت، وغضب لذلك صاحبه، ومضى يهاجم عقليتى الضيقة، وتفكيرى المحدود».

«وبعد إلغاء ندبى حاول صاحب الفيلم الإفراج عنه، ودعا فى عرض خاص كبيرا مسئولا وكانوا قد أفهموه أن عقلية رجعية هى التى حالت بين هذا الفيلم وبين ظهوره على الشاشة، فلما بدأ العرض وقفه الكبير المسئول بعد دقائق وذكرنى بالخير وبارك ما صنعت، وأنب مدير المطبوعات تأنيبا شديدا، وقيل إن صاحب الفيلم أسقط فى يده ومرض شهورا».

(٢٢)

على كل حال فإن إبراهيم عبده يلخص رأيه فى تجربته فى العمل المبكر بعيداً عن الجامعة، فيبدو من آرائه أنه كان يعشق العمل فى الجامعة ويتمنى البقاء فيها:

«كانت الشهور الخمسة التى أمضيتها مديراً للمطبوعات شهوراً عصيبة، قاتلة للصحة والعافية، فقد كنت أحاضر فى الجامعة، فوق مسئوليتى كرئيس لمعهد الصحافة، وكنت أبقى فى مكتبى من أجل الصحف إلى الفجر فترة من الزمان، وكنت حين أريد عرض أمر على الوزير أذهب إليه فى يوم الأحد وأقابله فجر الاثنين، وكنت أراجع كتابا لى عن الصحافة الأوروبية وأراقب طبعه، ومع ذلك زاد وزنى وبدت صحتى على أحسن ما تكون».

«لقد رأيت فى المطبوعات والنشر سلطان الحكومة فى أوجه، جعلوا لى فى أول الأمر سيارة خاصة يقودها جندى مسلح، ويجلس إلى جانبى جندى مسلح».

«وكان أحد الجنديين يصحبنى فى مصعد الإدارة بمسدسه عامر الطلقات، ولم يكن أحد يخاف هذا الجندى مثلما كنت أخافه أنا، ماذا لو انطلقت رصاصة خطأ من جراب مسدسه واستقرت فى وسطى فى زحمة المرور، أو زحمة الصعود؟؟!».

(٢٣)

ها نحن قد طالعنا صورة تكوين هذا الأستاذ الجامعى الممارس للمهنة خارج الجامعة على نحو دقيق أبان عن عناصر هذا التكوين ودور البيئة والمجتمع فيهما، وأظن من حقه علينا أن نطالع رأيه فى تكوينه الروحى الذى أجاد التعبير عنه وهو يتحدث عن علاقته بوالديه، ونحن نرى إبراهيم عبده يقدم صورة والده بوله شديد على الرغم من أنه يذكر من البداية أنه لم يره رأى العين، لكنه مع هذا ظل يراه فى سيرته نموذجاً حقيقياً بأن يقتدى به فى كل خطوات حياته.

وهو يفتح مذكراته بالحديث عنه بجملة استهلالية تمثل الغاية فى الاستهلال القوى:

«كان هذا الرجل أعظم الرجال عندى.. إنه قدوتى ومثالى.. إنه الإلهام الذى وجه حياتى.. والنبراس الذى مضيت على أضوائه، وخطوت على نوره».

....

وهو يصل فى تقديره لوالده إلى حدود قصوى من التقدير والإجلال والامتنان، وهو يعبر عن هذا الإجلال والتقدير لسيرته فى مواضع متعددة

من مذكراته، لكنـه مع هذا وبذكاء الناقد المؤرخ حريص على تأكـيد أهم ما فى تاريخ والده وهو الذكرى الطيبة التى امتلكها هذا الرجل:

«. . . كـان مجـاهداً فى وطنه وأهله وصـحبـه، وكان فـقيـراً ذا عيـال ومسئوليـات، فلم يقفه الفقر عن السعى الحثيث، ولا عـرف فى المسئوليات الفرق والخوف، ولا اسـتند فى كفاحه إلى بيت قديم أو اسم كـبير لأب أو عم أو خال، ولا غرته الدنيا حين أقبلت بغير حساب، ولا حبس عن إنسان يدا استطاعها، ولا شاقته فى الرزق الواسع متعة من تلك المتع الصغيرة التى تلفتنا عن واجبات الرجولية والتزامات الرجال».

«. . . عاش متفـانياً فى عمله، وهى أجمل الخلائق فيـه، مؤمنا بطيره، مؤدياً واجباته نحو دنياه وآخرته، لم تؤثر عنه خلة تشكى أو صغيرة تروى، أو غلطة تحسب عليه».

«إنه سيرة فى بنها يتناقلها الناس كـأنها العطر الطيب، وإنى لأنصت إليها وفى عينى دموع الفرح والاعتزاز بالسيرة التى مضى صاحبها ولكل بنهى فيها حق ونصيب».

«. . . مات عنى وأنا جنين لـم أعرف الدنيا، فلمـا عرفتهـا عرفت فيـها أبى، فجعلته قدوتى ومثالـى، وجاهدت ولا أزال أجاهد لأكون بعضه، فإنه معدن نادر بين معادن الرجال، وهيهات أن نكرنه! وقد صنع نفسه».

«ونحن قد عشنا إلـى مدى بعيد على سيـرته، وتعلقنا بأذيالها، ولا نزال نحيا فيها كلما تحزب الأمر، أو ضاقت بنا السبل».

ومع أن مذكـرات إبراهيم عبـده حافلة بالحـديث عن المواضع التى نشب الخلاف فيها بينه وبين والدته التى كانت تتعجل فرحتها به وحرصها على أن ترى أولاده، مع هذا فـإن هذا الحـديث لا يحـجب عنا إعـزاز هذا الرجل لهذه السيدة وتعلقه بها، وهو يحدثنـا عنها حين توفيت حديثاً مؤثراً ويصف وفاتها بأنها كانت أعمق المحن وأدقها:

«. . . كان مـوتها شيـئاً مـؤذياً لنفسى وقلبى، وما كـنت أظن أنها تموت مبكرة، ولو عـاشت مائة سنة لظننتـها ماتت مـبكرة أيضاً، فإن فـقدان الأم شىء فظيع جداً، سواء كنا فى المهد أو بلغنا من العمر أرذله».

«ماتت أمى وهى تبـارك نشاطى وكفـاحى، وتذكى فى نفسى الحـماس، وتهبنى شجاعة فى عـصيب المواقف، وقد بكيتها أياما كثيـرة، وافتقدتها فى أيام كثيرة».

ويتحدث إبراهيم عبـده عن أزمته النفسية بسبب غياب والـدته فيشير إلى أنه عانى الوحدة منذ توفيت:

«لا تقتـصر النكبـة فى أمى على موتـها، فذلك كـتاب مـرسوم وقـضاء محتـوم، بيد أنها الوحدة التى أحـسها دائما منذ وفاتهـا إلى اليوم. هذه هى النكبـة التى تلازمنى، فقـد كنت زوجا لسنوات وسنوات، وأنا أب لشـابين كبيرين، وربما أصبحت جـداً يوم يصدر هذا الكتاب، ولى مئات من المعارف والأقارب، وعشرات من الأصدقاء، ولكننى وحيد!!».

«الوحـدة لا تعنى أن يكون الإنسان بغـير ناس، الوحـدة شعـور داخلى

عميق، وفراغ هائل مخيف، لا يملؤه الزواج، وقد يشغل بعضه الولد، ولا يغنى فيه الناس».

«أمى وحدها التى كـانت تذعر أن مرضت، وأمى وحـدها التى كانت لا تنام إذا طال بى السهـر، وأمى وحدها التى كانت تنكر أننى أكلت وشـبعت مهمـا أسرف فى الطعام، أو أتخم من طيبات مـا كانت تصنع لى من ألوان! وأمى وحدها الـتى كانت تخاف علـى أموالى، وتخشى أن تضـيع إلا على نفسى، بل كانت تهبنى كل ما عندها من مال قليل».

«أمى وحدها التى عـاشت لى مجـزية معطيةً، وكل الـناس حتى مَنْ هم منى وأنا منهم، كنت لهم نهبا».

«هات، هى الكلمة الوحيـدة التى سمعتهـا منهم، وهات هذه كانت تقال فى الضرورة وفى التافه من الأمور، فى الشدة وفى الرخاء».

(٢٥)

وهو فى كل الأحوال التى مـر بها حريص على التـعبيـر عن إيمانه بالله وقدرته على توفيقه وعونه:

«فى أعماقى إيـمان بالله وقدرته، وإحســاس عميق بأنه سبحـانه وتعالى دائماً إلى جانبى، وقد رأيت الله فى إحسانه إلىّ منذ نشأت صغيراً مضيعاً لا أعرف لى قراراً ولا مصيرا».

«رأيت إحســانه يوم دخلت المدرسة الخديوية، ويوم التـحقت بالجامـعة، ويوم استقلت من وظيفتى، وهى أيام عصيبـة قصدت فيها أعتابه فأنارت لى

الطريق، لذلك أرانى عارفاً بالجميل، أخافه وأخشاه، وأتحدث بنعمائه وأفيض فى بيانها، وأذكره كلما اسودت الدنيا فى وجهى، أو غمرت حياتى إشراقة النصر والتوفيق».

«إن هذا الذى يربطنى بالله عظمت جبهته، وتعالت قدرته، هو الذى شمخ بأنفى فى النوازل، ورفع من شأنى فى المحن، وجعلنى قوى القلب، قوى الجنان، فإنى أؤمن بجبهة مَنْ تنهار أمام جبهته الجبهات، ويضؤل إزاء جبرورته جبروت المتجبرين، وتصغر المردة أمامه فإذا هى أقزام».

(٢٦)

ومن حسن حظ القارئ أن إبراهيم عبده قد أجاد فيما سجله فى هذا الكتاب تصوير بيئات التعليم التى عاشها، ومن الطريف أن مقصده من هذا التصوير ربما كان شيئاً آخر غير الذى نجده فيه بعد أربعين عاما من كتابته له، فهو يسجل معنى جميلا أحس بجماله وبأنه يستحق التسجيل، ونحن الذين نعيش فى ٢٠٠٧ وما حولها نرى فيما يرويه ويصوره شيئا نفتقده بشدة ونأسى عليه، ذلك أنه يصور أبناء مصر فى عصر الملكية والجاهلية والإقطاع وهم ينصهرون فى تعليم واحد صرنا نفتقده الآن مع أننا نعيش فيما نسميه عصر الديمقراطية والجمهورية والمساواة، وانظر إلى هذا التصوير الدقيق الذى يقدمه إبراهيم عبده:

«أتممت دراستى الثانوية فى جو اجتماعى وسياسى لم يكن لى به عهد، فأنا تلميذ فى سنة أولى سادس بين ثمانية وعشرين تلميذاً، منهم خمسة من أبناء الباشاوات، وأربعة عشر آخرون من أبناء البكوات».

«كان فصلاً مختاراً حسب تقاليد العصر وطقوسه».

«ومع ذلك اشتهر فصلنا بأنه دون الفصول أدباً وتأدباً، وكنا مكرة ملاعين، خاصة مع الدكتور سرفيه أستاذ اللغة الفرنسية، وأستاذى اللغة العربية والدين».

«وقد كان ضرب التلاميذ وسبهم ممنوعاً على الأساتذة والمعلمين، ولكن فعالنا أباحت لكل معلم أن يضربنا ويسب آباءنا ويقرنهم بالكلاب والحمير! وكان من بين زملائى ابن وزير المعارف زكى باشا أبو السعود، وابن عبد القادر باشا الجمال كبير تجار القاهرة، وغيرهما من أبناء السادة الذين يشار إليهم كلما ذكر اسمهم بين أعلام المصريين».

«وكنا نفتن فى الوقاحة وسوء الأدب!».

. . . .

وعلى هذا النحو نفسه يصور إبراهيم عبده ما تركته حياة القسم الداخلى المنظمة فى نفسه ونفوس الزملاء وشخصياتهم، ويقدم هذا التصوير تقديما جميلا يشعرنا بالألفة ويبعث فينا الحنين والأمل فى عودة مثل هذه الأجواء:

«. . . وكنت مع سبعين تلميذاً فى القسم الداخلى، لم تمض أيام حتى اجتمعت لنا صحبة لم تنفصم عروتها منذ سنة ١٩٢٥ إلى اليوم، ولايزال الحب الذى جمعنا يسيطر على قلوبنا وصدورنا، ومن بين الأصحاب الذين ما تقطعت حبال مودتهم قط حسن محمود العضو المنتدب لشركة مصر للطيران، والدكتور محمد أحمد سليم المهندس العالمى المعروف، والدكتور محمد على هدايت أستاذ الجراحة بالجامعة، وأبو بكر نور الدين الاقتصادى

المعروف، وكما نسميه الصديق، فقد كان ـ ولايزال ـ على رأس النخبة المنتقاة، والصفوة المرتجاة ممن أثرت عنهم الفضائل، وتعطرت سيرتهم بأجمل الشمائل».

«وإنا نجتمع اليوم وصفاء القلوب كصفوها يوم التقينا بسراويلنا القصيرة سنة ١٩٢٥».

«والمدرسة الخديوية لاتزال تعيش فى عين الزمن، لا ببنائها القديم أو الحديث، بل بهذه الشخصيات التى تملأ فراغ الدنيا بكل صالح ومفيد».

(٢٧)

ويمضى إبراهيم عبده على هذا النحو الطريف مصوراً لمحات من التى لابد لنا من الرجوع إليها حين نتأمل تاريخنا الاجتماعى والتربوى وندرسه دراسة عميقة، وعلى سبيل المثال فإنه يصور بدقة شديدة ما كان مجتمع المدارس الثانوية يحفل به من دينامية جميلة وفاعلة، وما كان يمور به من نشاط فكرى وتفرد ثقافى، وهو يقص علينا ما يصور به صراعاً مبكرا بين الديمقراطية والالتزام، أو بين رغبات الشباب وروح النظام، وكيف كان القائمون على أمور التعليم فى ذلك الوقت من الذكاء بحيث أمكنهم أن يتخذوا من القرارات ويضعوا من النظم ما يمكن التوفيق بين هذا وذاك:

«. . . كنت أنال فى كل موضوعات إنشائى الدرجة النهائية، أى عشرة من عشرة، وإن كان الأستاذ يصر على تسجيل تخفيض يتراوح من درجة إلى ثلاث درجات لقلة أدبى فى أثناء الدرس، أو لإتيانى بفعل ذميم!!».

«وبدا أثر ذلك واضحا أيضاً حين تقرر أن يكون أعضاء لجنة مجلة

المدرسة من ذوى الكفايات بعد امتحان فى التحرير عسير، وتقدمت فيمن تقدم وكان ترتيبى الأول، غير أنهم رجعوا عن قرارهم ونحونى عن الرئاسة والعضوية وقصروهما على تلاميذ السنة الخامسة، ولهم وحدهم الصدارة فى كل أمر وتدبير».

«امتلأت غيظاً وحنقاً، وأخذت أطالب بتطبيق دستور البلاد فى كل أمر صغير أو كبير! وأنه لابد أن يكون رئيس القسم الداخلى منتخباً، وأن تكون كل لجنة فى المدرسة من وحى الانتخاب، أو بناء على امتحان يثبت جدارة مَنْ هو بالحق جدير».

«وتألف رأى عام قوى بين الزملاء يؤيد رأيى، ويجاهد من أجله، وعاقبتنى المدرسة بأن طردتنى من القسم الداخلى، فإذا وجدت أن آرائى قد انتقلت إلى القسم الداخلى تقرر نقلى إلى مدرسة أخرى».

«وقابلت الناظر وناقشته وكان ـ كما قلت ـ أباً رحيماً مستريح الصدر، كبير القلب، فراقه منطقى الذى دعا إلى المواءمة بين سلطات المدرسة والحقوق المرجوة التى تضطرم بها نفوس التلاميذ، فكان للناظر حق تعيين رئيس القسم الداخلى، وللطلبة انتخاب السكرتير، وكان للمدرسة حق تعيين رئيس تحرير المجلة، وللامتحان حق تعيين أعضائها مهما تكن أسنانهم، ومهما يكن مقامهم فى سنوات التحصيل!».

(٢٨)

ويرسم إبراهيم عبده صورة جميلة ودقيقة وموحية لاهتمام طلاب المرحلة الثانوية بالسياسة ومشاركتهم فيها، لكنه يتعمد أن يجعل تصويره هذا

تصويراً سطحـياً يكفل له الا يغضب أصـحاب السلطان فى العهـد الجديد، وكأنه يلحف فى تسجيل ما يصور به حرصه على أن يتحسر من بعيد عما لم يعد متاحـاً فى الستينيات من روح الثلاثينيـات، وانظر إلى هذه الواقعة التى يسجل فيها انخراط طلاب الثانوية فى ممارسة السياسة على نحو متقدم:

«كانت السنوات الخمس التى قضيـتها فى المدرسة الخديوية من أحلى أيام الجهـاد، كنا فيـها تلامـيذ مـجدين، وخلقت فـينا حيـوات نادرة، وفطرت أخلاقنا على السمـاحة، فقد كنا نختلف طرائـق فى النظر للناس والأشياء، ومع ذلك كنا نسـمر ونضحك من أعـماقنا، فلم يعـرف الحقـد أو الكراهية منفذاً إلـى قلوبنا، وكنا نقرأ روز اليـوسف والكشكول، وما أكـثر مـا قرأنا فيهمـا من عبارات تند عن الذوق، وخاصة الكشكول خـصم سعد زغلول، فقد كان ثروة فى البذاءة، لفظاً وتعـبيراً، ومع ذلك لم تجر على ألسنتنا يوماً كلمة من هذا المحصول الكبير».

وهو حـريص أيـضـاً على أن ينبـه إلـى أثر التـربيـة الجـيـدة فى خلق الشخصيات المتكاملة:

«إن المدرسة الخديوية علمتنا الأدب، التحـقنا بها فكان المعلمون من فرط وقاحتنا وسوء تدبيرنا يسبون آباءنا فى طمأنينة المطمئن إلى أن هذا السب هو دون ما نسـتحق من تأديب، وكان بيننـا ابن رئيس وزارة، وآخر أبوه وزير! ثم مضت بنا السنوات فكسبنا فى سنتين أو ثـلاث من الخصال الطيبة ألواناً حتى بـدونا والرجوليـة طبعنا، فلم نكذب قط، وبقـينا إلى اليـوم لا نعرف الكذب حتى أبيضـه نتحاشاه، ولم نخف قط ولو تطلبت الحـياة من الخوف حرصاً على الوظيفة أو قوت العيال».

«علمتنا المدرسة الخديوية كيف نعتز بكرامتنا، ونرفع رءوسنا دائماً، وعلمتنا حب المدرس، وحب الحياة، ونأت بنا عن الخسة ودناءة الطبع، وإنى لأسجل - والفخر يملأ صدرى وقلبى - أن جميع مَنْ عرفت من أبناء مدرستى لايزاولون إلى اليوم فى صدر الحياة، سواء منهم من سار فى زفتها، أو اختار جوانب الطريق وخاف الزحمة وما فيها من تكالب واندفاع!».

(٢٩)

ومع كل هذا الحب الذى يختزنه إبراهيم عبده للمدرسة الخديوية الثانوية، ويعبر عنه فى وضوح وقوة وتأكيد حتى نكاد نحس أنه لم يعد فى قلبه موضع لحب آخر، فإننا نفاجأ به مولعاً إلى أبعد حدود الولع بالجامعة، ومتيماً بجوها ومهتزاً إلى حد النشوة أو منتشياً إلى حد الاهتزاز بالفترة التى قضاها فيها، وهو يعبر عن هذا المعنى فيقول:

«إن الجامعة فى حياتى شىء مهم وأصيل، صحيح أن المدرسة الخديوية وضعت فى نفسى وقلبى وعقلى اللبنات الأولى فى تكوين شخصيتى وتكييفها، غير أن الجامعة صقلت القاعدة وشذبتها، وإن كانت الحياة فى الجامعة، فى وقت ما شابها ما يدعو إلى الحسرة التى هدمت كثيراً من الشعور الشامخ والاعتزاز العظيم بما كنا نراه فى جامعتنا العتيدة».

«أعود إلى الصحبة التى ما وهنت يوماً، والعروة التى ما انفصمت أبداً، أعود إلى أصدقائى إبراهيم رزقانة زميل قديم، ونجيب محفوظ، وهنرى فلتس، وعبد الفتاح زكى رفيق الشدة والرخاء، وإبراهيم سراباموں، وفريد زعلوك، ونور الدين طراف، وتوفيق الطويل، وأبو بكر نور الدين،

ومحمود الشاهد، وصلاح الشاهد، وعبد القادر السماحى، ومصطفى طه حبيب، وسعاد السماع وغيرهم كثير».

«كل هؤلاء كانوا صحبى، بل كانوا أهلى، بدأ رباطنا طلابا فى الجامعة، ولم نشعر قط أن بعضنا أصبح وزيراً ،أو رئيس وزارة، أو موظفاً مرموقاً، أو كاتباً معروفاً، أو مؤرخاً بعيد الصيت، فكل ذلك من عرض الدنيا، وقد بدأت صداقتنا ومضت مع الأيام مبرأة من الهوى، بعيدة عن الغرض، فوق عرض الدنيا وما فى الدنيا من ترهات!»

(٣٠)

وهو يضرب المثل على متانة العلاقة بين زملاء الدراسة فى ذلك الزمان بصديقيه اللذين أصبحا وزيرين فى عهود متتالية:

«كان طراف وزعلوك على طرفى نقيض فى أمور السياسة. الأول أميل للأحرار الدستوريين بحكم صلات الأسرة التى ربطت بينهما وبين قادة الحزب، وإن كان فى قرارة نفسه يؤمن بنظام معين، والثانى من الطلبة أنصار الوفد المعروفين، ومع ذلك كله فهما صديقان حميمان ولايزالان على المودة متفقين».

«وكنت فى أمور السياسة والنظر إليها وسطاً بينهما، وكان أحدهما وكيلا لاتحاد الجامعة، والثانى سكرتيراً عاماً، وهما أخطر مركزين فى توجيه هذا الاتحاد،وكان انتخاب الوكيل والسكرتير العام يشغل كل سنة أحزاب مصر، ولولا شخصية طراف، وهو كما قلت فيه من ربع قرن كالقماش الأبيض النظيف فى عين الشمس، لولا هذه الشخصية اللطيفة المهذبة لما استطاع أن

يكون وكيلاً أو سكرتيراً عاماً للاتحاد، فقد كان يمثل القلة الضئيلة فى الجامعة».

«لم تفسد السياسة واختلاف النظر فيها ما بين الصديقين، وإنما أثر فيهما وحز فى نفسيهما شىء آخر بعيد جداً عن الجامعة وعن السياسة وعن الزعامة».

(٣١)

وهو يذكر هذين الرجلين بالخير فى مواضع كثيرة من مذكراته، وهو فى أحد هذه المواضع يضرب بهما المثل فى «الرجولية» فيقول:

«ما رأيت رجولية الرجال فى الذود عن فكرة من الفكر مثلما رأيتها فى نور الدين طراف وفريد زعلوك، وهما خصمان من الناحية السياسية العامة، إلا أنهما قرينان متشابهان فى الخلائق والصفات كلما جد الجد، واقتضى الدافع البذل والتضحيات، وقد رأيتهما يتحديان القدر فى تحدى بعض هؤلاء الأساتذة الذين شنوها حرباً عاتية على حريات الاتحاد وسلطاته الواسعة، لقد فرحت بالصديقين فى المعركة، وكنت بحكم الوظيفة لا أملك إلا أن أبارك كفاحهما من بعيد».

(٣٢)

وعلى الرغم من جو الستينيات والسنوات التى سبقتها منذ قيام الثورة وسيطرة الهدوء على مجتمع الجامعة، فإن إبراهيم عبده يصور موقف الجامعة من قضايا السياسة تصويراً بديعاً، وهو بذكاء شديد يلجأ إلى مرحلة ثورة الطلبة فى ١٩٣٥ لكى يمجدها ويمجد من خلالها الجامعة ودورها فى

تحقيق الاستقلال الوطنى والحفاظ على الديمقراطية، وقد كان من حسن حظ إبراهيم عبده فى هذه الجزئية ما نعرفه من أن الرئيس عبد الناصر نفسه كان قد مثل طلاب المدارس الثانوية فى اللجنة العليا للطلبة التى تشكلت فى هذه المرحلة، ولك أن تتأمل مدى الفارق بين هذا الجو الذى صوره إبراهيم عبده دون أن يشير إلى الرئيس عبد الناصر من قريب ولا بعيد، وبين الجو الذى كتب فيه هذه المذكرات لاجئا إلى ما يسعفه به البيان من تشبيهات تصور الأمر بعيداً عما هو محظور، وإن كان المضمون مفهوما بسهولة:

«لقد كانت الجامعة فى ذمتى سداً عالياً [تأمل هذا المجاز الموحى!!] وقفت طغيان كل جبار، وتحدت الملوك وساندت الأحرار، وبذلت عند الضرورة ـ كما حدث فى سنة ١٩٣٥ ـ دم فتيانها فى سخاء لا يجود به إلا مَنْ آمن برسالة، وعاش من أجل عقيدة، وأبى أساتذتها أن يسيروا فى ركب النفاق ولو عصف بأرزاقهم ملوك ذلك الزمن وأدواتهم من نفاية الوزراء».

(٣٣)

ولا يمكن لنا أن نتجاوز الحديث عن تكوين إبراهيم عبده العلمى والجامعى من دون أن نشير إلى أثر أساتذته فى شخصيته، وهو يتحدث عن كثيرين من أساتذته بحب شديد وبالطبع فإن طه حسين يأتى فى مقدمة هؤلاء:

«. . . عرفت طه حسين منذ سنة ١٩٣٠، وحضرته أستاذاً وعميداً لكلية الآداب، وكنت شديد الإيمان به، مقبلاً عليه إقبالاً منقطع النظير، وكان كل رأى يقول به طه حسين يلقى من نفسى هوى ويملؤها غبطة، فقد كانت آراؤه فى السياسة والأدب والاجتماع جديرة حقا بالتأييد».

«وبالرغم من أن طه حسين كان مشهوراً حينذاك بأنه على رأس المجاهدين [يقصد المعارضين، ولم يكن لفظ المعارضة من المفردات اللغوية المتداولة حين نشر إبراهيم عبده مذكراته] لسعد زغلول، وأن له فى سعد مقالات فى جريدة السياسة مؤذية ساخرة، وسعد له فى ذلك الوقت مقام مقدور، وهو سيرة عطرة يوقرها معظم المصريين، فإن الرجل لم يخدشه خلافه مع سعد، أو يصغر من شأنه عندنا، لأن طه حسين كسعد زغلول، قطعة رائعة من تاريخنا القومى، له رسالة فى حرية الرأى والفكر، وله نزعات فى تجديد حياتنا ورفع مستواها، لا تقل أبداً عن رسالة سعد زغلول فى ميادين السياسة وجهاد الإنجليز».

وفى موضع آخر يصف إبراهيم عبده أستاذه طه حسين فيقول:

«. . . كان بعيد النظر . . كان عميداً لكل جديد، وكان شجاعاً، وكان علماً على حرية الرأى والفكر».

«وسيطر الرجل على قلوب الشباب بعلمه الواسع العميق، وآرائه الخلابة الجذابة، وكان إيمانه بالحرية أقوى من الحرية نفسها! حتى لم يرض الأحرار المسئولون عن الطائر الذى يغرد على هواه، فلاموه فى مجلس النواب، وطارت فى سبيله وزارة، ولعلها الأولى والأخيرة أيضاً فى حياة مصر التى تستقيل فيها حكومة ويبقى مجلس النواب!!».

«دعا إلى الحرية لا فى شئون السياسة والتعليم فقط، بل غنى على أوتارها فى شئون الدين والدنيا حتى أثموه فى عقيدته وخلقه، وصدرت فى حقه قرارات الحرمان، وصودرت كتبه وحرقت فى كل مكان».

«كان لا يريد أن يحجر على الرأى وإن خالفه، أو يضطهد القلم ولو شط صاحبه، وقد أغروه بمال الدنيا مراتب الجاه والسلطان، فعز لسانه وقلمه على دعوة الطغاة، وهانت لديه مراتب الجاه والسلطان!».

«لم يطبل قط، ولم يمسك بمزمار، فكان علماً فى ظله، وقفت الجامعة صفاً واحداً، فكانت له حرمة، وكان لها صيت صاناها من الغواية والشيطان!».

(٣٤)

ويتحدث إبراهيم عبده بامتنان شديد عن المدة التى قضاها فى العمل تحت رئاسة طه حسين فى جريدة «كوكب الشرق» فيجيد تصوير علاقة رئيس التحرير العلم بتلاميذه من الصحفيين والكتاب:

«وفى كوكب الشرق تعلمت كيف أفكر وأكتب، وكان طه حسين يدعونى كلما رضى عن مقال لى ويشجعنى بكلمة حلوة تزيدنى غبطة وثقة فى مستقبل الأيام، وقد نصحنى ألا أعيد قراءة مقالاتى بعد نشرها حتى لا يدفعنى غرور المتواضعين أو تواضع المغرورين إلى الاعتزاز بما كتبت، وهو - فى رأيه - شيء يفسد على المبتدئين نجاحهم».

«لم أعمل قط بنصيحة طه حسين، فقد كنت أنتظر بائع الصحف عصر كل يوم لأقرأ مقالى مرات ومرات!!».

«وكنت أومن بأن حرية الكاتب فى الجريدة شيء له قداسته، وأذكر أنى شاهدت أول فيلم لعبد الوهاب واسمه (الوردة البيضاء) وكان عهد المصريين بتمثيل السينما فى خطاه الأولى، فلم يرق لى موضوع الفيلم، ولم أرض

عن تمثيل هذا الفنان المفتن الذى له فى أسماعنا صدى كبير، فنقدت ما رأيت فى عدة مـقالات، وطلبنى طه حسـين وذكر لى أن فيلم عـبد الوهاب بداية طيبة، وأنه شهده وأعجب به، وأن هذا الرأى ليس رأيه وحده، بل هو رأى كبار رجال الوفد وأنصاره العديدين».

«ثم قال: وإننى مـعجب بما كـتبت من رأى فى الفـيلم إعجابى بـالفيلم نفسه، وأنت حر فيما تبدى من آراء، وأرجو أن يكون مقال الغد فيه الخاتمة لما تكتب من نقد عنيف».

«وفهمت أن طه حسـين صان بذلك قلمى ورأيى وحريتى، ولو لم يكن هذا الرجل هناك لعصف بـى القوم عصفـا، فقد كـان محمد عـبد الوهاب صديقاً حميماً لرئيس الوفد وسكرتيره العام».

ومن الجدير بالذكر أن إبراهيم عـبده يتحدث بتقدير وافـر عن تشجيع طه حسين له بكتابة المقدمة لقصته التى نشرها فى شبابه.

(٣٥)

وهو حريص، شأنه فى هذا شأن أبناء هذا الجـيل من الجامعيين الرواد، على أن يتحدث بسعادة شديدة وبفخر عالٍ عن تلمذته للأستاذ عباس محمود العقـاد فى ندوته الأسبوعـية، ونحن نراه يصور الأمـر بعيداً عمـا شاع فى التسعيـنيات والثمانينيات من الحديث عن الازدواجـية أو التناقض ما بين طه حسـين والعـقاد، وهى الازدواجـية التى تجـعل المرء تابعاً لهـذا أو لذاك لا مرتشـفاً من الرحيـقين على نحـو ما يصور إبراهيم عـبده نفسـه فى وداعة وذكاء، ومن الجدير بالذكر أن هذه الفقرة كـتبت ونشرت فى حياة الرجلين:

العقـاد وطه حسين، وقد أبقـينا بالطبع على كل ما فيهـا من دلالات الزمان وظروفه الدالة على حياة العقاد حين كتابتها:

«كنت كل يوم عند خطيبتى إلا أيام الجمع».

«كان يوم الجـمعة بالنسبـة لى ولسائر زملائى الأصدقـاء فى كلية الآداب يوماً مقدساً، إنه يوم العقاد حيث ندوته، وما فى ندوته من خير كثير».

«كان الأستاذ عباس مـحمود العقاد ـ ولايزال ـ على رأس أهل العلم فى مصر، وكنت ـ ولاأزال ـ أحبه وأكبر فيـه جهاده فى التحصيل، وجهاده فى حياة مصر السـياسية، وجهاده الرائع الشامخ فى قيادة جـانب كبير جداً من الدراسات الأدبية العميقة التى لم يعرف لها الوطن العربى ضريباً».

«وكان مـجلس العقاد لا يخلو من الفكاهات العـميقـة، والنكت الرائقة التى كانت تجرى فى مصر إذ ذاك مجرى الأمثال، وكنا نتناول غداءنا عنده، نحو عشرين أو ثلاثين من تـلاميذه وحوارييه، ونخرج بعد العـصر بحصيلة من الآراء والأفكار تهذب من نفوسنا، وتشذب مـن جهالتنا، وتفتح لنا من آفاق الرأى والتدبير ما كان مستغلقاً علينا».

ويصل إبراهيم عبده إلى صيـاغة عبارة جميلة تصف قيمـة مجلس العقاد أو صالونه بطريقة كمية، ويقول:

«كان يوم العقاد يساوى ـ فى ذمتى ـ دراسـة شهر فى الجامعة، لأنه يوم حافل بالعلم، وندوة زاخـرة بكل جديد مفـيد، فيـها مهابة العـالم، وقدوة المجاهد، ورصانة صاحب الرأى الذى يذود عن رأيه ولو انتهى به الأمر إلى التشريد والسجون».

«إنى أدين ليوم العقاد بكثير».

(٣٦)

ويتحدث إبراهيم عبده عن العميد الدكتور زكى محمد حسن حديثاً أكثر من رائع، وهو يصوره نابغة: مقدراً فى العالمين، محسوداً من التافهين، مكروهاً من أساتذة المدرسة القديمة بلا استثناء، وهو يتحدث عن صراحته وجديته وشهامته وعلمه، وهو يراه أعظم عمداء كلية الآداب شأناً، ومن الجدير بالذكر أن هذه الفقرة كتبت بينما كان زكى حسن فى رحاب الله، ومن الجدير بالذكر أن زكى حسن كان واحداً من خريجى أول دفعة من كلية آداب القاهرة، وأنه كان أول من وصل من خريجيها إلى عمادتها، وقد صار عميدا لها عام ١٩٥٠، أى بعد تخرجه بواحد وعشرين عاما فقط، أما عمداء الآداب الذين يعتبر إبراهيم عبده أن زكى حسن كان أفضلهم، فقد كانوا سلسلة من العظماء ضمت طه حسين، ومنصور فهمى، ومحمد شفيق غربال، وأحمد أمين، وعبد الوهاب عزام، ومصطفى عامر!!

وانظر إلى هذه القصيدة النثرية فى مديح زكى حسن:

«وفى ذلك الوقت ـ أى من نحو خمسة عشر عاماً ـ برز شاب بين شباب الأساتذة لم تر له كلية الآداب نظيراً، لا فى خلقه ولا فى علمه، ولا فى رجوليته التى تضاءلت أمامها رجولية كل أستاذ وعميد مر بتاريخ تلك الكلية.. الدكتور زكى محمد حسن».

«لم يكن قد بلغ الأربعين وله فى فنه وعلمه خمسون كتاباً ضخماً، وبحثاً عظيماً عميقاً باللغات العربية والإنجليزية والفرنسية والألمانية

والإيطالية، وهى مراجع وبحوث لم يقف فضلها عند جامعتنا، بل كانت المعين الذى يغرف منه أساتذة العالم فى هذه الفنون».

«كان زكى حسن محسوداً من التافهين، مكروهاً من جميع أساتذة المدرسة القديمة بلا استثناء، إنه شىء جديد فى كلية الآداب، إنه علم يلتف حوله كل شباب الأساتذة والمعلمين، إنه العلامة العظيمة للجيل الصاعد من أهل العلم».

إنه لعلى خلق كريم».

«لقد أحببته حين استجاب هواى لهواه، والتقى ريحى بريحه، ذلك أننى لا أحب الكذب ولا النفاق، ولا أخاف، وهو أدق منى فى كل تلك الخلائق والصفات».

«كرهه بعض مَنْ قدمته المصادفات، وأعلته التوصية، وصدرته الوساطة الصغيرة، وكانت كل بضاعته لبلوغ هذا الشأو الملحوظ، الكذب، والنفاق، ودناءة النفس، وخسة الطباع».

«هؤلاء هم الذين لا يستجيبون لهوى الصاحب العظيم، العالم الفذ الذى فقدناه».

«لقد صاحبت زكى محمد حسن أستاذاً وعميداً، كما صاحبته بعيداً عن كلية الآداب، فلم أر فيه سوءة، إلا أن تكون الأخلاق القوية والشهامة والعلم الغزير، وأخذ الأمور بجد وعمق من سوءات الأساتذة والمعلمين!».

«إنى أعلم ما ستتركه هذه الكلمات فى نفوس بعض الناس، سيفرح بها

كـثيـرون من أصـدقاء أعـلم مَنْ ولى مناصب العلم فى كليـة الآداب، لأن فـقيـدنا العظيم زكى محـمد حـسن تناولتـه يد الجحـود ونكران الجمـيل، فحاولت أن تطمس فضله، وتخفى شأنه، ولكن هيهات، هيهات أن يحجب الجحود ونكران الجميل خمسين بحثاً ضخماً عميقاً تتداولها فى بقاع الأرض خمس لغات!».

«لقد كان زكى حـسن فلتة من فلتات الزمن. وسيبـقى فى عين الزمن ما بقى الكون، وبقى فى الكون إنسان».

(٣٧)

وانظر إلى حديث إبراهيم عـبده عن الأستاذ محـمد شفيق غـربال أستاذ التاريخ، الذى درس إبراهيم عبده على يديه، وكـيف كان يراه هادياً وملهماً وباعثاً على القرب منه والتلمذة على يديه:

«... والحق أن وجـه شفـيق غربال أسـتـاذ التاريخ الحـديث هو الذى جذبنى إلى هذا القسم وحببنى فـيه، ولست أدرى لم استراح قلبى إلى هذا الأستاذ منذ وقع نظرى عليه، وسمعته فى لجنة الاخـتيار يتحدث إلى العميد طه حسين!».

«ثلاثون عامـاً مضت وأنا تلمـيذ هذا الرجل، وإنى لفـخور بأستـاذيته، وإنهم مئات أولئك الذين ينافسوننى فى هذا التقدير».

....

وانظر أيضاً إلى حديث الدكـتور إبراهيم عبده عن الدكتور مـحمد عوض

محمد أستاذ الجغرافيا الشهير الذى عرف بشجاعته وبأدبه العالى وبحبه للأدب والجامعة، وانظر إلى تقدير إبراهيم عبده لموقفه حين كان الوحيد الذى تضامن مع طه حسين حين فصل من الجامعة:

«. . . استسلم أساتذة الجامعة للمصير الذى وصلت إليه جامعتنا فيما خلا الدكتور محمد عوض، فكان إلى جانب طه حسين فى محنته فنقلوه أستاذاً فى مدرسة التجارة العليا، أما بقية القافلة من الأساتذة والمدرسين فقد سارت مع الأحداث تتفرج كأن الجامعة لم تمس بسوء، وكأن حرمتها لم يعتد عليها أحد».

(٣٨)

ويتحدث إبراهيم عبده باعتزاز شديد عن كثيرين ممن قدرت الحياة له أن يزاملهم أو أن يصادفهم، وفى مقدمة هؤلاء أصدقاء طفولته، ومنهم صلاح الشاهد صديق عمره، وشقيقه محمود، وهو يفى كل هؤلاء ما يستحقون من مجاملة وتكريم.

وهو يتحدث بحب شديد عن زملائه فى تحرير جريدة «كوكب الشرق»، ونحن نلاحظ أن معظم هؤلاء قد استمروا فى العمل بالصحافة على حين انتهى عهد زميلتهم بها منذ مرحلة مبكرة:

«وكان زملائى فى تحرير جريدة كوكب الشرق ، جلال الحمامصى، وكامل الشناوى، ومحمد صبيح، والدكتور كامل حسين الأستاذ بجامعة القاهرة الآن، ومفيدة عبده زميلتى فى كلية الآداب وغيرهم كثير، وكان بعضهم معنا بحكم صلاته بالوفد والوفديين، وبعضهم بحكم ما يربطه بطه

حسين، ولم أكن من هؤلاء أو هؤلاء، وإن لم أخف تحمسى للوفد إذ ذاك، وإيمانى العميق بأستاذى الكبير».

. . . .

وهو يتحدث عن الأديب صلاح ذهنى بإعجاب شديد:

«. . . كان قصاصاً ممتعاً، وكانت لفتات ذهنه الألمعى شيئاً ملحوظاً فى حياتنا الخاصة، مبدعاً إذا سخر، سخياً إذا تناول الحديث أو الكلام، كان الحبيب الراحل إلى جانبى فى كل المحن والأرزاء».

. . . .

كذلك يتحدث إبراهيم عبده بامتنان شديد عن الناشر على حسن الذى يخصه بمثل هذا الحديث من بين الناشرين الذين قدر له أن يتعامل معهم، وهو الذى تحول إلى هذه الصناعة ويقول:

«. . . صدرت لى ستة كتب بيعت بمئات الجنيهات، والفضل فى ذلك يعود إلى صديقى على حسن صاحب مكتبة الآداب، فقد أخذ بيدى ووضع تحت تصرفى كل إمكانياته، فما كنت أفرغ من طبع كتاب إلا وزحم مطبعته كتاب آخر لى جديد، وعلى حسن أكبر من ناشر، هو أديب ذواقة، خدم العلم والأدب، وفى رحابه صدرت كل كتب توفيق الحكيم وتيمور، وإن عشرين كتابا لى تسجل فضل الناشر الأديب والصديق الحبيب».

ربما كان من الجدير بالذكر أن نشير إلى أن الأستاذ توفيق الحكيم كان يتحدث عن على حسن أيضاً بالقدر ذاته من التقدير له ولأخلاقه.

ولا يفوت إبراهيم عبده أن يتحدث عن محاولته الأدبية الأولى فى كتابة القصة، وكيف ساعدته الروح الجامعية على أن ينشر عمله على الملأ، وهو بحكم عمله فى الصحافة والطباعة والنشر حفى بأن يورد كثيراً من التفصيلات التمويلية و الاستثمارية فى هذا المشروع، ومن الطريف والمتوقع أن نرى هؤلاء الشبان وهم يديرون آلات الطباعة بأنفسهم توفيراً للنفقات:

«ودفعنى النجاح فى كوكب الشرق، والاسم الذى كان يقرأ يومياً إلى جانب الفحول من الكتاب، وفى ذلك من الزهو ما فيه، دفعنى هذا إلى تأليف قصة بعنوان (الحياة الثانية) طبعت منها ثلاثة آلاف نسخة، وبيعت النسخة بخمسة قروش، وكتب مقدمتها الدكتور طه حسين».

«دفعنا عشرين جنيهاً ثمن الورق وكان أبيض ناعماً، وتعاون أصدقائى هنرى فلتس وإبراهيم سرابامون ومحمود الشاهد فى تمويل ورق الكتاب، وتوليت سائر التكاليف من طباعة وتجليد وتدبيس، وهى نحو عشرة جنيهات؟!».

«وأشرفنا بأنفسنا على عملية الطبع بالفجالة، وكانت آلة الطباعة تدار باليد، وكان مَنْ يديرها يتقاضى عن الساعة عشرة قروش، وكنا تخفيفاً للمصروفات نتولى نحن الأربعة بالتناوب إدارتها بأيدينا، وكم عرقنا، وكم تقطعت قلوبنا حتى تم طبع الكتاب!!».

«وقام بقية الأصدقاء والصديقات ببيع الكتاب فى مختلف الكليات على طلاب الجامعة وأساتذتها حتى نفذت الطبعة الأولى فى أيام».

(٤٠)

ونأتى إلى بعض مـا تتضمنه هذه الذكـريات من أحاديث تتصـل بتاريخنا المعاصـر ونوادره وطرائفه، يحكى إبراهيم عـبده قصـة طريفة عن اجتـماع حضـره فى بيت الأميرة شويكار فـى حضور زوجهـا الأخير الأميـر إلهامى حسين، وكان الاجـتماع جزءا من مؤامرة(!!) يقصـد بها الانتقام من الملك فؤاد الجـالس على عرش مصـر فى ذلك الوقت، ومن الطريف أن نرى فى هذا الاجتـماع الأديب صلاح ذهنى وزميليـه حسين مـؤنس وتوفيق الطويل اللذين امتـد بهما العمـر وصارا من أعضاء مجـمع اللغة العربيـة، كما نالا جائزة الدولة التقديرية:

«... وحضرت فى ذلك اجتماعاً خطيراً فى بيت مطلقته شويكار، دعانا إليه زوجـها إلهامى حـسين، وتوسط بين الداعى والمدعـوين صديقنا ضـياء الدين صـالح الطالب بكليـة الحقـوق والمسـتشـار الآن [أى ١٩٦٠] بمجلس الدولة، وكان يربطه بهذه الجبهة فى الأسرة المالكة رباط قديم، ولعل للجيرة دخلا فى هذا الرباط».

«وكان المدعوون معظم أصدقاء العـمر، وتوفيق الطويل وحسين مؤنس، وهما اليوم أستـاذان فى الجامعة، ومحمود الشاهد وصلاح ذهـنى رحمهما الله، وعبد القادر السماحى وآخـرون كان من بينهم شاب مغرور من طلاب الحقوق لا أذكـر اسمه، وكنا نطلق عليـه ساخرين لقب (المحامى الصـغير) لتفاهة عقله، وقلة إدراكه!!».

«وقد رأيت المُلـك [أى النظام الملكى] فى أبهتـه ونظام الطبقـات فى أبرز ملامـحه وأنا أدخل بيت شويكار فى ضاحـية المرج، فقـد هجم علينا الخدم

يزيلون عن أحذيتنا ما علق بها من تراب ونظراتهم تنم عن الدهشة والاستغراب، إذ يبدو أننا كنا فئة من الخلق عجيبة لم تعرفها من قبل الدار، وتقدمنا رجل يرتدى بزة خاصة، وأخذ يحيينا بانحنائة كلما وقع نظره على واحد منا كأننا شىء جدير بالتحية والإجلال؟!».

«ودخلنا حجرة اجتزنا للوصول إليها حجرات، فإذا فى الصدر رجل جميل الصورة يستقبلنا محييا فى لغة فرنسية سليمة، عرفنا أنه إلهامى حسين زوج الأميرة شويكار».

«وقدمونا إلى أفندينا كما طلبوا إلينا أن نسميه! واحتفل بنا الرجل وزادنى فى الوزن حبة! فقد كنت الصحفى الوحيد فى المجموعة التى جاءوا بها لتدبر مع إلهامى حسين وزوجته مؤامرة ضد الملك فؤاد».

«ودعينا إلى تناول العشاء، فتصدر المائدة زوج الأميرة، وأجلسنى إلى يمينه، وأجلس ضياء الدين صالح إلى يساره، ونبهوا علينا أن نغرف من الطعام ما يكفينا حتى لا نترك فى الصحاف شيئا، وألا نتحدث إلا إذا أذن لنا سمو أفندينا، وألا ننطق والطعام فى أفواهنا، والضحك ممنوع أصلا، وإذا اقتضاه الحال كتمناه حتى يتحول إلى ابتسامة خفيفة لا تنفرج عنها الشفاه إلا قليلا».

«كانت جميع التوجيهات الخاصة بآداب مائدة شويكار ممكن التنفيذ، وكان الحرج الشديد الذى أصابنا على تلك المائدة هو كيف نأكل العصافير التى صادها لنا أفندينا؟ كيف ننسل لحمها من عظمها إن كان فيها لحم؟ وهل نستعمل أيادينا فى تناولها؟».

«وهمست فى أذن حسين مؤنس: نأكلها يا أخى كما يأكلها أفندينا».

«وغمس أفندينا شوكته فى واحدة منها ودفع بها إلى فمه، وكان فى طبقى ثلاثة عصافير، فعلت بواحدة منها مثلما فعل زوج الأميرة شويكار، وأخذت أمضغها دقائق مرت كأنها جيل، واسعنت بالماء كوبا بعد كوب حتى ازدردتها من غير جروح تصيب الحلقوم!».

«ودهش أفندينا لأسناننا التى كسحت ما فى أطباقنا من عصافير فى لحظات، وعرض علينا مزيدا منها فاعتذرنا جميعا فى حماس ليس له نظير، وحين خرجنا قذفنا إلى الطريق العام ما كانت تزدحم به جيوبنا من عصافير؟!».

«ثم انتقلنا إلى الصالون الفخم وبدأ الاجتماع الكبير، وقدم لنا أفندينا وثيقة تعلن عزل الملك فؤاد وتنصيب أمير آخر من الأسرة اشتهر بخلافه مع الملك، حتى إنه تنازل عن لقب الإمارة والأمير».

«ووقعنا الوثيقة وصدورنا منشرحة، فقد حسبناه عملا وطنيا وإن كنا لا ندرى مغبته لو كشفه الكاشفون».

«وبعد سنة وشهور مات الملك فؤاد والتأم شمل الأسرة من جديد وعاد الأمير الثائر إلى لقبه، ومنح إلهامى حسين رتبة الباشوية، وظهرت شويكار فى المجتمعات كأنها أم روحية لفاروق على طريقة لم تؤثر قط عن أم فى الوجود؟!!».

وتحفل مذكرات الدكتور إبراهيم عبـده بتصوير كثير من العادات والأجواء الاجتماعية التى كانت سائدة فى البيئات التى عاشها.

وهو على سبيل المثـال يصور عناية والدته بصحته تصويراً دقـيقاً نقتطف منه بعض ما يـصور التفكيـر الشعبى فى أمـر الصحة والطـب، وهو تفكير يحفـل بما هو منطقى وبما هو لا منطقى، كمـا يحفل بما هو مـقنن، وبما هو مجرب، وبما هو فولكلورى:

«وكان جـسمى ضئـيلا، وكل أمراض الطفـولة عرفت طريقـها إلى هذا الجسم الضئيل، وكان أكبـر أطباء الأطفال فى زمانه يرعانى ويطب لى، ولم تقنع أمى بطبـه ونصـائحـه، بل أصـغت بالمودة إلى توجـيـهات القـريبـات والناصحات، فكنت إذا اسـتحممت حجزتنى فى حجـرة النوم يوما حتى لا أصاب بالبـرد! وإذا عطست لا يدخل بيتـنا البيض والسمك!! وكـانت تدفع إلى بطنى بالموغات والمفتقة والحلبة حتى (ترم) جسمى الضعيف، بجانب ما أوصى به الطبيب من مـقويات، وهى «مسـتحلب سكوت» صيـفا، و«زيت السمك» شتاء».

ونأتى إلى وصف مهنة اندثرت وهى مهنة لحس الأطفال:

«ورتبت أمى امرأة (لحاسة) تمر ببيوت الذوات (تلحس) أطفالهم مادة هى خليط من الطحينة والعسل الأسود والبن وأشياء أخـرى، تغمس فيها السبابة والوسطى من أصابـعها وتدفع بهـما إلى حلقى، وتمر بهمـا على هذا الحلق ضاغطة حتى أكاد أقىء أو أختنق».

«وقيل إن التلحيس خير وقاية لأمراض الحلق، وقيل إنه وقاية من الالتهاب السحائى، وقيلت أشياء أخرى لا أدرى الصحيح منها، وإن كانت أمى قد آمنت بها إيمانا».

«وكلما سمعت أمى (وصفة) تزيد الوزن وتجرى الدم فى الوجه عمدت إليها من أجلى، وأقبح ما سمعت من وصفات (حلاوة بلادنا) وهى مادة من تفل السمسم يسمونها (الكسبة) كريهة الرائحة، مرة المذاق، كانت تأمر بشرائهـا من عربة يد تمر ببيتنا وقد وضع البائع (حلاوة بلادنا) على شكل هرم جميل».

(٤٢)

ويصور إبراهيم عبده ولعه بالسينما وشغفه بها وحرصه على مشاهدة أفلامها بانتظام شديد، على الرغم من معارضة والدته وعجبها من هذا السلوك غير المبرر فى نظرها، ونحن نرى الفارق بين تصوير إبراهيم عبده لولعه بالسينما وبين ما يرويه الدكتور شكرى عياد يعكس الفارق بين حياة شبان القاهرة وشبان الأقاليم:

«... وكنت أذهب إلى سينما أولمبيك فى شارع عبد العزيز، أو إلى سينما المنظر الجميل فى الظاهر يوم الخميس من كل أسبوع، وكان هذا شيئا إداً لا يسيغه خالى فى شبرا البلد، والأهل فى بنها العسل، وكانت أمى تعجب لأمرى، كيف أطيق الذهاب إلى السينما أكثر من مرة فى حياتى؟ ولم يقنعها أن تعلم أن روايات السينما تتغير، أو أن فيها حلقات كل أسبوع حلقة، وأن (ماشيست) رواية طويلة وزع عرضها على أكثر من أسبوع!»

«لم تكن أمى متـزمتة تزمت خـالى وأهلى، ولكنها كـانت تخشى شيـئاً واحداً، أن تسىء السينمـا إلى عينى، بيد أنها كـانت تعالج الأمر بحصافـتها فتضع فـى عينى بعد عودتى من الســينما (ششم الديك) ليجلوهمـا ويمسح عنهما ما خلفته السينما من متاعب!»

«والصحيح أن أمى كانت حصيفة، فقد كانت السينما تهز أعصاب العيون فى ذلك الزمان، لأن الصــور حين كانــت تتحرك على الشـاشة كانت تهـتز اهتزازاً عنيـفاً، وخاصة فى روايات شـارلى شابلن، وكان سـيد الموقف فى دور السينما فى جمــيع أنحاء العالم، وكانت عيوننا تصـاب بحرقان بعد كل عرض، وكان ششم الديك علاجاً بديعاً للعيون مهما تكن فيه من نار».

«وقد أغريت أمى أن تذهب مـعى إلى السينما مرة، ووافـقت بعد إلحاح شديد، وقـرأت عند مدخل الـباب الفاتحـة وبعض آيات أخرى مــن القرآن الكريم، ودعت لى بالعـمر الطويل، والخـير الوفيـر، فقد علـموها أن الله سبحانه وتعالى يستجيب عادة للدعوات عند زيارة عبيده لأى مكان جديد!».

«وخرجنا من الســينما وأمى أشد وثوقا بعـقيدتها فى عـقلى الفارغ الذى يحتمل الذهاب إلى السينما مرة كل أسبوع».

«لقد عـرفت بين أهلى بأنى ولد تلفان، مـدلل، خسـران، لأننى أغشى السينـمات، وأذهب إليهـا علانيـة بلا حرج أو خـجل أو خوف، ذلك لأن السينما تفسد الخلق، وتضيع الوقت».

(٤٣)

بقى أن نشير إلى ما يتحدث به إبراهيم عبده عن تجربته المبكرة فى العمل

خارج مصر، حيث كان حتى كتابة هذه المذكرات قد عمل فى السعودية، كما عمل مستشاراً لحكومة الكويت من أجل إصدار مجلة «العربى»، وهو دور غير مشهور لم يكتب عنه إلا صاحبه، وهو يتحدث عن تعاقده لأجل هذا العمل مع الكويت حديثا شيقا حافلا بالتقدير للمسئولين فى هذه الحكومة الفتية، وهو يصف كلاً منهم بما يستحقه فى نظره، كما يصف الجو العام وصفاً ينطق بالحب والتقدير، وهو يروى أنه رأى أن تكون فاتحة أعماله هى التعريف بالكويت، وأن يكشف عن هذا الإنجاز الجديد الذى يجهله العرب، وتجهله مصر خاصة، واقترح لهذا طبع كتاب ضخم عن الكويت سماه (سجل الكويت اليوم). كما أنه تولى المشاركة فى إصدار قانون المطبوعات الخاص بالصحف والكتب، والمجلات، وهو القانون الذى وضعه لحكومة الكويت المغفور له الدكتور محمد كامل مرسى، كما يروى أنه اقترح إنشاء مجلة للأدب والفنون والعلوم تكون رسالة النور والعلم من الكويت للناطقين بالضاد فى كل مكان، ووافق المجلس الأعلى على الاقتراح وكان ذلك فى أبريل ١٩٥٦، وبدأ الإعداد من أجلها سنة كاملة، حتى إذا بدت ملامح المجلة واضحة عزم على العودة إلى الوطن الكبير، وهو حريص على أن يذكر أن مجلة «العربى» الشهيرة التى ظهرت بعد سنة من الإعداد لها تدين له بالفكرة، وإن كان الله وفق غيره إلى إصدارها فى هذا الإطار الدقيق:

«... كان صديقى وتلميذى الأميرالاى كمال عبد الحميد على صلات طيبة بالمسئولين فى الكويت، فتحدث الرجل عنى حديثا يكشف عن رجوليته وخلقه الكريم، وآزره فيما سعى إليه الصديق الأستاذ فكرى أباظة، وصاحبى الدكتور نور الدين رجائى، وما أخذت سعى كمال عبد الحميد

مأخذ الجد قط، فقد كنت فى تلك الأيام قليل الثقة بالناس، لذلك سافرت إلى أوروبا وليس فى ذهنى شىء عن الكويت، ولا عن لون العمل الذى رشحنى له تلميذى الحبيب».

«فلما عدت من الرحلة التى بسطت لنفسى فيها حقها، علمت أن مدير المطبوعات والنشر الكويتى ينتظر عودتى من أسبوعين، وعتبت على أم البنين [هكذا كان يتحدث عن زوجته] أن تهمل الإبراق لى أو تحدثنى فى التليفون لأعود، فإن انتظار الرجل أسبوعين عمل لا يليق، فإذا بها تنقل لى حديثا عنه دفعنى دفعا إلى تقدير الكويت وحب الكويت».

«قال لها الرجل: ما ينبغى أن أقطع عليه أنسه، أو أقتحم عليه إجازته، فقد لا نتفق! وحتى إذا اتفقنا فإنه لشىء بغيض أن ينتزع الإنسان من لهو الحياة فى لندن وباريس إلى حمارة القيظ فى الكويت!».

«أليس هذا حديث رجل معقول؟ أليس رأيه فيما رأى علامة على سماحة النفس والصدر المستريح؟ أليس هؤلاء الناس جديرين بالصلة والمحبة والتقدير؟».

. . . .

«التقيت بالصفاء فى أسمى معانيه، وأحسست قلبا خلا من كل نقيصة، وأنصت إلى حديث برا من الدغل والخداع».

«أقسم أن مدير المطبوعات فى الكويت قد حببنى فى الكويت وأهل الكويت، فلم تمض لحظات على لقائى للسيد بدر الخالد الدر الذى أعجبنى اسمه ورسمه، حتى وقعت عقدا لخدمة الكويت كخبير لدائرة المطبوعات

والنشر».

. . . .

وهو يلخص تجربته في العمل في الكويت ضمن عدد من المصريين العاملين هناك فيقول:

«أحمد الله أنى قضيت فى الكويت سنتين ولم أحسب على الحيتان أو على السردين!».

«ما أكثر ما ننسى أن هدم الأكفاء النابغين هو فى الحق تقويض للسدود العاليات فى حياة الأمم والشعوب».

كذلك يشير إبراهيم عبده إشارات عابرة إلى عمله مستشاراً فى السعودية، وهو يذكر أنه التقى فى بيروت بمن يصفه بأنه صاحب أول وأكبر مؤسسة للطباعة والنشر فى الحجاز وهو السيد أحمد عبيد، ويصفه بأنه «رجل رقيق الحاشية فيه أصالة»، وكان صديقه أحمد قاسم جودة قد حدثه عنه، وقد اختاره هذا الرجل مستشارا لمؤسسته وقد عمل فيها شهورا حتى «استوت أمورها، ونضجت فاكهتها»، وأنه توج جهده بإصدار مجلة (الرياض) التى يصفها بأنها كانت «أول مجلة أدبية اجتماعية مصورة عرفتها المملكة السعودية، ولم تعرف من بعد لها ضريبا»(!!)

(٤٤)

وتقدم هذه المذكرات حديثا مختلفا عن المألوف فى مواضع قليلة، وعلى سبيل المثال فإنه يقدم قصة مختلفة عما هو شائع من سبب فصل طه حسين من الجامعة ونقله للمعارف:

«لقد أقمنا فى قسم التاريخ حفل شاى دعونا إليه الأستاذ العميد طه حسين، ودعونا إلى الحفل طالبات الكلية وبعض طالبات الكليات الأخرى، وانتحى الطالبات ركنا، وانتحى الطلبة ركنا آخر، ولكن طه حسين أشار بأن تجلس الطالبات إلى جوار زملائهن، حتى نبدو وكأننا أسرة، ويعلم الناس أن الجامعة تخلق فى حياة مصر حياة شريفة كريمة لا يسىء فيها اختلاط البنات بالبنين إلى شيئ من الآداب أو الأخلاق».

«وظهرت الصورة فى الصحف، وقامت جريدة الشعب لسان حكومة ذلك العهد بحملة عنيفة، وقام مجلس النواب بثورة هوجاء: كيف ينشر طه حسين الفساد فى كلية الآداب، وطالب نظام الحكم برأسه وقلبه ولحمه ودمه حتى تنقذ الفضيلة من سعى هذا الرجل المفسد الذى يقبل أن يظهر فى صورة فيها الصبية إلى جانب الصبيات؟!».

«وأصبحنا فإذا طه حسين منقول من الجامعة إلى وزارة المعارف مفتشا للغة العربية، أو كبيرا للمفتشين».

(٤٥)

وهو يمس الصراع العربى مع إسرائيل مسا سريعا، لكنه يبدو فيه حريصا على أن ينبه قومه إلى حقيقة إسرائيل وقوتها فى وقت لم يكن مثل حديثه فيه شائعاً، وهو يلخص موقف الأنظمة العربية من حرب ١٩٤٨ بطريقة تكاد تقترب من العدمية، وإن كانت تحفل بكثير من البلاغة:

«ما كان يمكن للعرب أن يكسبوا جولتهم وهم فى نظم الحكم طرائق، وفى علاقاتهم زيغ، وفى أديانهم شيع، وفى نظرتهم لجد الأمور بدائيون».

«لقد كانت حماستهم للوغى والنزال خطبا وأشعارا، تماما كما كان العرب في مطلع حياتهم وبكورة حضارتهم، مع فارق كبير، كان أولئك القدامى يشعرون وينثرون وبنودهم خفاقة، وأعلامهم فى السماء!».

«وكيف كان عدونا المسخ الضئيل فى سنة ١٩٤٨».

«وحدة متماسكة عبر الأراضى والجبال وحول كل بحر ومحيط».

«ونظامهم السياسى؟ أسوة وقدوة».

«وجنديهم؟ خبير ومتمرس».

«وحربهم؟ فكرة وعقيدة».

«كل هذه الحقائق زورتها الصحف والإذاعات العربية، زعمت أن الصهاينة عصابات متنافرة، عبيد يساقون للحرب، وجنودهم سكارى حيارى، وقادتهم قطاع طريق؟!».

«كان المصريون يتشبثون بأرض المعركة، ويعضون عليها بالنواجذ، وكان أحلاف لهم يخلون الطريق للعدو ويدعون للسلام؟».

«السلام؟! ومع مَنْ السلام؟ مع صهاينةلا يرعون ذمة، ولا يرضون إلا حدودا لا تحدها قيود».

....

«حاربت الحكومات العربية إسرائيل يوم ولدت إسرائيل، وليس لها قاعدة شعبية فى أى أرض خرجت منها جنودها وبنودها للقضاء على المولود الجديد!».

«كانت فى مصر حكومة تستند إلى تأييد شعبى صغير».

«كانت فى العراق حكومة ضائعة بين أحزاب من كل لون ودين، وأعراب تائهين فى الصحراء عن شمال ويمين».

«وكانت فى الأردن حكومة هى بالاسم من الرب، وفى حقيقتها صدى لأجنبى يعنيه أن تقوم دولة إسرائيل، إنهم الإنجليز، عز عليهم فى الحجرة مكان الصدر فتحسسوا أى جانب فيها، على كرسى وثير أو على حشف الأرض، الهدف أن يبقوا فى الحجرة ولو عند الباب، وهكذا ضاقت بهم رحاب الشرق العربى إلا فى الأردن، حيث أقاموا حكومة صدى لهم فى كل إحساس وتعبير».

«ثم كانت فى سوريا حكومة حجبت شعبيتها ألوان من الغفلة وسوء التدبير».

«أما فى ربا لبنان فكان شعب ذكى، مسالم، سار فى الزفة وهو معنى بحراسة هوائه النقى، وجباله الشوامخ، وفاكهته الطرية، ونشاطه الدولى منقطع النظير».

«وهناك فى أقصى الجنوب كان النفط سيد الموقف، ومن أجله سيست الأمور على نحو فريد!».

«أين كانت القاعدة الشعبية فى ذلك الحين؟».

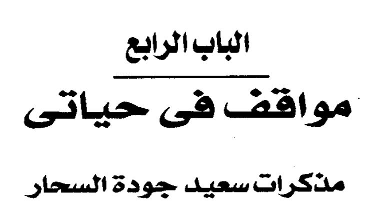
«كانت شعوب العرب جميعا فى سجن كبير، كان الحكم العرفى يسود البيد والحضر، والأحرار بين شريد ومعتقل، ومن عجب أن يطول عهد

الطغيـان فى الوطن العربى فـلا تخف له وطأة منذ عهد مـعاوية حتى قـيام إسرائيل؟!».

. . . .

وبعد هذا كله يهرب إبراهيم عبده إلى حيث الأمان فى حاضره الذى كان يتوجس منه، لكنه كان حريصاً على أن يصفه بالكمال والجلال فيقول:

«مـا لنا وهذه الذكـريات المؤذية؟ إن حـاضـرنا يحفـزنا إلى كل جـمـيل وجليل، فلا ينبغى أن نشغل أنفسنا بالماضى حتى لا نضيع المستقبل».



الباب الرابع

مواقف فى حياتى

مذكرات سعيد جودة السحار

(١)

هذه مذكرات خاصة لشخصية خاصة، صاحبها هو سعيد جودة السحار، واحد من أوائل خريجى الجامعة المصرية، إذ تخرج فى ثالث دفعاتها، وهى دفعة ١٩٣١، وكان تخرجه فى قسم اللغة الإنجليزية، وقد آثر منذ تخرجه أن يعمل فى النشر بادئاً بالمكتبة ثم بالمطبعة، وقد صادف نجاحاً منقطع النظير فى ممارسته لمهنته، وأحرز تفوقاً بدأبه وإخلاصه لعمله، وظل على علاقة وثيقة بالأدب والكتابة والتأليف.

والواقع أن مذكراته تقدم كثيراً من الصور الدقيقة لملامح العصر الذى عاش فيه، غير أننا نراه معنياً أشد العناية بالأرقام، والأسعار، والتكاليف، والمكاسب، وثمن البيع، وثمن الشراء، وهذا أمر طبيعى فيمن مارس ما مارسه من تجارة، لكن كتابة التجربة الذاتية والسيرة الذاتية لا تحتمل كل هذه التفصيلات الخالية من الإمتاع، بل الخالية حتى من النسبة والتناسب اللازمين بين أسعار اليوم وأسعار الأمس، إذ لا تكفى الإشارة إلى أسعار الأمس وذكر سعر اليوم الذى سيصبح هو نفسه بمثابة الأمس بعد سنوات قلائل.

وعلى سبيل المثال فإننا قد نعجب الآن لما يرويه سعيد جودة السحار من ذهوله تجاه أسعار ١٩٩١، ونضحك مع أنفسنا من استكثاره واندهاشه وعجبه، بينما هذا السعر الذى يتحدث عنه ليس إلا واحداً على أربعة أو على عشرة مما نحن فيه الآن، وربما يصبح واحداً على مئة عندما يقرأ قارئ آخر بعد سنوات قليلة هذا الذى نكتبه اليوم. لكن ماذا نقول لعقلية التاجر الحريص على التأمل الدائم فى مثل هذه المفارقات، والذى يظن فى بعض الأحيان أن مثل هذه التضخمات فى الأسعار تمثل نهاية الدنيا!

(٢)

ومن أطرف ما يمكن أن نلاحظه فى هذه المذكرات ما نراه من تقليد صاحبها للدكتور شوقى ضيف فى تضمينه ملامح ملخصة لتاريخ مصر المعاصر ضمن أحداث المذكرات، بحيث يسير هذا الخط من الرواية موازياً لخط رواية السيرة الذاتية، ويظهر من آن لآخر ليذكرنا بمسرح الأحداث، وهى طريقة جميلة لكنها تفتقد الدفء وتحول بيننا وبينه فى كثير من الأحيان.

وفى هذه المذكرات حديث كثير عن علاقة صاحبها بنجيب محفوظ، غير أن هذا الحديث كله لا يمكن التعويل عليه فى شىء، إذ أنه كتب بعد أن وصل نجيب محفوظ إلى ما وصل إليه من نوبل ومجد نوبل، ومع هذا فإن سعيد السحار أوفى الرجل حقه باحترام وتقدير ومعقولية، لكنه لم يلج بقرائه إلى عوالم مجهولة من عوالم نجيب محفوظ المجهولة، أو التى تصور كذلك.

(٣)

وفى هذه المذكرات حديث الأخ الشقيق السعيد بنبوغ شقيقه الأصغر الأديب والروائى الكبير عبد الحميد جودة السحار، لكن هذا الحديث يفتقد من الدفء ما كان يجب أن يحظى به، ومع هذا فإننا قد نفهم السبب فى مثل هذا البرود.

وفى رأيى أن أطرف ما يمكن لنا أن نستمتع به فى هذه المذكرات هو تتبع حديث صاحبها عن شقيقه الأصغر والأكثر شهرة منه، وهو الأديب العظيم عبد الحميد جودة السحار، وقد كان عبد الحميد يصغر صاحب المذكرات بعامين ونصف العام، وقد تخرج فى كلية التجارة وكان أكثر نشاطه فى الأدب، على النقيض (غير التام) من سعيد الذى تخرج فى الأدب وكان أكثر نشاطه فى التجارة، ومن الطريف أن عبد الحميد كان رابع إخوته، وكان الفاصل بينه وبين سعيد أكبر من الفاصل بين سعيد والأخ الثانى أحمد، وهكذا قدر لسعيد أن يرتبط بأحمد، وأن يزامله، بل أن يسبقه فى الدراسة حين نجح فى البكالوريا وفى الابتدائية بينما رسب أحمد فى الشهادتين، وهكذا نرى صاحب هذه المذكرات فى موقف قد يكون مفهوماً للقراء بعد هذا الإفصاح، لكنه يظل غريباً على فهمهم وتقديرهم وهم يرون صاحب المذكرات (بعد هذا العمر، وبعد ما حققه شقيقه الأصغر من موهبة ومجد، بل بعدما انتقل هذا الشقيق إلى رحمة الله).

(٤)

ونحن نرى صاحب المذكرات وهو لايزال ينظر إلى شقيقه الأصغر منه على أنه أصغر منه(!!)، وهو لايزال يتذكر فى كل جزئية وفى كل واقعة أنه

كان أكبر منه، بل وهـو يتذكر بحرص أيضاً أنه كان يساعـده فى كتابة بعض موضوعات الإنشاء، وفى مجابهـة الحياة، لهذا كله فإنه لا يقف أمام ذكرى شقيقه (الحـبيب إلى قلبه) وقفة المنبهر به، ولا وقفـة المتيم بحبه، وإنما هى وقفة الأخ الأكبر المعجب بشقـيقه والمقدر له على أية حال، وربما أن حديث الشقيق (سـعيد) عن الشقيق (عـبد الحميد) فى هذه المذكـرات يمثل نموذجاً دقيقاً للمشاعر الإنسانية فى مثل هذه المواقف.

فهو فى صفحة ١٨ يقول:

«... وكان أخى الأصغر عـبد الحميد قد بلغ عمـره سنتين، وكان يرانا كل يوم ونحن نذهب إلى المدرسة، فغـار منا وأحب أن يلتحق بالمدرسة هو أيضا، وكان أبى يقول عنه: «زى الزبلة ويقاوح التيار»، فبينما نحن فى أثناء الفـصل بالمدرسة، وقـد أمرنا المدرس أن نربع أذرعنا فـوق صدورنا ونلـتزم الصمت، إذ فوجئنا بعبد الحميد يدخل علينا الفصل وهو يصيح:

«جئت ومعى نيكلة! جئت ومعى نيكلة!».

«والنيكلة ـ إن كنت لا تعلم ـ تعنى مليمين».

«فاحمر وجهى من الخجل».

«فسأل المدرس: مَنْ هذا الولد؟»

«فقـمت وأنا أكـاد أبكى من الكسوف وقلت: إنه أخـى الأصغـر، وقد هرب من البيت وحضر إلى هنا دون أن يخبر أحدا».

«فـقـال المدرس: خـذه وارجع به إلى البـيت، حـتى لا تُزعج أمـه إذا

افتقدته فلم تجده».

«فقمت وأنا أتعثر فى خطواتى، وأخذته ورجعت به إلى البيت».

(٥)

على هذا النحو يروى سعيد السحار تصرفات الطفل الذى لا يمكن أن يحاسب على خطأ، وإن كان التصرف يدل على طموح مبكر، وسرعان ما نراه فى صفحة ٢٢ يروى قصة إصابة الشقيق الأصغر نتيجة لجفائه هو شخصيا أو لاستعلائه عليه أو لافتقاده الحنو اللازم، وهو أمر طبيعى فى هذه السن ،ومع هذا فإنه يروى القصة من دون اعتذار ويقول:

«ولحق بنا فى مدرسة الحسينية الأهلية بباب الفتوح أخى الأصغر عبدالحميد، وكان عمره إذ ذاك أربع سنوات، وفى أثناء رجوعنا من المدرسة ذات يوم، سبقته ونحن فى شارع الحسينية وراح ينادينى أن أنتظره، وجرى ليدركنى فتزحلق وسقط واصطدم جنبه بطوار الشارع صدمة شديدة».

«ولما وصلنا إلى البيت أرى والدتنا مكان الصدمة بأسفل جنبه الأيسر وهو يبكى، فسألته كيف وقع، فقال لها: إن أخى سعيدا هو الذى دفعنى فوقعت على حاف الطوار وأصبت».

«وظل طوال الليل يبكى ويتألم».

«فلما كان صباح اليوم التالى لم يذهب معنا إلى المدرسة، وذهب فى العصر مع الشغالة إلى عيادة الدكتور لبيب بشارع باب الفتوح، فكشف عن جنبه وقال إنه يحتاج إلى جراحة، وبالفعل فتح الجرح وطهره ووضع فيه

فتيلة كبيرة، ثم ضمده بأن لف حول وسطه رباطا من الشاش».

«وظل عبد الحميد يتردد على عيادة الطبيب زهاء ثلاثة أشهر، فلم يكن الطب قد تقدم فى ذلك الوقت، وظل أثر الجرح غائرا فى جنب عبد الحميد طوال حياته».

(٦)

ومع أن موهبة عبد الحميد جودة السحار كانت قد بدأت فى الظهور فإن سعيد السحار لا يتحدث عنها إلا متأخراً، وهو فى صفحة ١٣٠ يتحدث على استحياء عما يسميه اكتشافه المتأخر نسبياً لموهبة شقيقه القصصية، وهو يروى حديثه فى تلقائية لطيفة فيقول:

«وفى سنة ١٩٤٠ (ربما كان من الجدير بالإشارة هنا أن نذكر أن سعيد السحار كان قد تخرج عام ١٩٢٩، وأن شقيقه عبد الحميد كان قد تخرج عام ١٩٣٧) قدم إلىّ أخى عبد الحميد أول قصة ألفها، وهى «أحمس بطل الاستقلال» لأقوم بطبعها ونشرها، فقلت فى نفسى: أطبعها له على سبيل تشجيعه حتى لا أصدمه برفضى القيام بطبعها، وقرأت القصة فوجدت فيها شيئا جديدا جديرا بالاهتمام، فشخصياتها تتحرك بذكاء، وحوادثها تتوالى بتلقائية بعيدة عن أى افتعال، ولكنى وجدت بها بعض أخطاء لغوية يسيرة فدفعت بها إلى الأستاذ مصطفى السقا ليقرأها ويصحح ما بها من أخطاء، فلاحظت أن الأستاذ مصطفى السقا حين بدأ فى قراءتها استولت عليه حوادثها فراح يتتبعها بشغف شديد، ولم يشأ أن يقطع عليه أحد نشوته، فاطمأننت إلى تأثير القصة فى قرائها».

«وكانت «أحمس بطل الاستقلال» مفاجـأة حقيقية بالنسبة لى، فلم أكن أعرف قبـل الآن أن عبد الحمـيد يتمتع بهـذه الموهبة، موهبة القـاص القدير المتمكن من فنه، وبدأت أنظر إليه بعين جـديدة، وتنبأت له بمستقبل باهر فى عالم القصة».

(٧)

وعند هذا الحد يبدأ سعيد السحار فى الحـديث عن مؤلفات شقيقه بصفة مجملة، وهو حديث مختصر مفيد لتاريخنا الأدبى على نحو سريع:

«وقدم لى عـبد الحميـد بعد «أحمس بطل الاسـتقلال» عدة كـتب دينية هى: «أبى ذر الغفـارى» كتب مقـدمة له الشيخ حـسن البنا، و«بلال مؤذن الرسول»، و«سـعد بن أبى وقاص»، و«أبناء أبى بكر الصـديق»، وقدم فى أثناء ذلك أيضا مـجموعتى أقـاصيص، أولاهما مـجموعة «فى الوظيـفة»، وهى انطباعات ذكـية عن ذكرياته فى سلاح الطيـران، وعن تصرفات بعض زملائه من الموظفـين، وثانيتـهما مـجموعـة «همزات الشيـاطين»، والفكرة الأساسيـة فيها تتـحدث عن الصراع بين الغواية والإيمـان فى أسلوب شائق أخاذ لم أكن أتوقعه من عبد الحميد».

«ثم أتبع ذلك كـتابه «فى قافلة الزمـان» ويحكى فيـه ما وقع فى مـحيط الأسرة من حوادث ومفـارقات قبل أن نولد نحن، معتمدا على مـا سمعه ـ وسمعناه معـه ـ من أمنا وهى تقصه علينا، وقد سجله عبـد الحميد بأسلوبه المشرق الجميل».

. . . .

ومن الطريف أن النزعة التجارية لا تفارق سعيد السحار وهو يروى الاستعراض السريع الذى لخص به بعض مسيرة شقيقه مع النجاح، فإذا به يحرص على أن يردف مباشرة بفقرة تتضمن تصوير «الجانب المادى» فى عملية الإبداع على نحو ما يتصورها عملاً ميكانيكياً وهو يقول:

«. . . وقد دأب عبد الحميد على الكتابة فكان ينهض من نومه قبيل أذان الفجر، فإذا صلى الفجر جلس إلى مكتبه واندمج فى الكتابة حتى يسمع نفير السيارة التى تجىء لتنقله إلى مقر عمله، وتحدثنا فى ذلك فقال: إنى انجز فى هذه الفترة كل يوم عشر صفحات، أى أنى استطيع ان انجز كل شهر كتابا من ثلاثمائة صفحة».

(٨)

ونمضى مع صفحات هذه المذكرات لنطالع بعد عشرين صفحة ما يروى به صاحبها ذكريات عن أحد الكتب التى ألفها عبد الحميد جودة السحار والتى يعتقد صاحب الذكريات أنه كان له فضل فى ظهورها على نحو جيد حيث يقول:

«وقدم إلىّ أخى عبد الحميد أصول ثلاث ملازم من كتابه «المسيح عيسى ابن مريم»، وطلب منى أن أقدمه للطبع، فقلت له: «إن تأليف كتاب عن المسيح عيسى ابن مريم يا عبد الحميد، لابد أن تسبقه دراسة شاملة ورجوع إلى مراجع متعددة لمدة ثلاث سنوات على الأقل حتى تحيط بجوانب الموضوع، ويمكنك أن تكتب فيه، والموضوع نفسه حساس وشائك ويمس عقائد إخواننا المسيحيين، فأرجو أن تعدل عنه واختر لك موضوعا آخر لتكتب فيه».

«وأخـذت منه أصول الكتـاب ووضـعتـها فى درج المـكتب بالمطبعـة، وسـافـرت فى إجازة بضـعـة أيام إلى الإسكندريـة، ولما عدت وجـدته قـد استخرج الأصـول من الدرج ودفع بها إلى العمال ليصفـوا حروفها، وأنهم قد جمعوا منها إذ ذاك ثلاث ملازم، وهكذا وضـعنى عبد الحميد أمام الأمر الواقع».

«أخـذت الملازم وقـرأتهـا فـرأيت تفككا فى الأسلـوب، واضطرابا فى تسلسل المعانى، فجـعلت أراجع ما كتبه عبـد الحميد كلمة كلمـة وأصححه بعناية واهتمام، وقـد استغرق ذلك منى يومين كاملين أو أكـثر حتى رضيت عن سلامة الأسلوب، وتدفق المعانى فى الملازم الثلاث».

«وأقر عبد الحمـيد ما فعلته، وفرح لأنى رضخت أخيرا لمشـيئته، وقبلت طبع الكتـاب، ولاحظت أن الأسلوب الذى أكمل به الكـتاب بعد ذلـك قد اسـتقـام فى الملازم الباقـية أو كـاد، ولم أحتج فى تصـحيـحهـا إلى وقت طويل».

«حتى إذا طبع الكتاب وظهر فى السوق استقبله النـقاد استقبالا جميلا، وأثنوا عليـا ثناء حسنا، حـتى إن الأستـاذ أحمـد زكى أبو شادى كـتب فى إحدى الصـحف العربيـة التى تصدر فى أمـريكا تقريظا للـكتاب، ووصف أسلوبه بأنه أشبه بالشعر المنثور».

(٩)

ومع كل هذا الإحـساس بموهبـة أخيـه وشقـيقه فـإن صاحب المـذكرات يستطرد ليحدثنا حديث تاجر ماهر عـما يعتقد أنه بعض أسرار قاص موهوب

أو قدراته، وهو حديث دقيق فيما يسجله من ماديات لكنه فى الوقت نفسه أعجز من أن يلم بما وراء الماديات، وانظر إلى ما يوحى به هذا الحكم المبتسر فى هذه الفقرة السريعة:

«وعبد الحميد يتمتع بموهبة نادرة، قل أن يشاركه فيها غيره، فهو إذا احتاج إلى الرجوع لمرجع ما تناوله تناولا هينا، فيفر صفحاته حتى يعثر على النقطة التى يريدها فيقرؤها مرة واحدة، فيعلق بذهنه ما يريده منها، حتى إذا جلس للكتابة سكبها على الورق بأسلوبه المتدفق الجميل، وبذلك أمكنه أن يكتب كل كتبه التى يحتاج فيها إلى مراجع».

هل رأى القارئ من هواة النقد الأدبى أو من هواة الفن والأدب وصفاً مادياً كهذا الوصف المادى البحت الذى يصف التناول بأنه هين، ويصف النقطة بالعثور، ويصف الاستيعاب والتمثل بالتعلق الذهنى، ويربط هذا بالإرادة، ثم يعبر عن الكتابة التى أقسم الله بها بأنها سكب على الورق(!!).

(١٠)

ونحن نرى اقتراباً أكثر من إنصاف الشقيق الأصغر فيما يسجله صاحب الذكريات من رؤية بانورامية لعلاقته بشقيقه بعد أن مضى بهما العمر إلى مشارف النهاية، ونراه فى صفحة ٢٣٥ يقول:

«وقد نمت صلتى بعبد الحميد وقويت ابتداء من سن ١٩٣١، ولاسيما بعد أن ذهب نيابة عنى هو وزميلى فريد عبد الرحمن إلى مكتبات الفجالة يبحثان عن ناشر يقبل أن ينشر لنا ترجمتنا لمسرحية «كريتون العجيب»، ثم

قيامه ـ بمعاونة مستر كيرنر ـ بتوزيع كتابى المحفوظات الإنجليزية لطلبة الكفاءة والبكالوريا على زملائه الطلبة».

ومع أننا نتـوقع مواصلة الامـتنان لعبد الحـميـد جودة السـحار، إلا أننا سرعان مـا نجد صاحب المذكرات الحريص على الصـدق الواقعى، والصدق النفسى، والصدق الفنى يعود إلى طبيعته المؤمنة بتفوقه على شقيقه فيقول:

«وأذكر أنه جـاءنى فى ذلك الوقت وطلب منى أن أكتب له مقـالا باللغة الإنجليزيـة فى موضوع بعـينه، لا أذكره الآن مـا هو، لينشره فى صـحيـفة المدرسة، فكتـبت له المقال الذى طلبـه ونشره باسـمه، ولكن زمـلاءه طلبة الكفاءة لم يصدقوا أنه من تأليفه وقالوا له: إن أخاك الأكبر سعيدا هو الذى كتبه لك».

«فكان بعد ذلك إذا كلف مدرس اللغـة العربية الطلبة كتـابة موضوع فى الإنشاء العربى، وكتب عبد الحميد الموضوع بأسلوبه هو نفسه، ورأى الطلبة أن مسـتوى موضـوعه أعلى من مسـتوى موضـوعاتهم راحـوا يقولون له: «لست أنت الذى كتبت هذا الموضوع، بل كتبه أخوك الأكبر سعيد».

«ونجح عبد الحمـيد فى امتحان الثانوية العامـة سنة ١٩٣٣ والتحق بكلية التجارة، فـساعده ذكاؤه واستغـراقه فى استذكار دروسه مع صـديقه وزميله فى الدراسة صلاح قنصوة إلى ساعة متأخرة من الليل على الانتقال من سنة إلى أخرى بتفوق».

(١١)

على أن كل هذه المشـاعر المضطربة تتـلاشى أمام الحـديث الأخيـر الذى

يحفل بما يتوقع من مثل هذا الشقيق، وهو بالطبع حديث عن وفاة شقيقه، وهو يروى ذكرياته عن مرضه الأخير فيقول ضمن ما يقول:

«... وزرته فى اليوم التاسع عشر من يناير سنة ١٩٧٤ فوجدته جالسا فى سريره وحالته قد ساءت، وهو يخلط فى كلامه، فسألته: «كيف حالك اليوم؟»».

«فقال: كما ترانى، وستسمع خبرا عنى فى الإذاعة فى الحادى والعشرين من يناير، وستقرؤه فى الصحف صباح يوم الثانى والعشرين».

«فعزوت ذلك إلى كونه يخلط فى كلامه».

«وذهبت لأزوره يوم الحادى والعشرين فوجدته صاحيا منتبها، ورأيته يقوم من سريره خفيفا ويذهب إلى باب شقته ليحضر الجرائد التى دفعها البواب من تحت عقبه ويروح يقرؤها».

«فاطمأننت عليه وانصرفت على أن أعود لأزوره عند الغروب».

«ولكن هذا كان آخر لقاء بيننا، فقد غرب نجمه وجاءنى نعيه ذلك اليوم».

«وتحقق ما تنبأ به عبد الحميد وأنا أحسبه يهذى».

«فقد نعته الإذاعة فى نشرة أخبار الساعة التاسعة من مساء يوم الحادى والعشرين من يناير سنة ١٩٧٤».

«وظهرت الصحف وفيها خبر وفاته وصورته ونبذة عن حياته وأعماله صباح يوم الثانى والعشرين من يناير سنة ١٩٧٤».

(١٢)

ولا يفوت صاحب هذه الذكـريات أن يقدم خدمة خـاصة لتاريخنا الأدبى حين يسرد لنا قائمـة مؤلفات شقيقه التى نشـرت بعد وفاته، وكان له ولابن شقيـقه صلاح عبد الحمـيد جودة السحار الفـضل فى إعدادها للنشر، ومن الواجب علينا أن نشكر لهذين الرجليين هذا الجهـد الذى أتاح لنا أربعة عشر كتاباً من مؤلفات الأديب العظيم كانت قابلة للضياع بسهولة لو لم يقيض لها جهد الأخ والابن:

«وترك عبد الحميد غير ما ظهـر من مؤلفاته فى حياته أوراقا كثيرة سلمنى إياها نجله د. صلاح عبد الحميد استخرجت منها مؤلفاته الآتية:

«كشك الموسـيقى، خفقـات قلب، صور وذكريات، الإسـراء والمعراج، القصـة من خلال تجـاربى الذاتية، عـدو البشـر، أبطال الجزيرة الخـضراء، النمر، الله أكبر، ثلاثة رجال فى حياتها، مسجد الرسول، فات الميعاد، آدم إلى الأبد، الدستور من القرآن العظيم».

....

ونأتى إلى أروع فـقرة فى كل أحاديث صـاحب المذكرات عن شـقيـقه، وهى الفقرة الموجزة البـالغة حد الوجد فى التعبيـر عن الحب الحقيقى الذى يكنه الشقيق لشقيقه:

«رحم الله عبـد الحميد، فـقد أفنى حياته فى الكتـابة، وترك خلفه ثروة كبيرة من المؤلفـات خلدت اسمه بين القصاص الكبار، وأشاد النقـاد جميعا بأعماله، وقـال عنه ناقد معروف [لست أدرى لماذا لم يذكـر اسمه]: لو ألقى

عبد الحميـد جودة السحار كل أعماله ـ على نفاستـها ـ فى البحر، وبقى له كتابه الوحيـد «محمد رسول الله والذين معه»، لضـمن له مكانه المتميز بين أعاظم مَنْ كتبوا السيرة النبوية على مدى العصور».

(١٣)

تطلعنا هذه المذكرات على حقيقة مهمة تتعلق بنظامنا الجامعى فى بداياته، ومن الطريف أننا لم نجد هذه المعلومـات إلا فيما يرويه سعيـد السحار، وإن كان ما يرويه مـصاباً ببعض القصور وعـدم الدقة، وتكمن الطرافة فى هذه المعلومات فـى أن بعض أقسام كليـة الآداب كانت لا تضم إلا طالبـاً واحداً فقط، وربما يبـدو هذا غريباً على القـراء، والواقع أن قسم اللغـة الإنجليزية الذى تخرج فيـه سعد السحار لم يخرج فى أولى دفـعات كلية الآداب وهى دفعة ١٩٢٩إلا واحداً فقط هو نجيب بلدى، ولم يخرج فى دفعة ١٩٣٠ إلا واحداً فقط هو معين روفائيل.

ومن الجدير بالذكر أن قسم اللغة الإنجليـزية لم يخرج فى الدفعة الثالثة، أى دفـعة ١٩٣١ إلا أربـعة هم: سـعـيد جـودة السـحـار نفسـه، وفـريد عبدالرحمن، ومحمد حسن بالى، ومحمد عبد المنعم حافظ.

ولا بأس أن نضـيف إلى هذه المعلومات أن هذا القـسم خرّج أربعـة فى الدفعة الرابعة (١٩٣٢) كان منهم كروان الإذاعـة محمد فتحى بك، وخرّج تسعة فى الدفعة الخامسة (١٩٣٣).

ومن الطريف أن سعيـد جوده السحار لم يعن بمسئـولياته كطالب فى هذا القسم، ولم يعرف هذه المعئوليات إلا فى نهاية السنة الأولى، لكنه على كل

حال لم يبق بمفرده فى هذا القسم الذى كان وحيداً فيه طيلة سنتين، إذ ضم إليه المحولون من مدرسة المعلمين العليا.

لكن هذا لا يمنعنا من الاعتراف بقيمة ما يرويه سعيد السحار عن ذكرياته الأولى فى هذا القسم الذى كـان هو طالبه الوحيد فى هذه الدفـعة، وانظر إلى روايته حيث يقول:

«. . . وكنت طوال السنة الأولى أحضر الدروس والمحاضرات العامة مع غـيـرى مـن الطلاب، وأعـجب فى نفـسى لِمَ لم أتلـق أية دروس فى تخصصى، أى فى اللغـة الإنجليزية التى اخترت دراستهـا؟ وأخيرا قلت فى نفسى: لعل دروس التخصص تبدأ من أول السنة الثانية».

«إلى أن كان يوم قبيل امتحان آخر السنة، إذ دخل علينا فى الفصل مستر دوبريه رئيس قسم اللغة الإنجليزية وقال:

«علمت اليوم فـقط أن فيكم طالبـا ملتحقـا بقسم اللغـة الإنجليزية؟ أين هو؟».

«فقمت وقلت: إنه أنا».

«فقال: لِمَ لم تحضر إلىّ من أول العام الدراسى لتعرفنى بنفسك؟».

«قلت: لما لم يسأل عنى أحـد اعتقدت أن دروس التخـصص قد تبدأ من السنة الثانية».

«قال:

«حسن، تعال معى الآن».

«وسار وسرت معه حتى وصلنا إلى غرفته، وقال:

«سأختبر معلوماتك لأعرف مدى إلمامك باللغة».

«وأخـذ يسألـنى عن معـانى بعض الكلمـات، فكنت أصـيب فى كلمـة وأخطئ فى كلمتين، فسهم قليلاً ثم قال:

«على كل حال It is never too late to mend أى: أبداً لا تفوت فرصة الإصلاح».

«وقام إلى رف عليه بعض الكتب وأحضر منه كتابين أحدهما Short Stories of Today والآخر Essays of Yesterday وقال لى:

«خذ هذين الكتابين، وعليك أن تحضر مـفكرة ثم تبدأ بأى كتاب منهما، وكلما قابلتك كلمـة لا تعرف معناها اكتبـها فى المفكرة، وابحث عن معناها فى القاموس واكتبه أمامهـا، ثم عليك أن تحفظ معانى هذه الكلمات جيداً، وبهذه الطريقة تتقن اللغـة الإنجليزية، وعليك فى أول العام الدراسى القادم أن تمر علىّ لأمتحنك، فإن وجدت مسـتواك تحسن نقلتك إلى الفرق التالية، وإلا .. أنت تعرف الباقى».

«قلت:

«سأبذل كل جهدى لأكون عند حسن ظنك».

«وأديت امـتحـان آخـر السنة، وانتـقلت إلى السنة الثـانيـة، وقلت فى نفـسى: «ها قد حـانت الفـرصة التى طالما تمـنيتـها، فـرصـة إتقانى اللغـة الإنجليزية»، وتناولت كتاب Short Stories of Today ورحت أعمل بنصيحة

مستر دوبريه فأستخرج كل الكلمات الصعبة التى تصادفنى فى الكتاب، وأستخرج معانيها باللغة العربية من القاموس، ثم أحفظها جيداً، وكان مجموع الكلمات التى لم أعرف معانيها فى الكتاب الأول ألفى كلمة، فلما فرغت من الكتاب الأول، أمسكت الكتاب الثانى Essays of Yesterday وكررت فيه نفس ما عملته فى الكتاب الأول، فوجدت أن مجموع الكلمات التى لم أعرف معانيها كان مائتى كلمة فقط، حفظت معانيها أيضا، بعد ذلك كنت أقرأ أى كتاب إنجليزى يقع فى يدى فتكاد لا تعترضنى كلمة لا أعرف معناها».

(١٤)

وبعد عشر صفحات من هذا الحديث يحدثنا سعيد جودة السحار عن صورة أخرى من صور علاقاته الوطيدة والمنفتحة فى تعامله مع أساتذته من الإنجليز الذين كانوا يتولون التدريس فى قسم اللغة الإنجليزية بكلية آداب القاهرة، وهو يتحدث عن أستاذ شاب أدار معه حواراً حول الأغنية المصرية وتقبل تعليلات السحار لبعض ما انتقده فيها مما لا يوافق الذوق الغربى:

«وكان الأستاذ الإنجليزى مستر مجردج شابا يناهز الثلاثين، ويسكن فى شقة بشارع رمسيس بمصر الجديدة، وبما أنى كنت الطالب الوحيد فى قسم اللغة الإنجليزية فى ذلك الوقت، فقد اتفق معى على أن أذهب إلى منزله حيث أتلقى درس الساعة الخامة مساء الاثنين، بدلا من أن يحضر هو من مصر الجديدة إلى الجيزة».

«ذهبت إليه كالعادة، وكانت تجلس معنا فى الدرس زوجته، وعرضت عليه ترجمة إنجليزية لكلمات أغنية «نزهة فى النيل» التى نظمتها، فأعجب

بها وقال: إنها أغنية محبوكة ومعانيها جميلة، وقالت زوجته: الجميل فيها أنها تحكى قصة، وأن فيها حركة».

«وقال مستر مجردج: حضرت مرة حفلة غناء مصرية، وكان المغنى طوال السهرة يردد كلمة واحدة «يا ليل»، أليس هذا شيئا مملا؟».

«فقلت وأنا أدافع عن هذا المغنى، وألتمس له العذر: إن المغنى إنما يعرض مهارته فى الغناء، فهو يردد كلمة ياليل كل مرة فى أداء مختلف، وكلما نوّع فى ترديد كلمة ياليل أثبت براعته فى التلحين».

«فقال مستر مجردج وهو غير مقتنع: إن كان الأمر كذلك فلا بأس!».

(١٥)

ونأتى إلى الفقرة التى يحدثنا فيها سعيد السحار عن انضمام بعض طلاب مدرسة المعلمين العليا إلى دفعتهم، وسنورد النص الذى يقدمه على نحو ما كتبه ثم نعقب على النص بما اكتشفناه فيه من مخالفة للواقع:

«وبعد مرور شطر من العام الدراسى تقرر أن ينضم طلبة مدرسة المعلمين العليا، التى تقرر تصفيتها، إلى طلبة كلية الآداب، فانضم إلى قسم اللغة الإنجليزية فى السنة الثالثة سبعة طلاب، فأصبحنا ثمانية بعد أن كنت أنا الطالب الوحيد فى القسم، وكان الطلبة الوافدون هم: لويس عوض، وفريد عبد الرحمن، ومحمد حسن بالى، وخطاب عطية، وعبد المنعم كامل، وإدوارد سعيد، وحبشى عطا الله، كما حول إلى القسم طالبان من كلية الحقوق هما عزيز مراد، ومحمود رياض، وكان عزيز مراد يتكلم الإنجليزية أحسن منا جميعا، ولا عجب، فقد كانت أمه إنجليزية، وكان

محمود رياض يتكلم الفرنسية والإنجليزية بطلاقة، وإذا تكلم استعان بإشارات يديه وتعبيرات وجهه وعينيه وحاجبيه».

. . . .

وربما يعجب القراء حين يجدون سعيد السحار يروى أن لويس عوض نفسه كان واحداً من المحولين من هذه المدرسة إلى السنة الثالثة فى كلية الآداب جامعة القاهرة، بينما نحن نعلم علم اليقين من معلوماتنا المستمدة من وثائق الجامعة أنه لم يتخرج إلا فى دفعة ١٩٣٧ من كلية الآداب أى بعد دفعة السحار بست دفعات كاملة وهو ما يستحيل معه أن يكون لويس عوض قد بقى كل هذه السنوات طالب فى الكلية ، هذا فضلاً عن أنه من مواليد ١٩١٣ وكان قد ألحق بكلية أخرى ثم عاد للالتحاق بالآداب !!.

ومن الجدير بالذكر أن قسم اللغة الإنجليزية لم يخرج فى الدفعة الثالثة، أى دفعة ١٩٣١ إلا أربعة وردت أسماؤهم جميعا فى نص السحار وهم: سعيد جودة السحار نفسه، وفريد عبد الرحمن، ومحمد حسن بالى، ومحمد عبد المنعم حافظ وقد تخرج واحد من الذين ذكر سعيد السحار اسماءهم وهو خطاب عطية فى الدفعة التالية وهى دفعة ١٩٣٢ .

. . . .

«وفى نهاية السنة الثالثة لم يكن ثم امتحان للنقل إلى السنة الرابعة، فانتقلنا إليها «آليا» دون أن نؤدى أى امتحان».

(١٦)

وفى هذه المذكرات فقرة مهمة لتاريخنا التربوى والتعليمى لأنها تحدثنا عن السنة (١٩٢٦) التى شهدت تحول التعليم الثانوى من نظام السنوات الأربع

إلى نظام السنوات الخمس، وهى الخطوة التى خطتها وزارة المعارف فى عهد على ماهر باشا، وكانت قد رُسمت خطة التحول بمرونة على نحو ما كانت كل خطوات التحول فى ذلك العهد تتم بمرونة شديدة ودون تعسف مع الجماهير أو الطلاب، وعلى سبيل المثال فإننا نرى كيف كان ممكناً لصاحبنا أن يكسب سنتين على الأقل من عمره لو أنه تنازل عن الدراسة فى مدرسة حكومية، وكيف كان من الممكن أن يفقد هاتين السنتين أو أكثر لو أنه صمم على البقاء فى المدرسة المتميزة التى كان يدرس فيها، ونحن نراه يروى بصدق شديد شعوره تجاه هذا الموقف الذى كان عليه أن يختار فيه، وكيف جاهد من أجل هدف الإسراع فى نيل الشهادة، وكيف نجح فى تحقيق هذا الهدف على نحو ساعد فيه اجتهاده ورأيه وخوفه من فقدان سنوات عمره بلا طائل مباشر من وجهة نظره:

«. . . وظهرت نتيجة امتحان السنة الثالثة الثانوية فى أوائل شهر يونيو [يقصد يونيو عام ١٩٢٦]، فإذا بى أرسب فى الامتحان، وينتقل شقيقى أحمد إلى السنة الرابعة الثانوية فى المدرسة الإعدادية الثانوية بالظاهر، على أن يدخل امتحان البكالوريا هذا العام، بينما علىّ أن أعيد السنة الثالثة الثانوية فى مدرسة فؤاد الأول، ثم أدخل السنة الرابعة فى العام القادم، ثم السنة الخامسة فى العام الذى يليه، حسب النظام الجديد الذى يقضى بأن تكون الدراسة الثانوية خمس سنوات بدلا من أربع، حتى أحصل على البكالوريا إن ساعدنى الحظ ولم أرسب، بعد ثلاث سنوات».

«فقلت لوالدى: أرى أن ألتحق بالمدرسة الإعدادية الثانوية مع أخى أحمد، وكان ذلك أمرا ميسورا حين ذاك، وأن أدخل امتحان البكالوريا هذا العام، فإن حدث ورسبت فأمامى الفرصة لأنجح فى العام القادم فأكون بذلك قد وفرت سنة دراسية».

وهو يدلنا بوضوح على مـدى العوامل الذكية التى كـان الآباء يحرصون عليها حـين يخططون مستقبل أولادهم فى التـعليم، فهذا هو والده لا يريد أن يضحى أبداً بـفرصة وجـود ابنه فى مدرسـة متمـيزة مهـما كـانت الميزة الظاهرة بمنطق الشهادة وهو المنطق الذى أصبح سائداً الآن !!:

«فلم يقتنع والدى بمنطقى، فـإنها خسارة كبيـرة فى رأيه أن أترك مدرسة أميـرية لألتحق بمدرسـة أهلية مهـما قـدمت من حجج مقنعـة، فقـد كانت للمدارس الأهليـة إذ ذاك سمعة سـيئة فى مسـتوى التعليم فـيها، فامـتثلت لإرادته، وعدت إلى الفـرقة الثالثـة فى مدرسة فـؤاد الأول الثانوية، فكان علىّ أن أنتظر ثلاث سنوات طوال لو ساعدنى الحظ ولم أرسب فى أية سنة منها قبل أن أحصل على شهادة البكالوريا».

«وكنت فى أثناء الفسحة ألتقى بالطلبـة الذين كانوا معى فى العام المنصرم ونجحـوا، فيرثون لحالـى ويقولون لى: حرام أن ترسب أنت وتعـيد السنة، وأنت طالب كفء كنت تسـتحق الـنجاح، فـيؤلمنى رثاؤهم أكـثر مما كـانت تؤلمنى شماتتهم، وأكاد أبكى من القهر».

«حتى إذا حل شهـر يناير أجرى لنا مدرس الرياضة امـتحانا تجريبـيا قبل امتـحان نصف السـنة فى الحسـاب والجبر والهـندسة، وعند إعـلان نتيـجة الامتـحان كان يعلن لكل طالـب الدرجات التى حصل عليـها فيـقول: ٢ ـ صفـر ـ ثلاثة، أو صفر ـ خمـسة ـ ثلاثة، وهكذا، حتى جاء دورى فـقال: خمسـة ـ خمسة ـ خمـسة، وكنت أنا الوحيد الذى حـصلت على الدرجات

النهائية فى كل فروع الرياضة الثلاثة».

«وعندما عدت إلى المنزل ذلك اليوم قلت لأبى: حرام أن أنتظر ثلاث سنوات على الأقل لأحصل على البكالوريا، بينما فى إمكانى أن أحصل عليها هذا العام لو دخلت المدرسة الإعدادية مع أخى أحمد واجتهدت، وساعدنى الحظ وإن لم يساعدنى الحظ هذا العام فقد أحصل عليها فى العام القادم فأكون قد وفرت سنة من عمرى».

(١٨)

هكذا قدر لصاحبنا أن يجد سببا يقنع به والده، لكن الرجل لم يقتنع إلا بعد أن وسط الابن عنده جماعة من أصدقائه حتى اقتنع، ثم شاء القدر أن يعطى صاحب المذكرات فرصة للمذاكرة الجادة حين سقط مصاباً فى أثناء اللعب فأتيح له، من أجل العلاج، وقت كان كافياً للاستذكار المركز المؤهل للنجاح:

«ولسوء الحظ أو لحسن الحظ لست أدرى، بينما كان فريقنا يلعب الكرة فى أرض باغوص ضد فريق آخر، إذ أصاب أحد الخصوم قدمى إصابة بالغة».

....

وبعد أن يحدثنا عن العلاج العاجل الذى تلقاه، والإصابة التى لحقت به يقول:

«... وجعلتنى إصابة قدمى لا أستطيع السير، فاضطررت أن أستكن

فى البيت وأستذكر الدروس فى كتب أخى أحمد نهارا وليلا، ولما التأم الجرح واستطعت السير أصبحت أتردد على المدرسة الإعدادية مع أحمد، وحضرت معه الحصص فيها، وكان مستر هاثواى الذى يتمتع بسمعة طيبة لمهارته فى التدريس هو الذى يشرح الروايتين المقررتين ذلك العام: كنلوورث لوالتر اسكوت، وتاجر البندقية لشكسبير، كما التحقت كذلك بمدرسة راغب مرجان الثانوية الليلية، وكان مستر هاثواى هو نفسه الذى يدرس لطلبتها اللغة الإنجليزية أيضا».

«ودخلنا امتحان البكالوريا ذلك العام أنا وشقيقى أحمد، ولما ظهرت النتيجة جاءت تماما مثل نتيجة الشهادة الابتدائية، فقد رسب أحمد ونجحت أنا، ولم يكن يعكر فرحتى بالنجاح إلا رسوب شقيقى أحمد».

....

«وحصلت على شهادة البكالوريا سنة ١٩٢٧، والتحقت بقسم اللغة الإنجليزية بالجامعة المصرية».

(١٩)

والواقع أننا نرى ملامح الاجتهاد الحقيقى تطل من سيرة هذا الرجل دون أن يدرى، وانظر على سبيل المثال إلى جهده الدءوب فى تعلم اللغة الإنجليزية الراقية بعصامية شديدة، ومحاولاته الدائبة من أجل التعلم مهما كانت هذه المحاولات مفعمة بالخطأ الذى يتعلم منه كل مجد فى التعليم:

«... وكان مدرسنا فى اللغة الإنجليزية مستر كيرنر، وقد كلفنا ذات مرة كتابة موضوع إنشاء عن أحب هواياتنا إلينا، فكتبت أنى أهوى مشاهدة

روايات السينما، وكتبت أسماء الممثلين الأجانب الذين كنت أعجب بهم وأفضلهم على غيرهم، فلم يكن قد ظهر حتى ذلك الوقت سنة ١٩٢٤ أى ممثلين سينمائيين مصريين، أكتبها حسب نطقنا إياها، فكتبت مثلا Sharly Shablin بدلا من Charlie Chaplin وهكذا. فلما أعاد إلىّ الكراسة صعقت، فقد كان اللون الأحمر - لون الحبر الذى صحح به الموضوع - يغلب على اللون الأسود الذى كتبت به».

هكذا يعترف التلميذ المجتهد فى صراحة محببة إلى النفس.

. . . .

والواقع أن هذا الاجتهاد كان يعبر عن نفسه فى صورة من صور الجدية التى لم ينتبه صاحب المذكرات إلى التعبير عنها فى نصوصه، ومع هذا فقد أفلتت فى رواياته واقعة تدل عليها من بعيد حين يتحدث عما جبل عليه من كتمان المشاعر حتى عن أهله الأقربين:

«. . . وكانت [الحديث عن وفاة شقيقته] صدمة شديدة لا تُتصور لوالدتى ولكل أفراد الأسرة، كما كانت الصدمة أشد بالنسبة لى أنا خاصة، فأنا بطبعى أكتم مشاعرى فى قلبى ولا أظهرها لأحد، فكنت أنزوى فى ركن من الشرفة، وأسح الدموع فى صمت على «فلة» التى قضت فى عمر الزهور».

«حتى إنهم عندما أرادوا أن يجمعوا حاجات فلة ويضعوها فى صندوق قال: فليجمعها سعيد، فهو أقلنا حزنا عليها».

(٢٠)

تتضمن هذه المذكرات كثيراً من تفصيلات الحياة الاجتماعية واليومية فى

الفتـرة التى عاش فـيهـا صاحب المذكرات، ونحـن نعترف له بما تمـيز به من ذاكرة حافظة لكثير من مظاهر هذه الحياة، ومع أن سعـيد السحار يقدم كثيراً من هذه المظاهر والذكريات بنظرة استعـلاء على الواقع القديم، فإن الأمر لا يخلو من بعض الحـنين إلى هذا الماضى، كـما أنه لا يـخلو من بعض الألم لافتقاد بعض ما كان جميلاً وممتعاً، وعلى صعيد رابع فإنه يطلعنا على مدى التقدم الذى لا نعلم حدوده فـيما كان متاحاً من وسائل الحـياة والإمتاع فى هذه الفترة.

وعلى سبيل المثـال فإننا نقرأ له وصفـاً بسيطاً ودقيقاً لـلألعاب التى كانت تقدمـها الملاهى التى أوجدتـها شركـة مصر الجـديدة فى هذا الحى الجديد، فنعـجب من هذا الثراء الممـتع الذى احتـوته هذه المدينة التى اندثرت الآن، ومع أن الحديث عن مـثل هذه الألعاب يبدو مسـتغرباً فى سيـاق جاد، فإنه يرينا مدى ما كان متاحاً من وسائل التثقيف والترفيه فى فترة مبكرة:

«. . . كمـا أنشأت فى مكان مـيدان روكسى، فى المسـاحة التى تشـغلها الآن سينما روكسى ونادى هليـوليدو، حديقة ملاهى كبـيرة، أطلقت عليها اسم «لونابارك»، جمعت فيها ألعاباً مخـتلفة لم يكن للمصريين عهد بها من قبل».

«ولكى تجـذب الجمـاهيـر إلى الضاحـيـة الجديدة، جـعلت ثمن تذكـرة الدخول للزائر واستمتاعه بممارسة عشر ألعاب مختلفة خمسة قروش فقط».

. . . .

«وأول مـرة زرت فيـهـا حديقـة مـلاهى «لونابارك» كـانت سنة ١٩١٩

وعمرى إذ ذاك عشـر سنوات، ذهبنا إليها فى عيد الفطر أنا وشقـيقى أحمد وابن عمنا بدر، فاشترينا ثلاث تذاكر، كل تذكـرة تحتوى على عشرة أقسام، كل قسم منها يسـمح بدخول لعبة معينة، وأول لعـبة دخلناها كانت القطار، ركبناه فـسار بنا ببطء أولا، ثم اشـتدت سـرعته، ومـازال يلف بنا ويدور، ويصعد إلى علو شاهق ثم يهوى فـجأة إلى قرار سحيق، ثم يدخل فى نفق مظلم شعرت فـيه بأشياء غريبة تداعب وجـهى، ثم خرج من النفق ومازال يلف ويدور ويصعـد ويهبط وأنا فى أثناء ذلك كله أضحـك ضحكا عصبـيا يمازجه الخوف».

«وبعد القطار ذهبنا إلى المركب، وكان علينا أن نصعد أكثر من مائة درجة حتى وصلنا آخـر الأمر إلى سطح عال لنركب المركـب الذى كان ينتظر عند قمة سفح منحدر، فلما اطمأننا فى مقـاعدنا انحدر بنا مندفعا بسرعة شديدة على قضـبان ممتدة بطول السـفح، حتى ارتطم بسطح الماء فى بركة صناعـية أعدت لاستقباله».

«وركوب المركب ـ كما شعرت ـ مغامرة تجمع بين الحب والمغامرة».

«وبعد المركب اتجهنا إلى المئذنة، وصـعدنا فى درج دائرى فى قلبها حتى وصلنا إلى أعـلاها، فـأخذت قطعـة بسـاط جلست عليـها، وتركت نفـسى فانزلقت فى ممر دائـرى يلف حول المئذنة، ومـازلت أدور فيه حـتى وجدت نفسى آخر الأمر واقفا على قدمى على الأرض أسفل المئذنة».

«وبعد المئذنة اتجهنا إلى الصينية، فـوجدت عندها زحاما شديدا، ووقفت على مـا يشبه صـينية خـشبـية واسعـة، وكان بعض الزوار يجلسـون على أرضـيتـها، فـدارت بنا أول مـا دارت فى شىء من البطء، ثم أسـرعت فى

دورانها، ثم اشتـدت سرعتها حتى قـذفتنى وكثيرا من الزوار بعيـدا، فتلقانا حاجز خشبى ناعم أعد لاستقبالنا، ونحن لا نتمالك أنفسنا من الضحك».

«وبعد الصينية ذهبنا إلى البرميل، ودخلنا فى قلب برميل كبير دار بنا فى حركـة رأسيـة، وكنت أحاول جهـدى أن أبدل قدمى بسـرعة توائم سـرعة دوران البرميل حتى لا أفقد توازنى وأقع».

«ثم اتجهنا إلى أمتع لعبة فى حـديقة «لونابارك» وهى غرفة المرايا، فرأيت صورتى مـنعكسة على كل مـرآة بصورة مختـلفة، رأيت رأسى فـى إحداها كبيـرا ضخما، وجسمى طويلا نحـيلا، ورأيت جسمى فى مرآة ثانيـة سمينا جدا، ورأسى صـغيـرا جدا، ورأيت فى مـرآة ثالثة أن لى فى وجـهى أربع أعين».

«وهكذا كلما رأيت صورتى على هيئة غريبة، أغرقت فى الضحك».

«ثم اتجهنـا إلى حجرة جـحا، فـدخلناها من بابها فـوجدت أمـامى عدة طرق، اخترت أحدها وسرت فيه، حتى إذا وصلت لآخره وجدته مسدودا، فعـدت أدراجى واخترت طريقـا ثانيا وسـرت فيه حـتى وصلت إلى آخره، فوجدته مـسدودا أيضا، ومازلت ألف وأدور أبحث عبـثا عن طريق الخروج وأنا فى أثناء ذلك كله أضحك على خيبتى».

«وأخيرا ذهبنا إلى الأراجيح بأنواعها المختلفة، فركبنا أولا أرجوحة تدور رأسـيا، فـتـعلو حتى تكـاد تلمس السحـاب، ثم تهـبط حـتى تكاد تلمس الأرض، وأنا فى أثناء ذلك مـتـشبث بمقـعـدى حتى لا أقع، وأنا أضـحك وقلبى ينبض من الخوف».

«ثم ركبنا أرجوحة أخرى تدور أفقيا، دارت بنا، ثم اشتدت سرعتها حتى خيل إلىّ أنها ستطوح بى بعيدا وأنا متشبث بمقعدى أيضا، لا أعرف إن كان أجدر بى أن أضحك أو أبكى من الخوف».

(٢١)

على هذا النحو كان سعيد السحار يستعيد لقطات كثيرة من ذاكرته لما كان يدخل السعادة إلى قلبه ويجلب التفكير إلى ذهنه، وانظر إلى ما يرويه عن هذا المنظر المؤثر الذى شهده لبعض الحواة:

«... وقد رأيت أحد الحواة يشق بطن ابنه الصغير، ويستخرج منه أمعاءه أمام أبصارنا، ونحن بالطبع نصدقَ كل ما تراه أعيننا، ويترك ابنه وبطنه مفتوح ريثما يجمع النقود من النظارة، حتى يعود ويعيد الحياة إلى ابنه المطروح على الأرض».

....

وانظر أيضاً إلى هذه اللقطة العتيقة التى تصور بها المذكرات كيف كان يتم استئجار الحمير لنقل البشر من مكان إلى مكان:

«وعلى ذكر وسائل النقل، كان يوجد فى ميدان العتبة الخضراء، فى العشرينيات من هذا القرن، موقف لتأجير الحمير، وكان مَنْ يستأجر الحمار يركبه وينطلق به، ويجرى الحمّار وراء حماره والعصا فى يده، يستحثه بها على الجرى، حتى يصل مستأجر الحمار إلى هدفه، فيأخذ الحمّار حماره ويعود به».

(٢٢)

ويحفل الكتاب كذلك بكثير من حديث سعيد السحار عن وسائل العلاج التى كان الأهالى يلجأون إليها فى العصر الذى نشأ فيه، وسيروعنا أن الجهل كان مسيطرا، وأن اللجوء إلى الخرافات والإهمال كان متفشيا، وانظر على سبيل المثال إلى حديثه عن سبب وفاة شقيقته الصغرى بعد إصابتها بالدفتيريا:

«. . . ومرت الأيام هانئة سعيدة، وإذا بفلة وعمرها أربع سنوات تمرض فجأة، وبدلاً من أن تعرضها والدتى على الطبيب، اسمعت لنصائح سيدات الأسرة والجارات وعالجتها بالأدعية والبخور، حتى قضت عليها «الدفتيريا».

. . . .

وانظر أيضا إلى تشخصيه «البدائى» لسبب ما تتمتع به أجسام السيدات المصريات من صحة فى جيله إذا ما قورنّ بسيدات الأجيال التالية:

«وتقوم ست البيت كذلك بكنس الحجرات وترتيبها، ولا تأنف من مسح بلاط الحجرات، أو حتى سلالم المنزل، ولذلك كنت ترى السيدات فى ذلك الوقت صحيحات الأجسام، موردات الخدود، فلا يحتجن إلى البودرة والأحمر ليزيفن جمالهن».

. . . .

ويقدم سعيد السحار كثيراً من التفسيرات غير الناضجة لما يراه من ظواهر اقتصادية واجتماعية، ومن العجيب أنه يقدم هذه التفسيرات بروح واثقة من

صوابها، ومن قيمتها، انظر إلى قوله:

«فهناك فرق هائل وبون شاسع بين أسعار ذلك الزمان والأسعار الآن، والعلة فى رأيى هى اضطرارنا لشراء حاجاتنا من الغرب نسيئة بالربا، وقد قال تعالى: «يمحق الله الربا ويربى الصدقات»، وهل هناك محق أشد ما نحن فيه الآن؟».

(٢٣)

وتتضمن المذكرات كثيراً من ملامح التكوين الثقافى لصاحبها، وانظر إلى حديثه الممتع عن السينما والمسرح وتأثيرهما المبكر فى عقليته وذاكرته:

«... أول سينما زرتها سنة ١٩١٩ كانت «سينما بالاس» بميدان الظاهر، وقد رجعت منها إلى المنزل فى حارة صلاح وأنا مبهور ببطل الفيلم ماكس لندر».

«وأول مسرح شاهدته كان مسرح على الكسار سنة ١٩٢٢، وكان زوج عمتى عزيزة، ومحمود ابن عمى [الذى كان] يكبرنا عدة سنوات، قد استأجرا حفلة من مسرح الكسار، بأن دفعا ثمنا لها مبلغا معينا، على أن يطبعا تذاكر بعدد كراسى الصالة ويبيعاها بمعرفتهما، واضطر أبى أن يشترى عدة تذاكر وزعها علينا، وكانت تمثل على المسرح رواية «كان زمان»، وكان يظهر فيها ولدان، يستقبلهما الكورس بهذا النشيد:

أهلا وسهلا بالبطلين ... وسيد رجال المستقبل

الدنيا تلقى زيكو فين ... أشرف رجالها انتو وأنبل

. . . .

وهو يروى بعض المظاهر التى تدل على شغفه وافتتانه بالسينما إلى الحد الذى جعله يداوم التردد عليها بمعدلات مكثفة:

«وقد عشقت أنا وأخواى أحمد وعبد الحميد السينما والمسرح بعد ذلك، حتى إننا كنا نتردد على السينمات فى بعض الأحيان أربع مرات فى الأسبوع، مع أننا كنا لا نتقاضى مصروفا لنا إلا قرش صاغ واحدا فى اليوم، وكنا نذهب إليها خلسة فى حفلات الساعة الثالثة، والويل لنا لو علمت والدتنا بذلك!».

(٢٤)

وانظر إلى حديثه الشائق عن تأثير السينما فى تصرفاته التى اندفعت إلى ما يندفع إليه الصبية المغاوير فى ظل التأثر بالسينما ومناظرها ومغامراتها، ومن الإنصاف أن نشير إلى شجاعة المؤلف وقوة ذاكرته حين يروى مثل هذه المواقف الطريفة:

«. . . وقد أثرت الروايات التى نشاهدها فىّ أنا خاصة، تأثيرا كبيرا، فقد شاهدنا مرة رواية «زيجوتو والخطر الأصفر» وكان يظهر فيها زيجوتو وهو يقفز أمام اللصوص فوق سطح منزل مرتفع، حتى إذا أدركوه وكادوا يقبضون عليه فتح مظلة كانت معه وقفز فى الهواء، فحملته المظلة وهبط من هذا العلو الشاهق على الأرض بسلام».

«فلما رجعنا إلى البيت، رأيت ذلك أمرا ممكنا، فأخذت مظلة والدى وقلت لأصدقائى إنى سأقفز بالمظلة من شرفة الدور الأول وتعلو عن

الأرض ستة أمتار، فقال عبد الحميد: اقفز أولا من شرفة الدور الأرضى وتعلو عن الأرض مترين ونصف المتر، فوقفت فوق سور الشرفة وقفزت إلى الأرض وأنا ممسك بالمظلة فى يدى، فإذا الهواء يقلب أسلاك المظلة وأنزل فتدك رجلاى الأرض، ويرتطم ذقنى بركبتىّ».

«وفى مرة أخرى رأيت البطل يشد قوسه ويسدد سهما إلى تفاحة على رأس صبى فيطيّرها، والطفل ثابت فى مكانه».

«فعملت قوسا ورحت أتمرن على استعماله وكان لنا صديق اسمه بهاء، وكان يشهد الفيلم معنا فقال: سأضع أنا الطربوش مقلوبا على رأسى، وتكون حقيقة بطلا لو أوقعت الطربوش بسهمك».

«فقبلت التحدى وصوبت السهم إلى الطربوش، وأطلقته، فلم يصب الطربوش، لكنه أصاب شفة بهاء السفلى فأورمها، ولولا ستر الله كان أتلف عينه».

«ومرة ثالثة كنا نتمشى بجانب خط السكة الحديد وراء أرض باغوص بغمرة، فرأينا قطارا يسير الهوينى ببطء شديد جدا، فقلت لأصحابى:

«مَنْ منكم يستطيع أن يعبر من تحت القطار إلى الناحية الأخرى؟».

«فقال واحد منهم: هل تستطيع أنت؟».

«فلم أرد عليه، ولكنى تقدمت من القطار، ومررت بين عجلتى إحدى عرباته الأمامية والخلفية، ثم مررت بين عجلتى العربة التى تليها إلى الناحية الأخرى».

. . . .

(٢٥)

كما تتضمن هذه المذكرات حديثاً ذا قيمة عن نمو هواية الزجل عند صاحبها ومحاولاته العديدة لكتابة الزجل، والمناخ الذى ساعده على الاستمرار فى هذه الهواية، ومن الجدير بالذكر أن سعيد جودة السحار نشر بعض أشعاره المبكرة فى ديوان أسماه «شدو البلابل» لكن نجاحه فى النشر ومجال الأعمال غطى بالطبع على مثل هذه الهواية.

وانظر إلى هذه الفقرة التى يحدثنا فيها عن ذكرياته عن مجلة أطفال رائدة متميزة وهى «مجلة الأولاد»، وكيف جعلته هذه المجلة يهوى الزجل ويتعلق بالأمل فى كتابته والتفوق فيه:

«فى سنة ١٩٢٢ وأنا فى السنة الثانية الابتدائية صدرت عن مجلة اللطائف المصورة» مجلة مصورة للأولاد اسمها «مجلة الأولاد»، يحررها الشيخ يونس القاضى، ويرسم صورها الفنان رفقى، وكان الشيخ يونس يكتبها بلغة أقرب إلى الزجل، وكنا نحن الأطفال ننتظر ظهورها بفارغ الصبر، ونقرأ قصصها بل نلتهمها التهاما، حتى إنى مازلت أذكر بعض قصصها، منها مثلا:

«شوف البنت ماريكا، لما انبسطت م المزيكا، قالت لأخوها كمان الدور ده ياويكا».

«ومنها أيضا: آدى المعلم سمبو، الهندى الكسلان وحماره جنبه، من كتر الحر فتح ضبه، عطشان هو وصاحبه».

«ومنها كذلك: أنا السندباد البحرى نمرة ٢، ألفّ الدنيا فى يومين».

«وهكذا.. وهكذا..».

«أعجبتنى هذه القصص، وسحرتنى لغتها السهلة المنغمة، فرحت أبحث عن المزيد منها، فاشتريت دواوين الزجالين المعروفين فى ذلك الوقت، ورحت أحاول نظم الأزجال، فنظمت وأنا فى السنة الرابعة الابتدائية».

(٢٦)

وانظر إلى حديث صاحب المذكرات عن انشغاله بكتابة الزجل وهو فى المرحلة الثانوية، والمناخ الذى ساعده على هذا الاستمرار:

«... ومرت السنة الدراسية بخيرها وشرها، وكنت أهتم بقراءة الأزجال أكثر من اهتمامى بقراءة الدروس، وكنت أتتبع ما ينشر من أزجال فى مجلات «ألف صنف»، وكان يصدرها الكاتب المعروف بديع خيرى، و«الميكروسكوب»، وكان يصدرها الأخوان حسين وصالح سعودى، وكان صالح سعودى طالبا معنا فى مدرسة فؤاد الأول، و«جريدة السيف»، وكان يكتب فيها الزجل بانتظام الزجال محمود رمزى نظيم، وجريدة «الناس»، وكان يكتب فيها الزجل والشعر «الحلمنتيشى» الشاعر حسين شفيق المصرى، وجريدة «المطرقة»، وكانت قراءة الأزجال فى ذلك الوقت هى هوايتى المفضلة».

....

وهو يحدثنا عن أن أحد أقاربه عثر على زجل له، وبعث به إلى الصحافة

فنشر فى موضع متميز، مما كان دافعاً له للثقة بنفسه وقدرته الزجلية.

(٢٧)

وعلى صعيد مماثل انظر إلى ما يرويه سعيد السحار عن بدء ممارسته لهوايته فى كتابة القصص:

«وكتبت قصة نشرتها مجلة كانت تصدرها سينما أوليمبيا فى العشرينيات، ولم أجرؤ أن أجعل أبطالها أحمد وعلى وفاطمة مثلا، بل اخترت لهم أسماء إفرنجية، فلم يكن أحد من الروائيين حتى ذلك الوقت قد جرؤ أن يطلق على أبطال قصصه أسماء عربية».

وهو يحدثنا كذلك عن أن هواياته الشعرية والأدبية وجدت المتسع من الوقت فى أثناء دراسته الجامعية:

«... وكان شيطان الشعر يتخايل لى فى أثنائها حتى وأنا فى أحرج الأوقات، فيوحى إلىّ بموضوع اغنية، أو بمطلع قصيدة، فأنظم بعض الأغانى أو القصائد التى كنت أحفظها فى درج مكتبى، حتى جمعتها فيما بعد فى كتابى «شدو البلابل» الذى طبعته لأول مرة سنة ١٩٤٠ عندما أنشأت «دار مصر للطباعة» وتهيأت لى الأسباب لطبعه».

(٢٨)

ونحن لا نرى سعيد السحار مغرماً بالحديث عن أساتذته فى كلية الآداب ولا مفتوناً بهم، ولا مستبقياً لآثار عظمتهم فى نفسه أو ذاكرته، ولعل دراسته فى قسم اللغة الإنجليزية وارتباطه بالأساتذة الإنجليز دون المصريين

تمثل سبباً بارزاً فى هذا.

وهو على سبيل المثال لا يذكر من تلمذته لطه حسين إلا رهافة سمعه وإشادته به حين عرف معنى كلمة لم يعرف زملاؤه الآخرون معناها:

«... وكنا نتلقى الدروس فى حجرات الفصول، ولم يكن عدد الطلاب فى جميع أقسام الفرقة الأولى يزيد على ثلاثين طالبا، أما فى المحاضرات العامة كمحاضرات الدكتور طه حسين، فكان يحضرها كل طلبة الجامعة (يقصد طلبة كلية الآداب)، وينضم إليهم طلبة كلية الحقوق، ولم يكن مجموع الحاضرين يشغل أكثر من أربعة صفوف أمامية على الأكثر، بينما باقى المدرج الكبير يظل شاغرا».

«وأذكر مرة أن كان الدكتور يلقى محاضرته، واستشهد ببيت من الشعر وردت فيه كلمة «روال» فسأل:

«مَنْ منكم يعرف معنى كلمة «روال»؟».

«وساد المدرج صمت عميق، فهمست أنا بصوت خافت إلى صديقى الذى كان يجلس إلى جانبى، وكانت نفس كلمة «روال» قد عرضت لى فى قراءتى ولم أعرف معناها فبحثت عنها فى القاموس، قلت لصديقى هامسا:

«معناها لعاب».

«ولست أعرف كيف استطاعت أذنا الدكتور طه حسين أن تلتقطا ما همست به، وبينى وبينه مسافة لا تقل عن عشرة أمتار فقال:

«ها هو زميلكم قد قالها، نعم، «روال» تعنى «لعاب».

(٢٩)

ومن الإنصاف أن نستثنى من الحكم السابق فقرة وردت عرضاً فى مذكرات هذا الرجل، وفيها يذكر بوضوح السبب فى أن جيله كان يحب محاضرات للدكتور زكى مبارك بأكثر من حبهم لمحاضرات الدكتور طه حسين:

«وفى السنة التالية رجعت إلى الكلية طالباً فى السنة الثانية، وواظبت على حضور الدروس، وكان يحاضرنا فى اللغة العربية الدكتور زكى مبارك، وكانت محاضراته تستهوى ألباب الشباب، إذ اختار موضوعا لها كتابا من تأليفه «حب ابن أبى ربيعة وشعره»، كان عمر بن أبى ربيعة يصف فيه مغامراته مع فاتنات عصره، تلك المغامرات التى لا يتورع عنها حتى فى موسم الحج، فيقول:

ونـاهد الشـديين قلت لها اتكى   على الرمل من جبانة لم توسد

فقالت على اسم الله أمرك طاعة   وان كنت قد كلفت ما لم أعود

«وأمثال ذلك كثير، والشباب فى هذه السن ينبهرون بأمثال هذه الأقوال الجريئة التى تتفق مع ميولهم ونزواتهم، فكنا نجلس فى أثناء محاضراته وكلنا آذان مصغية، ونفضل محاضراته حتى على محاضرات الدكتور طه حسين، التى تكون موضوعاتها فى الغالب أكثر جفافاً، ويلقيها علينا على وتيرة واحدة بصوته الرتيب».

(٣٠)

هل لنا أن ننتقل الآن لنستخلص من بين التفصيلات التجارية الكثيرة التى

تحفل بها المذكرات، بعض ما يصور نجاح صاحبها الجامعى فى خوض معترك الحياة التجارية مستنداً إلى ثقافته الجامعية وخبراته التى زودته بها ثقافته فى الجامعة، ودراسته العامة قبلها، وربما نجتزئ مما يرويه سعيد السحار عن معاناته فى مهنة النشر بهذه القصة التى يتحدث فيها عن محاولة كلف بها ابنه أميراً من أجل مكافحة تزوير الكتب فى بيروت، وهى الظاهرة التى انتشرت كرد فعل طبيعى لتعقيد الإجراءات المصرية الحاكمة للتصدير والصادرات على وجه العموم، وكانت الكتب المصرية ضحية بارزة من ضحايا هذه الإجراءات المتعسفة التى آذت الاقتصاد القومى:

«. . . وسافر معه (الضمير يعود على شقيقه عبد الحميد جودة السحار الذى كان قد سافر فى مهمة رسمية لإقناع نجوم السينما المصرية بالعودة إلى ممارسة نشاطهم فى القاهرة) ابنى أمير فى محاولة لصد تيار تزوير الكتب المصرية، وكان قد استشرى فى تلك الأيام، فقد اتصل بنا السيد محفوظ العسلى، وكان مديراً لأعمال آل الراشيد الذين كانوا من أكبر موزعى كتب «مكتبة مصر» فى المملكة العربية السعودية، وأبلغنا أن كتب نجيب محفوظ وكتب محمد عبد الحليم عبد الله يزوّرها ويبيعها على عربات اليد كل مَنْ هب ودب، و«على عينك يتاجر»، وأن السيد حسن إيرانى من أكبر الناشرين فى بيروت وفى مصر يقوم بطبع الكتب المصرية بكميات وافرة فى بيروت ويوزعها فى كل البلاد العربية، لا يعوقه ما يعوقنا من قيود وكتابة استمارات كثيرة، وعدم ورود قيمة الكتب المصدّرة، فتكون النتيجة ـ على رأى المثل ـ موتا وخراب ديار».

«ولما وصل أمير إلى بيروت قابله حسن إيرانى مصادفة! فأخذه بالأحضان

وقال له: «إنكم تتهمونني في مصر بأني أقوم بتزوير الكتب المصرية، وأنا يعلم الله برئ من هذه التهمة، ولأدلل لك على براءتي منها سأكشف لك عن المزورين الحقيقيين».

«ثم أخذ أميراً وعرفه بأحد رجال الشرطة المشهود لهم بالقدرة والنشاط في خدمة الليرة».

«وأوصى حسن إيرانى رجل الشرطة بأمير، فسار أمير معه يشهد حملته النشيطة، فتم ضبط كميات كبيرة من كتب نجيب محفوظ ومحمد عبد الحليم عبد الله في دكاكين حلاقين وتجار خردوات، وعشرات غيرهم من المتطلعين إلى الربح السريع، ممن يقومون بطبع وتوزيع هذه الكتب المزورة».

«وقال لي أمير فيما بعد: إنه كان يعجب غاية العجب إذ يرى طابعي الكتب المزورة وناشريها يسارون حين تصادر الكتب والملازم المطبوعة عندهم، فلما سأل أحدهم في ذلك قال له: «إن الأوراق التي أطبع عليها هذه الكتب مشتراة بالأجل، وقد حصلت أنا على مكسبي من الكتب التي بعتها قبل الآن، وسيعلم تجار الورق أن الشرطة صادرت الكتب التي ضبطتها عندي وأني قد أفلست، فلن يطالبوني بدفع قيمتها».

«وتمت مصادرة الكتب المزورة وشحنت إلى مصر لتُحرق فيها، على حين ظهر السرور على حسن إيرانى، فقد تمكن بحيلة ماكرة أن يتغلب على كل منافسيه في التزوير فخلا له الميدان يرتع فيه كيف يشاء».

(٣١)

هكذا يجاهر سعيد جودة السحار باتهامه لهذا الناشر الزميل له في المهنة وفي السوق، ذاكراً اسمه بكل صراحة على صفحات هذه المذكرات.

بل إنه يمضى خطوة أوسع فى هذا الطريق فيلقى على عاتق هذا الرجل باتهام آخر محدد وواضح، ويقول:

«وقص علىّ أمير قصة حسن إيرانى مع الدكتورة سهير القلماوى، وكانت وقتها رئيسة الهيئة العامة للكتاب، فقد قامت ومعها بعض محامى الهيئة بضبط بعض الكتب المزورة فى أحد مخازنه، فأغلقوا المخزن وختموه بالشمع الأحمر، وأقاموا على بابه الحراس».

«فجاء حسن إيرانى ليلا واستطاع أن ينقب الجدار من الخلف ويفرغ كل ما فى المخزن من الكتب المزورة».

(٣٢)

ويحرص سعيد السحار على أن يردف هذه القصة بقصة أخرى تدل بكل وضوح على مدى معاناة الناشرين من معاملة بعض أجهزة الدولة لهم من خلال سياسة توسيع دائرة الاشتباه فى دلالة ما يتفوهون به فى أحاديثهم التليفونية، ولنقرأ هذه القصة الطريفة:

«فما أن عاد أمير إلى مصر ومضت أيام حتى اتصل به أحد ضباط أمن الدولة وطلب منه الحضور فى وقت معين إلى الدور الرابع بوزارة الداخلية، وهناك انتظر طويلا لا يعرف ما السبب فى استدعائه ولا ما يئول إليه أمره، وبعد ساعات طوال قضاها فى قلق، استدعاه أحد الضباط إلى

مكتبه، وكـان رجلا أنيسا لطيفا يعـرف أميرا ويعرف «مكتبة مـصر»، فخاله أحد مؤلفى كتب الفيزياء التى تنشرها المكتبة».

«ولكن العمل هو العمل، فراح يحاوره فى موضوعات بعيدة عن الهدف الذى استدعاه من أجله، ثم قال له فجأة:

«وما موضوع الكتب المزورة؟».

«فتنفس أمـير الصعـداء، فقد اطمـأن على مصيـره، وانطلق يقص على ضابط أمن الدولة قصة الكتب المزورة فى بيروت، وأنه اتصل بالوزير حسن عبـاس زكى وزير المالية [كـذا فى الأصل، وهو يقصد الاقـتصـاد لا المالية] آنذاك ليخـفف من القيـود المفروضة على تصـدير الكتب، فقـد قضت هذه القيود على توزيع الكتاب المصرى فى العالم العربى».

«فضـحك الضـابط وقال: كـان صوتك واضـحا جـدا فى أثناء المكالمة، وكنت تضحك كثيرا حتى ظننـا أن الكتب المزورة ما هى إلا عملات مزيفة، ومن عادة أمير أن يضحك إذا صادفتـه مشكلة، ولا ينبئ ظاهره عما يعتمل فى باطنه».

«واستطرد الضابط: «ولماذا تكلم حسن عباس زكى فى مثل هذه الأمور؟ فنحن كفيلون بمصادرة الكتب المزورة فى بيروت، ابعث لنا بشكواك وسوف نقوم بعمل اللازم ولن يكون بعد ذلك كـتاب مزور واحد فى بيروت أو فى غيرها».

وبعد هذه القصة يحرص سعيد السحار على أن يردفها بما نعرفه من النهاية المعتادة فى أمثالها، وهو يقول:

«وأرسل أمير شكواه إلى مَنْ سيقومون بإيقاف تزوير الكتب، ولكن لم يتم أى شىء آنذاك، كما أن الكتب ماتزال تزور حتى الآن، دون رادع».

(٣٣)

والشاهد أن مذكرات سعيد السحار تحفل بكثير مما كنا ولانزال نتوقعه من حديث عن مصاعب السوق والمال والتجارة، وبخاصة إذا ما واجهت هذه المصاعب جامعياً تخرج فى قسم اللغة الإنجليزية، لكننا مع تعاطفنا مع هذه المفارقة نجد أنفسنا واعين فى كل قصة، بل فى كل فقرة يرويها، إلى حقيقة مهمة، وهى أن هذا الرجل الذى ولد فى عائلة من التجار، وفى وسط تجارى كان يستفيد مما وفرته له جيناته الوراثية من خبرة بالتجارة، ونحن نرى هذا المعنى واضحاً جداً فيما يحدثنا به من أحاديث مطولة عن إدراته لشئون التجارة ومعاناته منها، لكننا نقتطف من هذه الأحاديث ما يروى به على سبيل المثال طبيعة النظرة الضيقة عند بعض خريجى الجامعة وبعض أفراد المجتمع إلى امتهان التجارة والعمل بها:

«وأذكر أن الأستاذ بشاى مجلى صاحب مدارس النجاح بالزقازيق قال عندما رآنى أقوم بهذه الأعمال [يقصد تجهيزه لطلبيات الكراريس والأدوات الكتابية]: «ما لهذه الأنامل الرقيقة وهذا العمل؟»».

«وأذكر ذات مرة بينما كنت أسير فى شارع نوبار (شارع الجمهورية الآن) أن قابلنى طالب من الأرياف كان معنا فى الكلية، فلما استوقفنى وسألنى:

«فى أى وظيفة تعمل الآن؟».

«قلت له: أنا لا أعمل فى وظيفة، ولكنى افتتحت مكتبة فى شارع الفجالة أعمل فيها».

«فقال مستنكرا: تبيع وتشترى؟».

«قلت: نعم، أبيع وأشترى».

«قال: عن إذنك».

«وفر منى كما يفر السليم من الأجرب».

«قلت فى نفسى: حتى الطالب الوافد من الأرياف المفروض أنه متعود على الخشونة يستنكف العمل بيديه، ويعتنق المثل الذى يقول: «إن فاتك الميرى اتمرغ فى ترابه».

(٣٤)

ومن أطرف هذه المذكرات أننا نرى هذا الرجل الذى عنى بمجال التجارة والأعمال ونجح فيها وهو يهمل تقييم زملائه الأفذاذ الذين زاملوه فى بداية حياته ولا يكاد يصدق حجم مواهبهم الكبيرة، ونحن نرى هذا بوضوح فى قصة زمالته للفنان سيد إسماعيل، كما نراه بوضوح أكبر فى حديث عن

الفنان الكبير محمد عبد المنعم رخا، وفى مقابل هذا فإنه بحكم النظرة المادية للأشياء ينتبه فى مرحلة مبكرة إلى قيمة الأطباء ويعطيهم أهمية خاصة فى مذكراته، وحديثه عن الطبيب رياض فوزى خير مثال على ذلك.

وللقارئ أن يطالع ما يرويه عن الفنان محمد عبد المنعم رخا فى هذه الفقرة:

«... كان يجلس إلى جوارى فى الفصل تلميذ صغير اسمه محمد عبدالمنعم رخا، ولما كان الطريق يجمعنا ونحن راجعون إلى بيوتنا كنا نسير معا، وفى ذات مرة دعانى أن أذهب معه إلى منزله ليرينى بعض رسوم رسمها بنفسه، فذهبت معه إلى شارع درب عجور وصعدت معه إلى شقتهم، وأرانى كراسة رسم بها رسوم جميلة زعم أنه هو الذى رسمها، ورأيت أنا أنها رسوم متقنة جدا استبعدت أن يتمكن صبى صغير مثله أن يرسمها، ورجحت أن يكون الذى رسمها أخ كبير له».

«وظللت على هذا الظن سنوات طويلة إلى أن ظهرت على صفحات جريدة «أخبار اليوم» رسوم الفنان القدير «رخا».

(٣٥)

بقى أن نشير إلى أن المذكرات تحفل بتقدير صاحبها لكثير من أفراد أسرته، ونحن نراه معجبا بشخصية جده، ومعجبا بشخصية والده، لكنه يبدى كثيرا من التحفظات على سلوك شقيقه الأكبر محمد وبقية أشقائه،

وهو على سـبيل المثال يحـدثنا عن ثقافـة والده باعتـزاز وإعجـاب شديدين فيقول:

«والعجيب أن أبى لم يدرس فى المدارس دراسـة منتظمة، بل درس على الفقـيه فى الكتـاب، إلا أنه كان يتلو القـرآن فى المصحف بطلاقـة، ويقرأ الجرائد فى سهولة، ويقـوم بالعمليات الحسابية التى يحتـاج إليها فى تجارته، وله فى شئون الحياة آراء صائبة، كنا نعجز عنها ونحن طلبة فى الجامعة».

قائمة ببليوجرافية
بالمذكرات التى تناولناها فى مجموعة كتب هذه السلسلة

١ ـ مذكرات وزراء الثورة

دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٤ ـ رقم الإيداع ١١٣٤٦/ ١٩٩٤
ISBN:977-09-0253-5

كمال حسن على (الفريق أول)

مشاوير العمر، دار الشروق، ١٩٩٤ .

سيد مرعى (المهندس)

أوراق سياسية، ٣ أجزاء، المكتب المصرى الحديث، ١٩٧٨ .

عبد الجليل العمرى

ذكريات اقتصادية وإصلاح المسار الاقتصادى، دار الشروق، ١٩٨٦ .

ثروت عكاشة (الدكتور)

مذكراتى فى السياسة والثقافة، مكتبة مدبولى، ١٩٨٧ .

طبع بعد ذلك فى دار الهلال، وفى دار الشروق.

إسماعيل فهمى

التفاوض من أجل السلام فى الشرق الأوسط، مكتبة مدبولى، ١٩٨٦.

عثمان أحمد عثمان (المهندس)

صفحات من تجربتى، الطبعة الثالثة، المكتب المصرى الحديث، ١٩٨١.

ضياء الدين داوود

سنوات مع عبد الناصر، دار الموقف العربى، ١٩٨٤.

طبع بعد ذلك ضمن كتاب: مذكرات ضياء الدين داود «سنوات عبد الناصر وأيام السادات»، دار الخيال، ١٩٩٧.

ضياء الدين داوود

ما بعد عبد الناصر، دار الموقف العربى، ١٩٨٦.

طبع بعد ذلك ضمن كتاب: مذكرات ضياء الدين داود «سنوات عبد الناصر وأيام السادات»، دار الخيال، ١٩٩٧.

أحمد خليفة (الدكتور)

الرأى والرأى الآخر. كلمات وراء الأحداث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦.

عبد الوهاب البرلسى (الدكتور)

كنت وزيرا مع عبد الناصر، دار المستقبل العربى، ١٩٩٢.

حسن أبو باشا (اللواء)

فى الأمن والسياسة، دار الهلال، ١٩٩٠.

٢ـ مذكرات المرأة المصرية

دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٥ ـ رقم الإيداع ١٠٠٥١/ ١٩٩٥
ISBN:977-09-0311-6

د. عائشة عبد الرحمن (الدكتورة بنت الشاطئ)

على الجسر، الأعمال الكاملة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦.

جيهان السادات

سيدة من مصر، المكتب المصرى الحديث، ١٩٨٧.

لطيفة الزيات (الدكتورة)

حملة تفتيش أوراق ذاتية، كتاب الهلال، العدد ٥٠٢، دار الهلال، أكتوبر ١٩٩٢.

زينب الغزالى

أيام من حياتى، دار الشروق، الطبعة الرابعة عشرة، ١٩٩٥.

إنجى أفلاطون

مذكرات إنجى أفلاطون، تحرير وتقديم: سعيد خيال، دار سعاد الصباح، الطبعة الأولى، ١٩٩٣.

اعتدال ممتاز

مذكرات رقيبة سينما ٣٠ عاما، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الأولى، ١٩٨٥ .

إقبال بركة :

يوميات امرأة عاملة، سلسلة اقرأ، العدد ٥٨١ ، دار المعارف، ١٩٩٣ .

نوال السعداوى (الدكتورة)

مذكرات طبيبة، سلسلة اقرأ، دار المعارف، ١٩٦٥ .

سلوى العنانى

بعض أوراقى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧ .

ثريا رشدى

رشاد رشدى (بالاشتراك مع آخرين)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧ .

٣ـ الثورة والحرية: مذكرات المرأة المصرية

طبعة موسعة من الكتاب السابق شملت جميع أبوابه .

دار الخيال، القاهرة، ٢٠٠٤ ـ رقم الإيداع ١٨٦٨/ ٢٠٠٤

ISBN:977-5979-39-

٤ـ مذكرات الضباط الأحرار

دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٦ ـ رقم الإيداع ٧٥٤٠/ ١٩٩٦

ISBN:977-09-0337-X

محمد نجيب

كنت رئيسا لمصر ـ مذكرات محمد نجيب، المكتب المصرى الحديث، ١٩٨٤ .

عبد اللطيف البغدادى

مذكرات عبداللطيف البغدادى، المكتب المصرى الحديث، ١٩٧٧ .

خالد محيى الدين

والآن أتكلم، مركز الأهرام للترجمة والنشر، ١٩٩٢ .

عبد المنعم عبد الرءوف

أرغمت «فاروق» على التنازل عن العرش، الزهراء للإعلام العربى، ١٩٨٨ .

جمال منصور

فى الثورة والدبلوماسية، مركز الأهرام للترجمة والنشر، ١٩٨٩ .

محمد عبد الفتاح أبو الفضل

كنت نائبا لرئيس المخابرات، (كتاب الحرية ١١)، دار الحرية، ١٩٨٦ .

حسين محمد أحمد حمودة

أسرار... حركة الضباط والإخوان المسلمون، صفحات من تاريخ مصر الفترة من ٤ فبراير ١٩٤٢ وحتى ٦ أكتوبر ١٩٨١، الزهراء للإعلام العربى، ط ١، القاهرة، ١٩٨٥، ط ٣، ١٩٨٩.

٥ـ نحو حكم الفرد: الثورة فوق الديمقراطية
مذكرات الضباط الأحرار

طبعة موسعة من الكتاب السابق شملت جميع أبوابه ما عدا الباب الثانى الذى تم تناوله بتوسع فى كتابنا «عبد اللطيف البغدادى.. شهيد النزاهة الثورية».

دار الخيال، القاهرة، ٢٠٠٣ ـ رقم الإيداع ١٠٠٣٥/ ٢٠٠٢
ISBN:977-7959-29-3

٦ـ مذكرات الهواة والمحترفين

دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٧ ـ رقم الإيداع ٨٧٨٥/ ١٩٩٧
ISBN:977-09-0389-2

جمال ماضى أبو العزايم (الدكتور)

مواقف مع الطب النفسى فى مصر ١٩٤٣ ـ ١٩٩٦، مؤسسة دار الهلال، القاهرة، ١٩٩٦.

حامد طاهر (الدكتور)

ديوان حامد طاهر، تجربتى مع الشعر، القاهرة، مطابع سجل العرب، ١٩٨٤.

سمير حنا صادق (الدكتور)

رحيق السنين ، كتاب الأهالى، رقم ٥٥، يناير ١٩٩٦.

عبد الله عبد البارى

خواطر فى بلاط صاحبة الجلالة، المكتب المصرى الحديث، القاهرة، ١٩٨٤.

علاء الديب

وقفة قبل المنحدر، من أوراق مثقف مصرى، المركز المصرى العربى، الطبعة الأولى، ١٩٩٥ .

محمد أحمد فرغلى (باشا)

عشت حياتى بين هؤلاء، مطابع الأهرام التجارية، ١٩٨٤ .

محمود الربيعى (الدكتور)

فى الخمسين عرفت طريقى، سيرة ذاتية، مطبعة المستقبل، الطبعة الأولى، ١٩٩١ .

ميلاد حنا (الدكتور)

ذكريات سبتمبرية، دار المستقبل العربى، ١٩٨٦ .

٧ـ محاكمة ثورة يوليو: مذكرات رجال القانون والقضاء

دار الخيال، القاهرة، ١٩٩٩ ـ رقم الإيداع ١٩٩٩/٥٣٩٧

محمد عصام الدين حسونة (المستشار عصام حسونة)

شهادتى.. ٢٣ يوليو وعبد الناصر، مركز الأهرام للترجمة والنشر، الطبعة الأولى، ١٩٩٠ .

مختار نصار (المستشار)

معركة العدالة فى مصر، دار الشروق، الصفحة الأولى، نوفمبر ١٩٧٤ .

محمد عبد السلام (المستشار)

سنوات عصيبة.. ذكريات نائب عام، دار الشرق، القاهرة، الطبعة الثانية، مايو ١٩٧٥ .

جمال الدين العطيفى (الدكتور)

آراء فى الشرعية وفى الحرية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٠ .

جمال الدين العطيفى (الدكتور)

من منصة الاتهام، دار المعارف، ١٩٦٨ .

محمد عبد السلام الزيات

مصر . . إلى أين . . قراءات وخواطر فى الدستور الدائم ١٩٧١ ، دار المستقبل العربى ، ١٩٨٥ .

محمد عبد السلام الزيات

السادات: الحقيقة والقناع، كتاب الأهالى، رقم ١٨، فبراير ١٩٨٩

ماهر برسوم (المستشار)

مذكرات مستشار مصرى، دار العرب البستانى، ١٩٨٥ .

حسن عبد الغفار (المستشار)

ذكريات مستشار، دار الفكر العربى، بدون تاريخ .

٨ـ الأمن القومى لمصر: مذكرات قادة المخابرات والمباحث

دار الخيال، القاهرة، ١٩٩٩ ـ رقم الإيداع ١٣١٢٨/١٩٩٩

محمد حافظ إسماعيل (الدكتور)

أمن مصر القومى فى عصر التحديات، مركز الأهرام للترجمة والنشر، الطبعة الأولى، ١٩٨٧ .

صلاح نصر

ثورة ٢٣ يوليو بين المسير والمصير، الجزء الأول: الأصول، مؤسسة الاتحاد للطباعة والنشر، أبوظبى، ١٩٨٦ .

أمين هويدى

عبدالناصر، دار المستقبل العربى، الطبعة الثانية، ١٩٨٥ .

أحمد كامل

من أوراق رئيس المخابرات العامة . . أحمد كامل يتذكر، دار الهلال، ١٩٩٠، تحرير أحمد عز الدين .

حسن طلعت (اللواء)

فى خدمة الأمن السياسى (مايو ١٩٣٩ ـ مايو ١٩٧١)، دار الوطن العربى للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٩٨٣ .

فؤاد علام (اللواء)

الاخوان وأنا . . من المنشية إلى المنصة، المكتب المصرى الحديث، الطبعة الأولى، ١٩٩٦ .

٩ـ من أجل السلام.. معارك التفاوض: مذكرات قادة الدبلوماسية المصرية

دار الخيال، القاهرة، ١٩٩٩ ـ رقم الإيداع ١٦٥٥٥/١٩٩٩

ISBN:977-5979-04-8

أحمد عصمت عبد المجيد (الدكتور)

زمن الانكسار والانتصار، مذكرات دبلوماسى عن أحداث مصرية وعربية ودولية، نصف

قرن من التحولات الكبرى، دار الشروق، ودار النهار، الطبعة الأولى، نوفمبر ١٩٨٨.

محمود رياض

مذكرات محمود رياض (١٩٤٨ ـ ١٩٧٨) البحث عن السلام والصراع فى الشرق الأوسط، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٨٥.

محمد إبراهيم كامل

السلام الضائع فى كامب ديفيد، كتاب الأهالى (١٢)، ١٩٨٧.

حسين ذو الفقار صبرى

يانفسى لا تراعى، تقديم يحيى حقى، الهيئة العامة للتأليف والنشر، ١٩٧٠.

محمد عبد الوهاب العشماوى (الدكتور)

شرخ فى جدار الجامعة العربية، المكتب المصرى الحديث، ١٩٧٩.

جمال بركات (السفير)

طرائف دبلوماسية، مركز الأهرام للترجمة والنشر، ١٩٨٧.

١٠ ـ الطريق إلى النكسة: مذكرات قادة العسكرية المصرية ١٩٦٧

دار الخيال، القاهرة، ٢٠٠٠ ـ رقم الإيداع ٢٣٨٧/ ٢٠٠٠
ISBN:977-5979-11-0

عبد الحميد الدغيدى (اللواء)

جريدة الأيام، ٥ يونيــو ١٩٨٨، ١٢ يونيو، ١٩ يونيــو، ٢٦ يونيو، ٣ يوليــو، ١٠ يوليو،

١٧ يوليو. تولى تحرير المذكرات أحمد الجابرى.

مجلة أكتوبر، العدد ٨٧٠: ٢٧ يونيو ١٩٩٣.

عبد المحسن كامل مرتجى (الفريق أول)

الفريق مرتجى يروى الحقائق، قائد جبهة سيناء فى حرب ١٩٦٧، دار الوطن العربى.

أنور القاضى (الفريق)

مذكرات، آخر ساعة، (حوار مع محمد وجدى قنديل) بمناسبة مرور ٢١ عاما على حرب يونيو ١٩٦٧، آخر ساعة، ٨/٦/١٩٨٨.

صلاح الحديدى (الفريق)

شاهد على حرب ١٩٦٧، مطبعة مدبولى، ١٩٧٤.

صلاح الحديدى (الفريق)

شاهد على حرب اليمن، مطبعة مدبولى، الطبعة الأولى، ١٩٨٤.

محمد فوزى (الفريق أول)

حرب الثلاث سنوات (١٩٦٧ - ١٩٧٠)، دار المستقبل العربى، ١٩٩٠.

١١ - النصر الوحيد: مذكرات قادة العسكرية المصرية ١٩٧٣

دار الخيال، القاهرة، ٢٠٠٠ - رقم الإيداع ٤٧٢٣/ ٢٠٠٠

ISBN:977-5979-12-9

محمد عبد الغنى الجمسى (المشير)

مذكرات الجمسى، حرب أكتوبر ١٩٧٣، المنشورات الشرقية، باريس، ط ١، ١٩٨٩.

سعد الشاذلى (الفريق)

حرب أكتوبر، مذكرات الشاذلى، الجـزء الأول ٦٨ - ١٩٧٣ حرب أكتوبر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، الطبعة الثالثة، ١٩٨٧، وذكر فى الكتاب أنه من منشورات مؤسسة الوطن العربى للطباعة والنشر، باريس، بالتعاون مع دار المحرر للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٠.

عبد المنعم خليل (اللواء)

فى قلب المعركة، المكتبة الأكاديمية، ١٩٩٥.

نشرت بعض فصول من المذكرات قبل ذلك فى كتـاب «حروب مصر فى أوراق قائد ميدانى» عن دار المستقبل العربى، وفى جريدة «الأنباء» الكويتية، أغسطس ١٩٨٩.

يوسف عفيفى (الفريق)

أبطال الفرقة ١٩، مقاتلون فوق العادة، دار الصفوة، الغردقة.

عادل يسرى

رحلة الساق المعلقة.. من رأس العش إلى رأس الكوبرى، دار المعارف، ١٩٧٤.

١٢ - فى أعقاب النكسة:
مذكرات قادة العسكرية المصرية ١٩٦٧ - ١٩٧٢

دار الخيال، القاهرة، ٢٠٠٠ - رقم الإيداع ١٦٧٦٧/ ٢٠٠٠
ISBN:977-5979-17-X

مدكور أبو العز (الفريق)

مذكرات الفريق مدكور أبو العز، نشرت على ٣٥ حلقة فى جريدة الوفد، أغسطس وسبتمبر

وأكتوبر، ١٩٨٧ .

محمد أحمد صادق (الفريق أول)

لم تنشر المذكرات كاملة حتى الآن، إلا أن أجزاء متعددة منها نشرت فى:

- جريدة الشعب، مايو ١٩٨٢ .
- جريدة الشرق الأوسط، يونيو ١٩٨٧ .
- حديث مطول مع الأستاذ أحمد حسن عبدون، مجلة الشباب، مايو ١٩٩١ .
- ذكريات للفريق صادق أدلى بها لجريدة الأحرار.

محمد صدقى محمود (الفريق أول)

لم تنشر المذكرات كاملة حتى الآن، إلا أن أجزاء متعددة منها نشرت فى:

- جريدة الأحرار، ٣ يناير ١٩٨٣ .
- مجلة الحرس الوطنى السعودية، ١٩٨٥ (شهور ذى الحجة والمحرم وصفر).
- الأنباء الكويتية، مايو ١٩٨٦ : الرجل الأول والأول مكرر فى مصر.
- جريدة الشرق الأوسط ، ٨ يونيو ١٩٨٧ ،

محمد فوزى (الفريق أول)

استراتيجية المصالحة، دار المستقبل العربى، ١٩٨٦ .

صلاح الحديدى (الفريق)

حوار مع الأستاذ هشام عبد الغفار، مجلة الشباب، أكتوبر ١٩٩١ .

١٣ ـ على مشارف الثورة: مذكرات وزراء نهاية عهد الملكية (١٩٤٩ ـ ١٩٥٢)

دار الخيال، القاهرة، ٢٠٠١ ـ رقم الإيداع ١٨٧٣٢/ ٢٠٠٠
ISBN:977-5979-19-6

أحمد مرتضى المراغى (باشا)

مجلة أكتوبر، ٢٣ حلقة (بدءا من ٢٦ يناير ١٩٨٦ وحتى ٢٢ يونيو ١٩٨٦)

كريم ثابت (باشا)

- عشر سنوات مع فاروق ١٩٤٢ ـ ١٩٥٢، نهاية الملكية، مذكرات كريم ثابت، دار الشروق، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠.
- فاروق كما عرفته، ملك النهاية، مذكرات كريم ثابت، دار الشروق، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠.

إبراهيم فرج (باشا)

ذكرياتى السياسية، حوار مع حسنين كروم، الناشر: مكتبة الحياة، القاهرة، ١٩٨٤..

صليب سامى

مذكرات صليب سامى (١٨٩١ ـ ١٩٥٢)، نقد وتحليل د. سامى أبو النور، مكتبة مدبولى، الطبعة الأولى، ١٩٩٠.

نشرت هذه المذكرات فى طبعة سابقة قبل ذلك، لكنها غير متاحة.

عبد الرحمن الرافعى (بك)

مذكراتى ١٨٨٩ ـ ١٩٥١، الطبعة الثانية، كتاب اليوم، العدد ٢٩٨، سبتمبر ١٩٨٩ (فيه إشارة إلى أن هذه الطبعة مطابقة تماما للطبعة الأولى التى صدرت عن دار الهلال، ١٩٥٢).

١٤ - فى خدمة السلطة: مذكرات الصحفيين

دار الخيال، القاهرة، ٢٠٠١ - رقم الإيداع ٩٨٠٠/ ٢٠٠٠
ISBN:977-5979-15-3

موسى صبرى

٥٠ عاما فى قطار الصحافة، مذكرات موسى صبرى، دار الشروق، ١٩٩٢ .

أحمد بهاء الدين

محاوراتى مع السادات، دار الهلال، الطبعة الثانية، ١٩٨٧ .

عبد الستار الطويلة

السادات الذى عرفته، هيئة الكتاب، ١٩٩٢

فتحى غانم

معركة بين الدولة والمثقفين، كتاب اليوم، عدد سبتمبر ١٩٩٥، مؤسسة أخبار اليوم، ١٩٩٥.

حلمى سلام

- أنا وثوار يوليو، ط ٢، دار ثابت، ١٩٨٦ .

حلمى سلام

- ضمن كتاب : ثورة يوليو والصحافة، بقلم رشاد كامل، الفصل التاسع، الجداوى للنشر، الطبعة الأولى ١٩٧٩.

جلال الدين الحمامصى

حوار وراء الأسوار، المكتب المصرى الحديث، الطبعة الأولى، يناير ١٩٧٦ .

١٥ ـ تكوين العقل العربى: مذكرات المفكرين والتربويين

دار الخيال ، القاهرة، ٢٠٠٣ ـ رقم الإيداع ٢١٠٧٨/ ٢٠٠٢
ISBN:977-5979-31-5

شوقى ضيف (الدكتور)

معى، الجزء الأول، سلسلة اقرأ، عدد ١٥ فبراير ١٩٨٥ ، دار المعارف، القاهرة.

عبد الرحمن بدوى (الدكتور)

سيرة حياتى، الموسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠٠٠ .

محمد عبد الله عنان

مصر فى عيـون أبنائها . . ثلثا قرن من الزمن، مذكرات عبـد الله عنان، دار الهلال، كتاب الهلال ٤٤٥ ، يناير ١٩٨٨ .

محمد على العريان (الدكتور)

العريان والزمان، الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الأولى، ١٩٩٥ .

أحمد عبد السلام الكردانى (الدكتور)

حقبة من الزمان، كتاب الهلال، عدد نوفمبر ١٩٨٠ .

نادية رضوان (الدكتورة)

رحلتى إلى عالم الجن والعلاج الروحانى، دار الشروق، الطبعة الأولى، ٢٠٠١.

١٦ ـ الثورة والإحباط: مذكرات الأدباء وأساتذة الأدب

الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٤ ـ رقم الإيداع ٢٠٨١١/ ٢٠٠٤
ISBN:977-01-9404-2

أحمد هيكل (الدكتور)

سنوات وذكريات، سيرة ذاتية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٧.

على الحديدى (الدكتور)

رحلة مع الأيام، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ٢٠٠٢.

جليلة رضا

صفحات من حياتى، كتاب الهلال، العدد ٤٢٧، يوليو ١٩٨٦، دار الهلال، ١٩٨٦.

صالح مرسى

هم وأنا، سيرة ذاتية: نجيب محفوظ، يحيى حقى، يوسف إدريس، يوسف السباعى، توفيق الحكيم، مكتبة مدبولى الصغير، ١٩٩٥.

فتحى أبو الفضل

رحلتى مع الرواية، سلسلة كتابك، دار المعارف، ١٩٧٩.

عايدة الشريف

شاهدة ربع قرن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٥.

أمانى فريد

أيام وذكريات، مكتبة الأنجلو المصرية، بدون تاريخ.

١٧ - عسكرة الحياة المدنية: مذكرات الضباط فى غير الحرب

الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٥ - رقم الإيداع ٤٩١٣/ ٢٠٠٥

ISBN:977-01-9521-9

سمير فاضل (الدكتور)

كنت قاضيا لحادث المنصة: مذكرات قاض عسكرى من حرب اليمن إلى اغتيال السادات، سفنكس للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، يناير ١٩٩٣.

أحمد طعيمة

شاهد حق: صراع السلطة نجيب، عبد الناصر، عامر، السادات، مطابع الأهرام التجارية، حقوق الطبع محفوظة للمؤلف، ١٩٩٩.

مصطفى بهجت بدوى

حكايات سبتمبر ٤٢: على هامش عهود فاروق وعبد الناصر والسادات، الأهرام، مركز الأهرام للترجمة والنشر، ١٩٩٠.

حلمى السعيد

شهادتى للأجيال، دار المستقبل العربى، ١٩٩٩ .

رياض سامى

شاهد على عصر الرئيس محمد نجيب، إعداد محمد ثروت، المكتب المصرى الحديث.

١٨ ـ أقوى من السلطة: مذكرات أساتذة الطب

الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٥ ـ رقم الإيداع ٧٢٥٦/ ٢٠٠٥
ISBN:977-01-9542-1

زكى سويدان (الدكتور)

مـشوار حياتى، أهم حوادث القرن، دار الوزان للطبـاعة والنشر - المعادى، ٦٦٤ صفحة، ١٩٩١ .

مصطفى الرفاعى (الدكتور)

خواطر طبيب، منشأة المعارف بالإسكندرية، ١٩٩٥ .

مصطفى الديوانى (الدكتور)

قصة حياتى، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٥ .

دمرداش أحمد (الدكتور)

يوميات طبيب فى الأرياف، سلسلة كتابك، الكتاب ٣٨، دار المعارف، القاهرة، ، ١٩٧٧ .

أرنست سليمان شلبى (الدكتور)

آقاصيص وأقاصيص، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٣

١٩ ـ بناء الجامعات والأكاديميات:
مذكرات رواد العلوم والفنون
الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٦ ـ رقم الإيداع ٢٠٠٦/١٣٨٥٩
ISBN:977-419-175-7

سليمان حزين (الدكتور)

مستقبل الثقافة فى مصر، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٤.

سمحة الخولى (الدكتورة)

من حياتى مع الموسيقى، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢.

عبد الحليم منتصر (الدكتور)

ذكريات عطرة وخواطر عابرة.. هؤلاء علمونى، دار المعارف بمصر، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٢.

عبد الكريم درويش (الدكتور)

حصاد السنين، مطابع الشرطة، القاهرة، الطبعة الأولى، أكتوبر ٢٠٠٣.

٢٠ـ فى كواليس الملكية:
مذكرات رجال الحاشية فى العصر الملكى

الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٧ ـ رقم الإيداع ٣٨٧٠/ ٢٠٠٧
ISBN:977-419-613-9

حسن يوسف

القصر ودوره فى السياسة المصرية ١٩٢٢ ـ ١٩٥٢: مذكرات حسن يوسف، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، ١٩٨٢.

حسين حسنى (الدكتور)

السكرتير الخاص للملك فاروق: سنوات مع الملك فاروق: شهادة للحقيقة والتاريخ، الطبعة الأولى، دار الشروق، ٢٠٠١.

صلاح الشاهد

ذكرياتى فى عهدين، الطبعة الثانية، دار المعارف بمصر، ١٩٧٦، الجزء الأول: عهد الملكية.

الغريب الحسينى

سنوات فى البلاد الملكى: مذكرات الغريب الحسينى، الحارس الخاص للملك فاروق، أخبار اليوم، قطاع الثقافة، ١٩٩٨.

٢١ـ فى رحاب العدالة:
مذكرات المحامين فى عصر مصر الحديثة

الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٧ ـ رقم الإيداع ٢٠٠٧/٥٧٥٧
ISBN:977-419-669-4

عبد الفتاح حسن (باشا)

ذكريات سياسية للوزير السابق عبد الفتاح حسن المحامى، دار الشعب، ١٩٧٤ .

فتحى رضوان

٧٢ شهراً مع عبد الناصر، كتاب الحرية، الطبعة الثالثة، ملحق صور، ١٩٨٧ . مثبت على الغلاف أنها: الطبعة الثانية (فصلان جديدان)، صدرت الطبعة الأولى، ١٩٨٥ .

يوسف نحاس (الدكتور)

ذكريات.. سعد عبد العزيز.. ماهر ورفاقه فى ثورة سنة ١٩١٩، .. تصرفات حكومية، دار النيل للطباعة، ١٩٥٢ .

محمود كامل (الدكتور)

يوميات محام، كتاب اليوم، عدد شهر يوليو ١٩٨٤، مؤسسة أخبار اليوم، ١٩٨٤ .

٢٢ـ يساريون فى عصر اليمين:
مذكرات قادة الفكر اليسارى المصرى

الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٧ ـ رقم الإيداع ٢٠٠٧/١٤٥٤٥
ISBN:977-419-777-1

محمد مراد غالب (الدكتور)

مع عبد الناصر والسادات: سنوات الانتصار وأيام المحن، مذكرات مراد غالب، مركز الأهرام للترجمة والنشر، ٢٠٠١.

حامد عمار (الدكتور)

خطى اجتزناها بين الفقر والمصادفة إلى حرم الجامعة، سيرة ذاتية، الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٦.

رشدى سعيد (الدكتور)

رحلة عمر، ثروات مصر بين عبد الناصر والسادات، دار الهلال، القاهرة، ٢٠٠٠.

عبد العظيم أنيس (الدكتور)

ذكريات من حياتى، كتاب الهلال، العدد ٦١٨، يونيو ٢٠٠٢، دار الهلال، ٢٠٠٢.

٢٣ ـ فى حدائق الجامعة:
مذكرات خريجى
جامعة القاهرة فى عقدها الأول
(١٩٣٠ ـ ١٩٤٠)

الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٧

د. عبد العزيز كامل:

فى نهر الحياة، المكتب المصرى الجديث، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦.

شكرى عياد:

العيش على الحافة، مكتبة الأسرة، ٢٠٠٣.

د. إبراهيم عبده:

الناس معادن، مكتبة الآداب بالجماميز وسجل العرب، ١٩٦٠.

سعيد جودة السحار:

مواقف فى حياتى، مكتبة نصر، الطبعة الثانية، منقحة مهذبة، مزيدة، بدون تاريخ

مكتب المؤلف

فى التراجم

■ **الدكتور محمد كامل حسين عالما ومفكرا وأديبا**

سيرة حياة المفكر المصرى الكبير محمد كامل حسين (١٩٠٢ - ١٩٧٧) صاحب «قرية ظالمة» و«وحدة المعرفة» و«الوادى المقدس» و«النحو المعقول» و«التحليل البيولوجى للتاريخ».
فاز بجائزة مجمع اللغة العربية الأولى فى الأدب (١٩٧٨)، صدرت الطبعة الأولى عام ١٩٧٨، وضمت الطبعة الثانية أبواباً كاملة وفصولاً مختلفة لم تضمها الطبعة الأولى.
الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٢.

■ **مشرفة بين الذرة والذروة**

سيرة العالم المصرى الكبير الدكتور على مصطفى مشرفة (١٨٩٨ - ١٩٥٠)، وإنجازاته العلمية ومدرسته الرائدة وأفكاره الاجتماعية وقدراته البيانية والموسيقية، وببليوجرافيا بإنتاجه وما كتب عنه، صدرت طبعته الأولى عام ١٩٨٠، ونال جائزة الدولة التشجيعية فى أدب التراجم (١٩٨٢).
الطبعة الثانية، مكتبة مدبولى، ٢٠٠١.

■ **سيرة حياة العالم الأديب الدكتور أحمد زكى**

يستعرض الإنتاج الفكرى والأدبى للدكتور أحمد زكى (١٨٩٤ - ١٩٧٥) فى كافة الميادين ويعرض آراءه وفلسفته فى الحياة والعلم والسياسة والفكر والاجتماع، وتتميز الطبعة الثانية باحتوائها على الببليوجرافيا الكاملة لإنتاج الدكتور أحمد زكى فى كتبه ودراساته وترجماته ومقالاته المتنوعة فى مجلات: الرسالة، والثقافة، والهلال، والاثنين، والدنيا، والعربى وغيرها.
الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٣.

■ **أحمد زكى حياته وفكره وأدبه**

يضم هذا الكتاب معظم فصول الأبواب الأولى من كتاب سيرة حياة العالم الأديب الدكتور أحمد زكى.
الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة أعلام العرب، ١٩٨٤.

■ **الدكتور على باشا إبراهيم**

سيرة حياة رائد الطب المصرى فى العصر الحديث د. على إبراهيم (١٨٨٠ - ١٩٤٧) وإنجازاته العلمية والحضارية، وآراؤه فى الحياة والعلم والطب والجامعة.
الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة أعلام العرب، ١٩٨٥.

■ **الدكتور نجيب محفوظ**

سيرة حياة الرائد الأول لطب النساء فى العالم العربى د. نجيب محفوظ (١٨٨٢ - ١٩٧٢)،

الذى أضاف إلى العلم كثيراً من الإنجازات، وعرض لفلسفته وقدراته العلمية والبحثية والبيانية.
الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة أعلام العرب، ١٩٨٦.

■ **الدكتور سليمان عزمى باشا**
سيرة حياة أول أطبائنا الباطنيين د. سليمان عزمى (١٨٨٢ - ١٩٦٦)، وتحليل لآرائه فى التعليم الطبى والجامعى، وفلسفته فى ربط الطب والتعليم الطبى بالحياة العامة.
الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة أعلام العرب، ١٩٨٦.

■ **عثمان محرم .. مهندس الحقبة الليبرالية المصرية (١٩٢٤ - ١٩٥٢)**
يستعرض المقومات العقلية والفكرية والمهنية والسياسية التى أسهمت فى صنع إنجازات المهندس الوطنى العبقرى عثمان محرم (١٨٨١ - ١٩٦٣)، ويعرض لسيرته المهنية والسياسية والوطنية، ويتدارس أوراق محنته فى أول عهد الثورة حين قدم للمحاكمة كنموذج لكباش الفداء التى أراد العهد الجديد بها أن يمحو من الأذهان مهابة وقيمة رموز العهد السابق.
مكتبة مدبولى ، ٢٠٠٤ .

■ **سيد مرعى، شريك وشاهد على عصور الليبرالية والثورة والانفتاح (١٩٤٤ - ١٩٨١)**
سيرة حياة المهندس سيد مرعى (١٩١٤ - ١٩٩٢)، وإسهاماته السياسية والمهنية والزراعية فى ثلاثة عصور متتالية، وما تركته شخصيته من بصمات سياسية واجتماعية لاتزال آثارها باقية.
مكتبة مدبولى، ١٩٩٩.

■ **إسماعيل صدقى باشا (١٨٧٥ - ١٩٥٠)**
سيرة حياة واحد من أهم الشخصيات التى مرت بتاريخ مصر الحديث وأثرت فى تاريخها القومى تأثيراً كبيراً بالإيجاب والسلب، وعرض لإنجازاته الاقتصادية والحضارية، ونقد لعقليته السياسية، وتقدير لأفكاره الاستراتيجية.
الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة تاريخ المصريين، ١٩٨٩.

■ **صانع النصر .. المشير أحمد إسماعيل (١٩١٧ - ١٩٧٤)**
سيرة حياة قائد عسكرى متميز أتيح له أن يتحقق على يديه أعظم نصر فى تاريخ مصر المعاصر، وملامح حياته وتكوين شخصيته وإنجازاته العسكرية على مدى حياته، ويناقش النقاط الخلافية فى تاريخه.
دار جهاد، ٢٠٠٣ .
الطبعة الثالثة ، دار جهاد ، ٢٠٠٥ .

■ **مايسترو العبور .. المشير أحمد إسماعيل**
سيرة موجزة لحياة قائد القوات العربية فى حرب ١٩٧٣.

■ **سماء العسكرية المصرية الشهيد عبدالمنعم رياض (١٩١٩ ـ ١٩٦٩)**

سيرة موجزة لحياة ألمع العسكريين العرب، وعرض سريع لأفكاره العسكرية والاستراتيجية وإسهاماته التاريخية.

دار الأطباء، ١٩٨٤.

■ **توفيق الحكيم من العدالة إلى التعادلية**

إطلالة سريعة بترتيب موضوعى على شخصية توفيق الحكيم وحياته وآثاره الأدبية، من خلال رحلته فى الحياة، وتعريف موجز بآثاره الأدبية والفكرية.

الهيئة المصرية العامة للكتاب، المكتبة الثقافية، ١٩٨٨.

■ **عبداللطيف البغدادى .. شهيد النزاهة الثورية**

سيرة حياة عبداللطيف البغدادى (١٩١٧ ـ ٢٠٠٠) أبرز رجال عهد الثورة فى المجال التنفيذى، وتتبع لفكره الإصلاحى والسياسى، وإنجازاته الحضارية، وإسهاماته فى الحياة البرلمانية، والوزارات المختلفة، والعلاقات العربية، ومحكمة الثورة، ورؤاه الاستراتيجية والسياسية والحربية.

دار الخيال، ٢٠٠٦.

■ **مصريون معاصرون**

مجموعة من كلمات ومقالات التأبين التى نشرت فى رثاء بعض المصريين المعاصرين أو إحياء ذكراهم، متضمنة أضواء موحية على بعض من الجوانب التى تبدت فى حياة وإنتاج هذه الشخصيات.

الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩١.

■ **كيف أصبحوا عظماء .. دراسات ورثاءات**

مجموعة منتقاة من الفصول والخطب والدراسات القيت أو كتبت فى تأبين بعض أعضاء مجمع اللغة العربية، وفى إحياء ذكرى رموز العلم والفكر والأدب فى احتفاليات الجمعية الخيرية الإسلامية بروادها، وفى سلسلة عظماء المصريين (روز اليوسف) وأيام فى الذاكرة (الأهرام).

الطبعة الأولى : دار الخيال، ٢٠٠٦.

■ **يرحمهم الله : كلمات فى التأبين**

تراجم انطباعية تأبينية لكل من : بدرالدين أبوغازى، وصلاح عبدالصبور، ومحمد زكى عبدالقادر، ود. يحيى المشد، ومحمد فهمى عبداللطيف.

دار الأطباء، ١٩٨٤.

■ **أحمد مستجير**

سيرة حياة وفكر وإنجازات عالم الوراثة المصرى والمفكر والأديب والمترجم عميد علماء الزراعة فى عصره وعضو مجمع الخالدين.

■ **مصطفى مشرفة**
سلسلة قمم مصرية ، السلسة الثقافية لطلائع مصر ،العدد ٣٧ ، المجلس القومى للشباب ، القاهرة ، فبراير ، ٢٠٠٧.

دراسات أدبية

■ **فن كتابة التجربة الذاتية : مذكرات الهواة والمحترفين**
مجموعة من القضايا النقدية والفكرية، المرتبطة بفن كتابة التجربة الذاتية، وأساسياته، وأركانه، وتطوره، ومدى الحاجة إليه، والنقاط الخلافية فيه مع محاولة لتأصيل مذهب المؤلف فى نقد أدبيات التجارب الذاتية المنشورة فى صور مختلفة.
دار الشروق، ١٩٩٧.

■ **فى ظلال السياسة.. نجيب محفوظ .. الروائى بين المثالية والواقع**
دراسة أدبية نقدية تحليلية تستعرض الفكر السياسى لنجيب محفوظ من خلال آرائه الصريحة المباشرة وأعماله الفنية ومذكراته المتعددة، وتثبت أنه فكر متقدم تناول القضايا الوطنية برؤية واضحة ونظر ثاقب وعبّر عن وعى سياسى من طراز متميز نجا من التقولب والأيدلوجيات واستشرف الأمل فى الآفاق الرحبة لمستقبل مزدهر لأمته ونجح فى لفت النظر إلى حقيقة الإيجابيات الليبرالية التى تحققت بفضل ثورة الشعب فى ١٩١٩.
دار جهاد، ٢٠٠٣.

■ **على هوامش الأدب**
مجموعة من الدراسات والبحوث فى اللغة والأدب والنقد، تحاول فهم النقد ووظيفته وتصور علاقة الإبداع بالحياة، وتحلل الوسائل الكفيلة بالارتقاء بالذوق الأدبى العام، وتناقش كثيراً من القضايا والإشكاليات التى شغلت الحياة الثقافية، وترتاد آفاقاً جديدة فى درس علاقة اللغة بالحياة فى عصر المعلومات، وفى علاقة النقد بالذوق فى حقبة تتسم بتسارع الخطى والانكفاء على الذات معاً.
الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٢.

■ **ثلاثية التاريخ والأدب والسياسة**
يناقش التأثيرات المتبادلة بين السياسة والتاريخ والأدب من خلال مجموعة من الفصول الموثقة (٢٣ فصلاً) تستعرض وقائع ثقافية وأدبية ونقدية محددة بعضها مشهور وبعضها لا يتمتع بالقدر الكافى من المعرفة به.
دار جهاد، ٢٠٠٣.

■ **من بين سطور حياتنا الأدبية**
خمسة من الفصول التى يضمها كتاب ثلاثية التاريخ والأدب والسياسية نشرت مبكراً.
دار الأطباء ، ١٩٨٤.

■ **أدباء التنوير والتاريخ الإسلامى**

دراسة وتعريف وتقييم لجهد ثلاثة من أساتذة كلية الآداب فى الجامعة المصرية تصدوا لكتابة تاريخ الأمة الإسلامية، تلقى الدراسة الضوء على ملامح وسمات ومميزات هذه التجربة الرائدة التى أثمرت عملاً يجمع بين الأدب والتاريخ، وقد أصبح بمثابة المصدر المفضل لأهل التاريخ وتاريخ الأدب العربى، وكثير من الدراسات الإنسانية.

الطبعة الثانية، دار الشروق، ١٩٩٤.

■ **كلمات القرآن التى لا نستعملها**

دراسة تطبيقية لنظرية العينات اللفظية مع جداول تفصيلية كاملة بالكلمات ومعانيها والآيات التى وردت فيها من خلال تصنيف لغوى دقيق مع شرح موجز لفكرة اختلاف العينات اللفظية والعوامل المؤثرة فى هذا الاختلاف.

صدر فى طبعتين : دار الأطباء، ١٩٨٤، دار الشروق، ١٩٩٧.

وجدانيات

■ **أوراق القلب (رسائل وجدانية)**

يضم أكثر من خمس وسبعين رسالة من الرسائل القصيرة تعبر بطريقة مبتكرة عن أحوال وجدانية متباينة، وتعكس قدرة عالية على التصوير والتعبير والقبض على لحظات الخصوصية والتفرد والمفارقة فى العلاقات الإنسانية.

الطبعة الأولى، دار الشروق، ١٩٩٤، الطبعة الثانية، دار جهاد، ٢٠٠٥.

■ **أوهام الحب : دراسة فى عواطف الأنثى**

يتضمن خمسة وثلاثين فصلاً ترسم الملامح الجوهرية فى الطبائع الإنسانية المتباينة، وتقدم صوراً فنية ونفسية دقيقة أقرب فى طبيعتها إلى اللقطة اللحظية، كما تقدم استعراضاً دقيقاً لتقلبات الوجدان ودواعيها وتواعبها.

الطبعة الأولى، الكتاب الأول فى سلسلة كتاب الجمهورية الشهرى، أغسطس ١٩٩٩.

الطبعة الثانية، دار جهاد، ٢٠٠٥.

فى أدب الرحلات

■ **رحلات شاب مسلم**

انطباعات ذاتية عن رحلات علمية مبكرة فى أمريكا وإيطاليا والهند وبريطانيا صورت فى دقة إبداعية بعض مشاعر الاحتكاك المباشر للمؤلف مع بيئات مختلفة وحضارات متعددة، كتبت بحرص شديد على الالتزام والدقة الموحية.

صدر فى ثلاث طبعات : دار الصحوة ١٩٨٧، دار الشروق ١٩٩٥، دار جهاد ٢٠٠٣.

■ **شمس الأصيل فى أمريكا**

يتميز بأسلوب مستحدث فى كتابة الرحلات لا يصف الطبيعة كما فعل السابقون، لكنه يحاول أن يصف الحضارة، وعلى حين أن وصف الطبيعة لا يستلزم إلا الحاسة الصادقة.. فإن وصف الحضارة يستلزم كذلك أقداراً متنامية من الدقة والإحاطة والتعمق والفهم والترتيب.. ويستلزم قبل ذلك أن تكون جندياً من جنود الحضارة لا فارساً من فرسان الطبيعة.

صدر فى طبعتين عن دار الشروق، ١٩٩٦، ودار جهاد، ٢٠٠٣.

مدارسات تاريخية ونقدية لكتب المذكرات

■ **مذكرات وزراء الثورة**

مدارسة أدبية نقدية تاريخية لمذكرات عشرة من وزراء ثورة يوليو ١٩٥٢ من ذوى الانتماءات المختلفة والأدوار المتباينة، فضلاً عن اختلاف آرائهم السياسية: كمال حسن على، وسيد مرعى، وعبدالجليل العمرى، وثروت عكاشة، وإسماعيل فهمى، وعثمان أحمد عثمان، وضياء داود، وأحمد خليفة، وعبدالوهاب البرلسى، وحسن أبوباشا.

دار الشروق، ١٩٩٤.

■ **المرأة والحرية ، مذكرات المرأة المصرية**

مدارسة أدبية نقدية تاريخية لقضية الحرية فى النظام الاجتماعى من خلال قراءة متأنية لمذكرات أربعة اتجاهات كاشفة عن دور المرأة المصرية فى الحياة العامة مشاركة للزوج فى مجده، أو ممارسة للسياسة، أو للوظيفة، أو عارضة لتجربة حياة متميزة: بنت الشاطئ، وجيهان السادات، ولطيفة الزيات، وزينب الغزالى، وإنجى أفلاطون، واعتدال ممتاز، وإقبال بركة، ونوال السعداوى، وسلوى العنانى، وثريا رشدى.

دار الخيال، ٢٠٠٤.

■ **مذكرات المرأة المصرية**

طبعة مختصرة ومبكرة من كتاب «الثورة والحرية» ، دار الشروق، ١٩٩٥.

■ **نحو حكم الفرد : مذكرات الضباط الأحرار**

تصوير دقيق للفترة الأولى من حكم ثورة يوليو (١٩٥٢ ـ ١٩٥٤) ومقدماتها وصراعاتها والتحولات التى انتهت إليها من خلال مدارسة أدبية نقدية تاريخية لمذكرات كل من: اللواء محمد نجيب، وخالد محيى الدين، وعبدالمنعم عبدالرؤوف، وجمال منصور، ومحمد عبدالفتاح أبوالفضل، وحسين حمودة.

دار الخيال، ٢٠٠٣.

■ **مذكرات الضباط الأحرار**

طبعة مختصرة ومبكرة من كتاب «نحو حكم الفرد» تضم أيضاً باباً عن مذكرات عبداللطيف

البغدادى لم تتضمنه الطبعة الثانية.
دار الشروق، ١٩٩٦.

■ **محاكمة ثورة يوليو : مذكرات رجال القانون والقضاء**

دراسة لعلاقة ثورة يوليو ١٩٥٢ بالقانون، وكيف أعلت الثورة من قيمة القانون فى بعض المواقف والصراعات التى نشبت بين تنظيمات الثورة وبين رجال القضاء الوطنى وذلك من خلال مدارسة أدبية نقدية تاريخية لمذكرات مجموعة من أعلام القانون والقضاء الذين مارسوا السياسة أو شاركوا فى الحياة العامة، وتشمل مذكرات كل من: محمد عصام الدين حسونة، وممتاز نصار، ومحمد عبدالسلام، وجمال العطيفى، ومحمد عبدالسلام الزيات، وماهر برسوم، وحسن عبدالغفار.
دار الخيال، ١٩٩٩ .

■ **الأمن القومى لمصر، مذكرات قادة المخابرات والمباحث**

مرجع ضخم يتدارس قضايا الأمن القومى المصرى من خلال قضاياه الأساسية والممارسات التاريخية لقادة أجهزته ويستعرض مذكرات الرؤساء الأربعة الأوائل لجهاز المخابرات العامة : صلاح نصر ، ومحمد حافظ اسماعيل ، وأمين هويدى ، وأحمد كامل ، واثنين من قادة أجهزة أمن الدولة : حسن طلعت ، وفؤاد علام.
طبعتان ، دار الخيال، ١٩٩٩.

■ **من أجل السلام ، مذكرات رجال الدبلوماسية المصرية**

تحليل ومقارنة لرؤى مجموعة من أعلام الدبلوماسية المصرية الذين شغلوا مواقع مختلفة وعاصروا حروب مصر الدبلوماسية من أجل استعادة التراب الوطنى : أحمد عصمت عبدالمجيد، ومحمود رياض، ومحمد إبراهيم كامل، وحسين ذوالفقار صبرى، ومحمد عبدالوهاب العشماوى، وجمال بركات.
دار الخيال، ١٩٩٩.

■ **الطريق إلى النكسة ، مذكرات قادة العسكرية المصرية ١٩٦٧**

مجموعة فصول تاريخية نقدية تتناول استعراضاً ومدارسة لمذكرات قادة الصف الأول فى حرب يونيو ١٩٦٧ وتحليل لآرائهم ورؤاهم عن الأسباب التى صنعت الهزيمة أو أدت إليها، أو حالت دون السيطرة عليها فى الوقت المناسب، والدراسة بمثابة أوفى مرجع لمذكرات عبدالحميد الدغيدى، وعبدالمحسن كامل مرتجى، وأنور القاضى، وصلاح الحديدى، ومحمد فوزى. وبعض هذه المذكرات لم تنشر إلا فى صحف محدودة التوزيع.
طبعتان ، دار الخيال، ٢٠٠٠ .

■ **النصر الوحيد : مذكرات قادة العسكرية المصرية ١٩٧٣**

مرجع أساسى لا غنى عنه لدراسة أمجد المعارك العربية التى خاضتها الأمة العربية فى ١٩٧٣، يتضمن الكتاب مدارسة ضخمة عن حقائق تلك الحرب ووقائعها من منظور وطنى وعلمى أمين مترفع عن الانحياز والغرض، ويقدم نظرات غير مسبوقة فى تحليل أحداث الحرب وتطورها ويستعرض بأمانة وتدقيق مذكرات خمسة من قادة حرب

أكتوبر من مستويات مختلفة شاركوا بجهد وافر فى صياغة وصناعة النصر : محمد عبدالغنى الجمسى، وسعد الشاذلى، وعبدالمنعم خليل، ويوسف عفيفى، وعادل يسرى. طبعتان ، دار الخيال، ٢٠٠٠ .

■ **فى أعقاب النكسة : مذكرات قادة العسكرية المصرية ١٩٦٧ - ١٩٧٢**

أوفى دراسة متاحة حتى الآن للفترة التى اصطلح على تسميتها بحرب الاستنزاف وهى فترة حافلة بالتناقضات فى الرأى والتصور والتكتيك ورواية الوقائع، ويقدم الكتاب تحقيقاً لكثير من هذه الجزئيات الخلافية من خلال مذكرات كل من: مدكور أبوالعز، ومحمد أحمد صادق، ومحمد صدقى محمود، ومحمد فوزى، والفريق صلاح الحديدى، والكتاب هو المصدر الوحيد لبعض هذه المذكرات التى لم تنشر إلا فى الصحف.

دار الخيال، ٢٠٠١ .

■ **على مشارف الثورة : مذكرات وزراء نهاية الملكية ١٩٤٩ - ١٩٥٢**

دراسة أدبية نقدية تاريخية لمذكرات خمسة من وزراء السنوات الأخيرة فى عهد الملكية ينتمون إلى اتجاهات وتوجهات مختلفة، مع تحليل أدبى تاريخى لما تضمنته المذكرات من حقائق وروايات، وتشمل مذكرات كل من: أحمد مرتضى المراغى، وكريم ثابت، وإبراهيم فرج، وصليب سامى، وعبدالرحمن الرافعى.

دار الخيال، ٢٠٠١ .

■ **فى خدمة السلطة .. مذكرات الصحفيين**

مدارسة أدبية نقدية تاريخية لعلاقات الصحافة بالسلطة على مدى عهد الثورة انتقالاً من عصر الليبرالية إلى التأميم والتنظيم إلى انفتاح محسوب، مع تحقيق لوقائع استغلال النفوذ ومصادرة الرأى: موسى صبرى، وأحمد بهاء الدين، وعبدالستار الطويلة، وفتحى غانم، وحلمى سلام، وجلال الدين الحمامصى.

دار الخيال، ٢٠٠٢ .

■ **الثورة والإحباط : مذكرات الأدباء وأساتذة الادب**

دراسة أدبية نقدية لمجموعة من المذكرات كتبها الأدباء وأساتذة الأدب وأضاءت علاقاتهم بالسياسة والحياة العامة وتفاعلات الأدب والكتابة فى عهد الثورة، وخبراتهم الفنية والأدبية، والعوامل التى شكلت وجدانهم، والتجارب التى عكستها آثارهم الأدبية، وتضم مذكرات الدكتورين: أحمد هيكل وعلى الحديدى، والأساتذة صالح مرسى، وفتحى أبوالفضل، وجليلة رضا، وعايدة الشريف، وأمانى فريد.

الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٤.

■ **أقوى من السلطة : مذكرات أساتذة الطب**

استعراض للتاريخ الاجتماعى فى الحياة المصرية المعاصرة من خلال منظور طبى وتعليمى اصطبغ بالعلاقة المباشرة والتجربة الحية مع شخصيات السلطة المتعاقبة وتوجهاتها المتباينة على نحو ما تضيئه مذكرات الدكاترة: زكى سويدان، ومصطفى الرفاعى، ومصطفى

الديوانى، ودمرداش أحمد، وأرنست سليمان شلبى.
الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٤ .

■ **عسكرة الحياة المدنية: مذكرات الضباط فى غير الحرب**

دراسة موسعة للتأثيرات العملية المباشرة وغير المباشرة لممارسة رجال القوات المسلحة للأدوار والمهام المدنية فى عهد الثورة فى مجالات الإدارة والوزارة والتنظيمات والسياسة والصحافة والقضاء والإعلام والدعوة والدبلوماسية والهندسة من خلال مدارسات مكثفة لمذكرات سمير فاضل، وأحمد طعيمة، وحلمى السعيد، ومصطفى بهجت بدوى، ورياض سامى.
الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٥.

■ **فى كواليس الملكية : مذكرات رجال الحاشية**

تحليل تاريخى واستعراض نقدى لمذكرات أربعة من الذين شغلوا مواقع مهمة فى القصور الحاكمة وقدر لهم أن يشهدوا بأعينهم ما يجرى فى الكواليس فى فترة حافلة بالأحداث، ثم قدرت لهم حياة ممتدة أتاحت لهم أن يربطوا بين ما رأوه وما عرفوه عن تاريخ الفترات والأحداث التى عاشوها عن قرب. مذكرات : حسن يوسف، ود. حسين حسنى، وصلاح الشاهد، والغريب الحسينى.
الطبعة الأولى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ٢٠٠٦ .

■ **فى رحاب العدالة : مذكرات المحامين فى عصور مصر الحديثة**

مدارسة تاريخية نفسية لمذكرات أربعة من المحامين المصريين من ذوى الاتجاهات الفكرية المختلفة (عبدالفتاح حسن، وفتحى رضوان، ود. محمود كامل، ود. يوسف نحاس) عملوا بالسياسة، والحزبية، والاقتصاد، والصحافة، والأدب، وظلوا على ولائهم لمهنة المحاماة يستلهمون قيمها، ويستعينون بخبراتها، ويوظفون مهاراتها، وحين كتبوا مذكراتهم فإنهم اعتبروها أداء للمحاماة عن معتقداتهم، وتصرفاتهم، وسلوكهم، وانحيازاتهم.
الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ٢٠٠٧ .

■ **يساريون فى زمن اليمين : مذكرات قادة الفكر اليسارى المصرى**

تأملات فكرية فى مذكرات أدبية من قادة الفكر اليسارى المصرى فى ميادين مختلفة قدر لهم أن يعايشوا صعود الفكر اليسارى ثم معاناته فى زمن التحول إلى اليمين : د. مراد غالب ، د. حامد عمار ، د. رشدى سعيد ، د. عبد العظيم أنيس
الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٧.

■ **فى ضوء القمر : مذكرات قادة العمل السرى والاغتيالات السياسية**

مدارسة تاريخية لمذكرات قادة العمل السرى المرتبط بالحزب الوطنى ، وجمعية التضامن الأخوى (١٩١٠ - ١٩٢٥). عبد العزيز على ، وعبد الفتاح عنايت ، واحمد رمضان زيان
مكتبة الشروق الدولية ، ٢٠٠٧.

■ **الوفد والعمل السرى : النشاط الفدائى تحت مظلة الوفد فى ثورة ١٩١٩**
مدارسة تاريخية لمذكرات قادة العمل الفدائى الوطنى فى ثورة ١٩١٩ : إبراهيم عبد الهادى ، وسيد باشا ، وعريان يوسف سعد ، ومحمد مظهر سعيد
الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ٢٠٠٧.

فى الفكر التربوى

■ **آراء حرة فى التربية والتعليم**
يتضمن هذا الكتاب مجموعة من الفصول عرض فيها المؤلف آراء حرة ومدروسة فى قضايا التربية والتعليم حاول بها أن يفتح الأبواب أمام الفهم المستقيم لهذه القضايا، وأن يقدم الحلول الأكثر مناسبة والأجدى فائدة لمشكلات مزمنة، وأن يوصل للفهم التربوى المعاصر من خلال فكر مفتوح لا يخضع للأهواء الوقتية.
الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١. طبعة خاصة ، مكتبة الأسرة ، ٢٠٠٥ .

■ **مستقبل الجامعة المصرية**
مجموعة مختارة من الأفكار والتصورات والمقترحات التى نشرها المؤلف فى الصحافة المصرية على مدى تسع سنوات مستهدفاً تجديد الرؤى فى إصلاح الجامعة على أسس علمية دون طفرة، ومعبراً عن رؤية علمية وعملية مختلفة عن تلك المطروحة على الساحة.
الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩ .

■ **تكوين العقل العربى .. مذكرات المفكرين والتربويين**
مدارسة أدبية نقدية تاريخية لمذكرات مجموعة من أبرز المفكرين والتربويين الذين أسهموا فى تكوين العقل العربى، وعرض لرؤاهم التربوية والفكرية ولوجهات نظرهم فى الحياة العقلية فى مصر المعاصرة من خلال تحليل انطباعاتهم ورؤاهم فيما يتعلق بتكوين عقلياتهم وعقلية تلاميذهم وأساتذتهم ومعاصريهم : شوقى ضيف، وعبدالرحمن بدوى، ومحمد عبدالله عنان، ومحمد على العريان، وأحمد عبدالسلام الكردانى، ونادية رضوان.
دار الخيال، ٢٠٠٢ .

■ **بناء الجامعات والأكاديميات: مذكرات رواد العلوم والفنون**
تحليل تاريخى وتوثيق تربوى للجانب المؤسسى فى أكاديميات التعليم المتخصص فى الشرطة والفنون والجامعات الإقليمية والاتحادات العلمية عبر مدارسة لمذكرات أربعة من الأكاديميين المؤسسين: سليمان حزين، وسمحة الخولى، وعبدالحليم منتصر، وعبدالكريم درويش.
الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٦.

■ **أستاذ الجيل فى السعودية : محمد طاهر الدباغ**
سيرة حياته وفكره التربوى وإنجازاته التربوية.

■ **فى حدائق الجامعة: مذكرات خريجى جامعة القاهرة فى عقدها الأول (١٩٣٠-١٩٤٠):**
عبدالعزيز كامل، ابراهيم عبده، شكرى عياد، سعيد جودة السحار
الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٧.

فى الفكر التنموى

■ **القاهرة تبحث عن مستقبلها**
مجموعة من المقالات والفصول استهدفت تغيير وجه القاهرة من خلال أفكار علمية وعملية تستند إلى تحليل المعلومات وتوظيفها، والقدرة على تصور البدائل وطرح الحلول انطلاقاً من رؤية رحبة الأفق، وقد تحقق بعض هذه الأفكار، ونتمنى أن يتحقق البعض الآخر لتصبح عاصمتنا فى المكانة اللائقة بها بين بقاع الدنيا.
دار المعارف، ٢٠٠٠.

■ **التنمية الممكنة: أفكار لمصر من أجل الازدهار**
مجموعة مختارة ومنتقاة من المقالات والدراسات التى كتبها ونشرها المؤلف على مدى سبع سنوات (١٩٩٤ - ٢٠٠١) طارحاً فيها أسلوبًا جديدًا لمعالجة قضايا الوطن الاقتصادية والاجتماعية، معتمداً على منهج موظف للمعلومات من أجل الانطلاق بفكر رحب يفيد من تجارب الحضارات السابقة والنظم السياسية المعاصرة، وتتناول الأفكار مناحى متعددة فى حياة الوطن ومستقبله واقتصادياته ويجمع هذه الأفكار أنها صادرة عن رؤية عملية قابلة للتنفيذ دون أن تتطلب موارد جديدة، وهو ما يدفع إلى المطالبة بالإسراع فى الأخذ بها من أجل ما ننشده من إزدهار فى مستقبل الوطن.
الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١.

■ **مستقبلنا فى مصر: دراسات فى الإعلام والبيئة والتنمية**
مقالات ودراسات مستفيضة لبعض مشكلات الحياة العامة فى مصر، تقدم رؤى مختلفة الطابع تصدر عن فهم جديد لطبيعة الحضارة المعاصرة بعيداً عن الآثار الكلاسيكية للأفكار الأيديولوجية التى صبغت بعض مناحى الحياة العامة فى مصر بما يستحسن الخلاص منه فى ظل فكر إنسانى علمى جديد يعتمد على التعويل على العناصر الإيجابية فى الإنسان، وعلى إعلاء قيمة الحرية، والتمكين للقيم الفاضلة فى حياة المجتمع، وفهم المشكلات فى إطارها الخاص بعيداً عن التعميم، وعلى استنطاق الإحصاءات بالبعد التنموى الذكى والمحافظ فى الوقت ذاته على البيئة.
الطبعة الثانية، دار الشروق، ١٩٩٧.

■ **الصحة والطب والعلاج فى مصر**
مجموعة من المقالات والفصول والدراسات تستعرض جوهر العلاقة بين الطب والصحة والمجتمع، وتقدم لمحات عن الدين والمرض، وعن مستقبل الطب الإسلامى، وعن طب الطوارئ. كما تقدم أفكاراً جديدة فى تطوير التعليم الطبى وتنظيم المؤسسات الطبية.

وتتضمن الطبعة الثانية دراسات موسعة تستهدف تطوير الخدمات الصحية بإعادة استخدام الموارد المتاحة من خلال رؤى عصرية لسياسات العلاج والصحة.

الطبعة الأولى، جامعة الزقازيق، ١٩٨٧ .

الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٥ .

فى الفكر السياسى

■ **الفلسطينيون ينتصرون أخيراً .. دراسات فى التنبؤ السياسى**

تقدم مجموعة المقالات والفصول التى يتضمنها الكتاب أفكار المؤلف وتصوراته لمسار الصراع العربى - الإسرائيلى وقضية فلسطين، وهجرة اليهود العرب إلى فلسطين، ومعضلات السياسات الفلسطينية، وأخطاء السياسات العربية فى حقب متتالية، وحقيقة العلاقة بين الولايات المتحدة الأمريكية والحركة الصهيونية وإسرائيل.

دار جهاد، ٢٠٠٢ .

■ **المسلمون والأمريكان فى عصر جديد**

مجموعة من الفصول والمقالات تتميز بجسارة فكرية وعقلية كفيلة بالنفاذ إلى جوهر المشكلات والتوجهات فى السياسة العالمية، ويجاهر المؤلف بأن الدعوة إلى الإسلام أجدى بكثير من الدفاع عنه. كما يستعرض مبرراته للتنبؤ بأن أمريكا قد تعتنق الإسلام، ويلقى الضوء على الدور الذى يلعبه الدين فى الانتخابات الأمريكية وفى غيرها من مواقع الأحداث فى عصر العولمة.

دار جهاد، ٢٠٠٢ .

موسوعة تاريخ النظام السياسى المصرى المعاصر

■ **النخبة المصرية الحاكمة (١٩٥٢ - ٢٠٠٠)**

مجموعة من الدراسات البيوجرافية التى يمكن وصفها بلغة البحث العلمى بأنها أصيلة وغير مسبوقة، ومجموعة من المقالات (المستندة إلى دراسات) تتناول بالبحث والتعليق تكوين شخصيات النخبة الحاكمة فى النصف الثانى من القرن العشرين وعوامل صعود هذه الشخصيات إلى مواقع المسئولية.

مكتبة مدبولى، ٢٠٠١ .

■ **قادة الشرطة فى السياسة المصرية (١٩٥٢ - ٢٠٠٠) دراسة تحليلية وموسوعة شخصيات**

دراسة عميقة لدور جهاز مهنى حيوى فى الحياة السياسية فى النصف الثانى من القرن العشرين، وتعريف بيوجرافى بستين شخصية شرطية مع ذكر أدوارها التاريخية وذلك من

خلال قراءات مكثفة، ومقابلات منتقاة، ودراسات عميقة.
مكتبة مدبولي، ٢٠٠٢ .

■ **البنيان الوزارى فى مصر (١٨٧٨ ـ ٢٠٠٠)**

المرجع الأول والأوفى فى مجاله، وهو دراسة تاريخية وفهارس كمية وتفصيلية لإنشاء وإلغاء وإدماج الوزارات والقطاعات الوزارية وتبعيات المصالح والهيئات للوزارات المختلفة، ودراسة لتوزيع المسئوليات الوزارية والوزراء الذين تعاقبوا على كل وزارة.
صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب عن دار الشروق، وركزت على فترة الثورة.
الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٠ .
طبعة خاصة : مكتبة الأسرة ، ٢٠٠٥ .

■ **الوزراء ورؤساؤهم ونواب رؤسائهم ونوابهم ، تشكيلاتهم وترتيبهم ومسئولياتهم**

توثيق تاريخ الوزارات المصرية وتشكيلاتها منذ قيام الثورة ١٩٥٢، من خلال ثلاثة أبواب، الأول: ترتيبى، والثانى: زمنى، والثالث: شخصى، ويقدم معلومات عن الوزراء ورؤسائهم ونواب رؤسائهم ونوابهم وتشكيلاتهم وترتيبهم ومسئولياتهم.
صدر فى طبعتين عن دار الشروق، ١٩٩٦ ، ١٩٩٧ .

■ **التشكيلات الوزارية فى عهد الثورة (١٩٥٢ ـ ١٩٨١)**

طبعة مبكرة ومختصرة من كتاب الوزراء، تقف عند نهاية حكم الرئيس السادات، وتقدم فقط بعض ما شمله البابان الثانى والثالث من كتاب الوزراء.
الهيئة العامة للاستعلامات، ١٩٨٦ .

■ **المحافظون**

دراسة تأسيسية تشمل قوائم كاملة وترتيبية وفهارس تفصيلية وأبجدية وزمنية ودراسة لتسلسل وتطور اختيار المحافظين منذ بدء نظام الإدارة المحلية (١٩٦٠) وحتى نهاية القرن العشرين. مع الإشارة إلى خلفياتهم المهنية وعلاقتهم بالمناصب الوزارية والإدارية.
صدرت الطبعة الأولى عن دار الشروق، ١٩٩٦.
الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١.

■ **كيف أصبحوا وزراء .. دراسة فى صناعة القرار السياسى**

فصول بيوجرافية وتاريخية فى إطار دراسة تحليلية ونقدية لصناعة القرار السياسى فى مصر، وهى دراسة لا تخلو من استرجاع ومن إحصاء ومن استقراء ومن استنباط، ومن تحقيق للروايات ومن عرض للرأى والرأى الآخر، ومن وضع المقارنات على هيئة جداول وأرقام.
دار الخيال، ٢٠٠٢.

أعمال موسوعية

■ **القاموس الطبى نوبل فى ٣ أجزاء (بالاشتراك مع أ. د. محمد عبداللطيف)**

قاموس طبى ضخم يحوى ستين ألف مصطلح يسهل من خلاله الوصول إلى المصطلح المقابل من خلال أى لغة من لغات الإنجليزية والفرنسية والألمانية، ويشمل مسارد كاملة لكافة المصطلحات الطبية الواردة فى اللغات.

دار الكتاب المصرى، دار الكتاب اللبنانى، بيروت، القاهرة، ١٩٩٨.

■ **دليل الخبرات الطبية القومية وتاريخ التعليم الطبى الحديث**

نبذات وافية ومعلومات كاملة تاريخية عن تطور مؤسسات وهيئات التعليم الطبى المصرية فى الجامعات ومراكز البحوث ووزارة الصحة.

الجمعية المصرية للأطباء الشبان، ١٩٨٧.

فى طب القلب

■ **أمراض القلب الخلقية الصمامية ٢٠٠١**

كتاب طبى مرجعى يصلح أيضاً للثقافة العامة، يستعرض الخلقية الصمامية وأسبابها وطرائق تشخيصها وعلاجها وجراحاتها ومآلها.

دار المعارف، ٢٠٠١.

■ **أمراض القلب الخلقية : الثقوب والتحويلات ٢٠٠٢**

كتاب طبى مرجعى يصلح أيضاً للثقافة العامة، عرض فيه المؤلف الأمراض الناشئة عن وجود ثقوب أو تحويلات فى تشريح القلب، مع تقديم صورة وافية عنها والاستعانة بكل ما يمكن أن يصور طبيعة المرض وحقيقته وسماته والطرق المتاحة لتشخيصه وعلاجه وجراحاته.

دار المعارف، ٢٠٠١ .

تحقيق

■ **يوميات على مصطفى مشرفة .. يناير ١٩١٨ ـ يوليو ١٩١٨**

تحقيق دقيق لمخطوطة من اليوميات التى وجدت فى آثار العالم المصرى الكبير عن الشهور الأولى من فترة بعثته إلى بريطانيا وما حفلت به مشاعره من حس وطنى ودينى، وتفاعل مع صورة مختلفة من الحياة، وحوارات عقيدية وفكرية، وخبرات علمية وحضرية وثقافية مكثفة.

مكتبة الأسرة، ٢٠٠٣.

ببليوجرافيات

■ **مجلة الثقافة (١٩٣٩ ـ ١٩٥٢) تعريف وفهرسة وتوثيق**

سيرة حياة مجلة رائدة، ودراسة صحفية وأدبية تحليلية للمجلة الشهيرة التى أصدرتها لجنة التأليف والترجمة والنشر بصفة أسبوعية، وتشمل فهرسة كاملة للأعداد الـ ٧٢٣، وكشافات للموضوعات التى أسهم بها الكتاب الذين بلغ عددهم أكثر من ألف، مع تراجم وافية لحوالى ١٣٠ كاتباً بارزاً واظبوا على الكتابة للمجلة، وتعد بعض النبذات البيوجرافية المقدمة عن هؤلاء بمثابة النبذات التعريفية الوحيدة المتاحة عنهم.

الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣.

■ **الببليوجرافيا القومية للطب المصرى (٨ أجزاء)**

ببليوجرافيا كاملة للبحوث الطبية المنشورة فى مائة وخمسين دورية طبية مصرية (١٩٨٥ ـ ١٩٨٨)، مع معلومات ببليوجرافية كاملة وملخصات وافية للبحوث، صدر فى ثمانية أجزاء نشرتها الأكاديمية الطبية العسكرية على مدى الفترة من ١٩٨٨ وحتى ١٩٩١.

المحتويات

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

ص. ب : ٢٣٥ الرقم البريدى : ١١٧٩٤ رمسيس

WWW. egyptianbook. org. eg

E - mail : info @egyptianbook.org. eg